الرُّبع الرابع رُبع المنجيات

كتاب التوبة وذكر شروطها وأركانها وما يتعلق بذلك

اعلم : أن الذنوب حجاب عن المحبوب ، والانصراف عما يبعد عن المحبوب واجب . وإنما يتم ذلك بالعلم والندم والعزم ، فإنه متى لم يعلم أن الذنوب أسباب البعد عن المحبوب ، لم يندم على الذنوب ، ولم يتوجع بسبب سلوكه طريق البعد ، وإذا لم يتوجع لم يرجع . وقد أمر الله ــ تعالى ــ بالتوبة فقال : **﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾**[1] . وقال ــ سبحانه ــ: **﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً ﴾**[2] الآية . وقال : **﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾**[3] . وقال النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: **« يأيها الناس توبوا إلى ربكم ، فإنى أتوب إلى الله فى اليوم مائة مرَّة »**[4] .

وفى « الصحيحين » من حديث ابن مسعود ــ رضى الله عنه ــ، أن رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ قال : **« لله أشد فرحاً بتوبة عبده المؤمن من رجل فى أرض دَوِّية[*] مهلكة ، معه راحلته ، عليها طعامه وشرابه ، فنام فاستيقظ وقد ذهبت ، فطلبها حتى أدركه العطش ، ثم قال : أرجع إلى مكانى الذى كنت فيه ، فأنام حتى أموت ، فوضع رأسه على ساعده ليموت ، فاستيقظ وعنده راحلته ، عليها زاده وطعامه وشرابه ، فالله أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته »**[5] . والأحاديث فى هذا كثيرة ، والإجماع منعقد على وجوب التوبة ، لأن الذنوب مهلكات مبعدات عن الله ــ تعالى ــ، فيجب الهرب منها على الفور . والتوبة واجبة على الدوام ، فإن الإنسان لا يخلو عن معصية ، لو خلا عن معصية بالجوارح لم يخل عن الهم بالذنب بقلبه ، وإن خلا عن ذلك ، لم يخل عن وسواس الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله ــ تعالى ــ، لو خلا عنه لم يخل عن غفلة وقصور فى العلم بالله ــ تعالى ــ

---

(١) النور : ٣١ . (٢) التحريم : ٨ . (٣) البقرة : ٢٢٢ .

(٤) رواه أبو داود بنحوه فى كتاب « الوتر » باب « الاستغفار » رقم [١٥١٥] ، والإمام أحمد فى مسنده [٢/٤٥٠] عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ.

(*) الدَّاوِيَّة ، والدَّاوِيَة : الفلاة (الصحراء) .

(٥) رواه الإمام مسلم فى كتاب « التوبة » رقم [٣] ، والإمام أحمد فى مسنده [٤/٢٧٣ ، ٢٧٥ ، ٢٨٣] ــ ورواه الترمذى فى كتاب « صفة القيامة » باب [٤٩] وقال : هذا حديث حسن صحيح [٩/٣٠٧ ــ ٣٠٨] .

obeikandl.com

وصفاته وأفعاله ، وكل ذلك نقص ، ولا يسلم أحد من هذا النقص ، وإنما الخلق يتفاوتون فى المقادير ، وأما أصل ذلك ، فلابد منه .

ولهذا قال النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « **إنه ليغان على قلبى ، فأستغفر الله فى اليوم والليلة سبعين مرة** »[1] . ولذلك أكرمه الله ــ تعالى ــ بقوله : ﴿ **لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ من ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ** ﴾[2] . فأما غيره فكيف يكون حاله ؟ ومتى اجتمعت شروط التوبة كانت صحيحة مقبولة ، قال الله ــ تعالى ــ: ﴿ **وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ** ﴾[3] . وفى الحديث أن رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ قال : « **إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر** »[4] . والأحاديث فى ذلك كثيرة .

● فصل فى بيان أقسام الذنوب

واعلم : أن للإنسان أخلاقاً وأوصافاً كثيرة ، لكن تنحصر مثارات الذنوب فى أربع صفَات : **أحدها** : صفات ربوبية ، ومنها يحدث الكبر والفخر ، وحب المدح والثناء ، والعز وطلب الاستعلاء ، ونحو ذلك ، وهذه ذنوب مهلكات ، وبعض الناس يغفل عنها ، فلا يعدها ذنوباً . **الثانية** : صفات شيطانية ، ومنها يتشعب الحسد ، والبغى والحيل والخداع والمكر ، والغش والنفاق والأمر بالفساد ونحو ذلك . **الثالثة** : الصفات البهيمية ، ومنها يتشعب الشر والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج ، فيتشعب من ذلك الزنى واللواطة والسرقة ، وأخذ الحطام لأجل الشهوات . **الرابعة** : الصفات السبعية ، ومنها يتشعب الغضب والحقد ، والتهجم على الناس بالقتل والضرب ، وأخذ الأموال ، وهذه الصفات لها تدرج فى الفطرة .

فالصفة البهيمية هى التى تغلب أولاً ، ثم تتلوها الصفة السبعية ثانياً ، فإذا اجتمعت هاتان ، استعملتا العقل فى الصفات الشيطانية ، من المكر والخداع والحيل ، ثم تغلب الصفات الربوبية .

فهذه أمهات الذنوب ومنابعها ، ثم تتفجر الذنوب من هذه المنابع إلى الجوارح ، فبعضها فى القلب ، كالفكر ، والبدعة ، والنفاق ، وإضمار السوء ، وبعضها فى العين ، وبعضها فى السمع ، وبعضها فى اللسان ، وبعضها فى البطن والفرج ، وبعضها فى اليدين والرجلين ، وبعضها على جميع البدن ، ولا حاجة إلى تفاصيل ذلك ، فإنه واضح . ثم الذنوب تنقسم

---

(١) رواه أبو داود فى كتاب الصلاة باب الاستغفار رقم [١٥١٥] لكن فيه : « استغفر الله مائة مرة » ، ورواه الإمام أحمد فى المسند [٢٨٢/٢ ، ٣٤١] ، والبخارى فى الدعوات باب استغفار النبى رقم [٦٣٠٧] بلفظ : « والله إنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة » .

(٢) الفتح : ٢ . (٣) الشورى : ٢٥ .

(٤) رواه الترمذى فى صحيحه [٥٨/١٣] وقال : هذا حديث حسن غريب ، والإمام أحمد فى مسنده =

إلى ما يتعلق بحقوق الآدميين ، وإلى ما بين العبد وبين ربه . فما يتعلق بحقوق العباد ، فالأمر فيه أغلظ ، والذى بين العبد وبين ربه ، فالعفو فيه أرجى وأقرب ، إلا أن يكون شركاً والعياذ بالله ، فذلك الذى لا يغفر . وقد روى عن عائشة ــ رضى الله عنها ــ قالت : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « **الدواوين عند الله ــ عز وجل ــ ثلاثة : ديوان لا يعبأ الله به ، وديوان لا يترك الله منه شيئاً ، وديوان لا يغفره الله . فأما الديوان الذى لا يغفره الله ــ تعالى ــ، فالشرك . قال الله ــ تعالى ــ: ﴿ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ ﴾**[1] . وأما الديوان الذى لا يعبأ الله به شيئاً ، فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين الله ــ عز وجل ــ، يغفر ذلك ، ويتجاوزون إن شاء . وأما الديوان الذى لا يترك منه شيئاً ، فظلم العباد بعضهم بعضاً ، فالقصاص لا محالة »[2] .

قسمة أخرى ــ اعلم : أن الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر ، وقد كثر الاختلاف فيها ، واختلفت الأحاديث فى عدد الكبائر . والأحاديث الصحاح فى ذكرها خمسة. **الأول** : حديث أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ، أن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ قال : « **اجتنبوا السبع الموبقات . قالوا : يارسول الله : وما هن ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرَّم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات** »[3] . **الثانى** : حديث ابن مسعود ــ رضى الله عنه ــ، أن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ، سئل أى الذنب أكبر ؟ قال : « **أن تجعل لله نداً وهو خلقك ، قال : ثم أى ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك ، قال : ثم أى ؟ قال : أن تزانى حليلة جارك** »[4]. **الثالث** : حديث عبد الله بن عمر ــ رضى الله عنهما ــ، أن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ قال : « **الكبائر : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين** »[5].

= [١٣٢/٢ ، ١٥٣] ــ [٤٢٥/٣] . (١) المائدة : ٧٢ .

(٢) رواه الإمام أحمد فى مسنده [٢٤٠/٦] ، والحاكم فى مستدركه [٥٧٥/٤] عن عائشة أم المؤمنين وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وتعقبه الذهبى فقال : ضعيف ، لأن فيه صدقة بن موسى (ضعفوه) ، ويزيد بن بابنوس (فيه جهالة) .

(٣) رواه البخارى فى كتاب « الوصايا » باب [٢٣] رقم [٢٧٦٦] ، ومسلم فى كتاب « الإيمان » رقم [١٤٤] .

(٤) رواه البخارى فى صحيحه كتاب الديات باب ﴿ ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم ﴾ رقم [٦٨٦١] ، مسلم فى كتاب الإيمان رقم [١٤٢] .

(٥) الحديث رواه البخارى فى صحيحه كتاب « الأدب باب عقوق الوالدين من الكبائر » رقم [٥٩٧٦] ، والإمام أحمد فى مسنده [٢٠١/٢ ، ٢١٤] ــ [٤٩٥/٣] عن ابن مسعود ، الترمذى فى صحيحه كتاب « التفسير » ــ تفسير سورة النساء ــ عن أنس [١٤٩/١١ ــ ١٥٠] وقال : حديث حسن غريب صحيح .

الرابع : « **ألا أنبئكم بأكبر الكبائر : قول الزور ــ أو قال ــ شهادة الزور** »[1] .

الخامس : حديث أبى بكرة أن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ ذكرت عنده الكبائر قال : « **الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وكان متكئاً فجلس ، فقال : ألا وقول الزور ، وشهادة الزور** » فمازال يكررها حتى قلنا : ليته سكت . وقد اختلفت العلماء فيها على أقوال كثيرة ، والأحاديث فى الكبائر لا تدل على حصرها فيها ، ولعل الشارع قصد الإبهام ليكون الناس على وجل من الذنوب ، لكن يعرف من الأحاديث أجناس الكبائر ، ويعرف أيضاً أكبر الكبائر . فأما أصغر الصغائر ، فلا سبيل إلى معرفته ، وقد تكلم العلماء فى عدد الكبائر ، فروى عن ابن مسعود ــ رضى الله عنه ــ أنه قال : هى أربع . وروى عن ابن عمر ــ رضى الله عنهما ــ أنه قال : هى سبع . وكان ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ إذا بلغه قول ابن عمر : إنها سبع ، قال : هى إلى سبعين أقرب منها إلى سبع . وقال أبو صالح عن ابن عباس : هى ما أوجب الحد فى الدنيا .

وعن ابن مسعود أن الكبائر من فاتحة النساء[*] إلى قوله : ﴿ **إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ** ﴾[2] . وقال سعيد بن جبير وغيره : هى كل ذنب أوعد الله عليه النار . وقال أبو طالب المكى : الكبائر سبع عشرة جمعتها من جملة الأخبار . أربعة فى القلب : الشرك ، والإصرار على المعصية ، والقنوط من ــ رحمة الله ــ ، والأمن من مكر الله ــ تعالى ــ . وأربعة فى اللسان : شهادة الزور ، وقذف المحصنات ، واليمين الغموس ، والسحر . وثلاثة فى البطن : شرب الخمر ، وأكل مال اليتيم ظلماً ، وأكل الربا . واثنتان فى الفرج : الزنا واللواطة . واثنتان فى اليدين : القتل والسرقة . وواحدة فى الرجلين : الفرار من الزحف . واحدة فى جميع البدن : وهى عقوق الوالدين . وهذا يمكن أن يزاد عليه ، وينقص منه ، فإن ضرب اليتيم وتعذيبه أكبر من أكل ماله ، والله أعلم .

● فصل فى كيفية توزع الدرجات فى الآخرة على الحسنات والسيئات فى الدنيا

اعلم : أن الناس يتفاوتون فى الآخرة ، كما يتفاوتون فى الدنيا ، وينقسمون إلى أربعة أقسام : هالكين ، ومعذبين ، وناجين ، وفائزين . ومثال ذلك أن يستولى ملك من الملوك على إقليم ، فيقتل بعض أهله ، ويعذب بعضهم ولا يقتلهم ، ويخلى بعضهم ، فهم الناجون ، ويخلع على بعضهم وهم الفائزون . وإذا كان الملك عادلاً ، فلا يقسمهم كذلك إلا

---

(١) رواه الترمذى فى صحيحه كتاب التفسير [١١/١٥٠ ــ ١٥١] عن أبى بكرة وقال : هذا حديث حسن غريب صحيح ، والبخارى فى كتاب « الأدب » باب « عقوق الوالدين » رقم [٥٩٧٦] ، مسلم فى الإيمان رقم [١٤٣ ، ١٤٤] ، المسند [٣/١٣١] ــ [٥/٣٦ ، ٣٨] .

(*) يعنى من أول سورة النساء . (٢) النساء : ٣١ .

باستحقاق ، ولا يقتل إلا جاحداً لاستحقاق الملك ، معانداً له فى أصل الولاية ، ولا يعذب إلا من قصَّر فى خدمته مع الاعتراف له بالملك ، ولا يخلى إلا معترفاً له بالملك ، ولم يقصر ، ولا يخلع إلا على من أبلى عمره فى الخدمة والنصرة ، وكل واحد من هذه الأقسام يتفاوتون فى النعيم والتعذيب على حسب أحوالهم ، ويشهد لذلك ما ورد فى الحديث أن من الناس من يمر على الصراط كالبرق الخاطف ، ومنهم من يبقى فى النار سبعة آلاف سنة ، وبين اللحظة وسبعة آلاف سنة تفاوت كثير .

وأما اختلاف العذاب بالشدة ، فلا نهاية لأعلاه ، وأدناه التعذيب بالمناقشة فى الحساب ، كما أن الملك قد يعذب بعض المقصرين فى الأعمال بالمناقشة فى الحساب ، ثم يعفو ، وقد يضرب بالسياط أو يعذب بغيرها من أنواع العذاب . وتفاوت منازل أهل السعادة على نحو ذلك فى النعيم ، فهذه الأمور الكلية معلومة بالنقل ونور المعرفة . فأما من جهة التفصيل ، فنقول : كل من أحكم أصل الإيمان ، واجتنب جميع الكبائر ، وأحسن جميع الفرائض ، ولم يكن منه إلا صغائر متفرقة لا يصر عليها ، فيشبه أن يعفى عنه ، فقد نص القرآن على أن اجتناب الكبائر مكفر للصغائر . وهذا إما أن يلتحق بالمقربين ، أو بأصحاب اليمين ، وذلك بحسب إيمانه ويقينه ، فإن قل أو ضعف ، دنت منزلته ، وإن كثر وقوى ، علت منزلته . ثم إن المقربين يتفاوتون بحسب تفاوت معرفتهم بالله ــ تعالى ــ، ودرجات العارفين فى المعرفة لا تنحصر ، لأن بحر المعرفة لا ساحل له ، وإنما يغوص فيه الغواصون بقدر قواهم ، فأعلى درجات أصحاب اليمين ، أدنى درجات المقربين ، هذا حال من اجتنب الكبائر وأدى الفرائض .

فأما من ارتكب كبيرة ، أو أهمل أركان الإسلام ، فإنه إن تاب توبة نصوحاً قبل قرب الأجل ، التحق بمن لم يرتكب ، لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، والثوب المغسول كالذى لم يتسخ أصلاً . فأما إن مات قبل التوبة ، فأمره خطر ، إذ ربما يكون موته على الإصرار سبباً لتزلزل إيمانه ، فيختم له بسوء الخاتمة ، لا سيما إذا كان إيمانه تقليداً فإنه قابل للانحلال بأدنى شك وخيال ، والعارف الموقن أبعد من أن يخاف عليه سوء الخاتمة . ثم إن عذاب الميت عن غير توبة يكون بحسب قبح الكبائر ومدة الإصرار . ثم ينزل البله المقلدون الجنة ، وينزل العارفون المستبصرون أعلى عليين ،وما ذكرناه من مراتب العباد فى المعاد حكم ظاهر الأسباب ، يضاهى حكم الطبيب على مريض بأنه يموت لا محالة ،ولا يقبل إصلاح العلاج ، وعلى مريض آخر بأن عارضه خفيف ، وعلاجه هيِّن ، فإن ذلك ظن يصيب غالباً ، وقد تثوب إلى الهلاك نفسه من حيث لا يشعر الطبيب ، وقد يساق إلى ذى العارض الخفيف أجله من حيث لا يطلع عليه ، وذلك لأسرار الله ــ تعالى ــ الخفية ، وفى أرواح الأحياء غموض للأسباب التى رتبها المسبب ، وليس فى قوة البشر الوقوف على كنهها ، وكذلك

الفوز والهلاك فى الآخرة لهما أسباب خفية ليس فى قوة البشر الاطلاع عليها ، وكذلك يجوز العفو عن العاصى وإن كثرت سيئاته ، والغضب على المطيع وإن كثرت طاعاته الظاهرة ، فإن الاعتماد على التقوى ، والتقوى فى القلب ،وأحوال القلب قد تخفى على صاحبه ، فكيف على غيره ؟ وأما الناجون ، ونعنى بالنجاة السلامة فقط دون السعادة والفوز ، وهم قوم لم يخدموا فيخلع عليهم ، ولم يقصروا فيعذبوا ، ويشبه أن يكون هذا حال المجانين ، وأولاد الكفار ، والذين لم تبلغهم الدعوة ، فلم يكن لهم معرفة ، ولا جحود ، ولا طاعة ، ولا معصية ، ويصلح أن يكونوا على الأعراف .

وأما الفائزون ، فهم العارفون ، وهم المقربون والسابقون ، وهؤلاء الذين لا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرَّة أعين ، وليس حرصهم على الجنة ، بل على لقاء الله ــ سبحانه وتعالى ــ والنظر إليه . ومثالهم مثال المحب ، فإنه فى تلك الحال غافل عن نفسه ، لا يحس بما يصيبه فى بدنه ، ولا همَّ له سوى محبوبه ، فهؤلاء الواصلون إلى قرَّة أعين ، ولا تخطر على قلب بشر ، فهذا القدر كاف فى بيان توزيع الدرجات على الحسنات .

● فصل فى بيان ما تعظم به الصغائر من الذنوب

اعلم : أن الصغيرة تكبر بأسباب : منها الإصرار والمواظبة . وفى الحديث من رواية ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ عن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ أنه قال : « **لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع الاستغفار** »[1] .

واعلم : أن العفو عن كبيرة قد انقضت ولم يتبعها مثلها ، أرجى من العفو عن صغيرة يواظب عليها العبد . ومثال ذلك قطرات من الماء تقع على حجر متواليات ، فإنها تؤثر فيه ، ولو جمعت تلك القطرات فى مرة وصبت عليه لم تؤثر ، ولهذا قال ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « **أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل** »[2] .

ومن الأسباب التى تعظم بها الصغائر أن يستصغر الذنب ، فإن الذنب كلما استعظمه العبد ، صغر عند الله ــ تعالى ــ، وكلما استصغره العبد ، كبر عند الله ــ تعالى ــ، فإن استعظامه يصدر عن نفور القلب منه وكراهيته له . قال ابن مسعود ــ رضى الله عنه ــ: إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه فى أصل جبل يخاف أن يقع عليه ، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه ، فقال به هكذا . أخرجاه فى « الصحيحين »(3). وإنما يعظم الذنب فى قلب

---

(١) فى جمع الجوامع [٩١٥/١] عزاه للديلمى عن أنس وابن عباس معاً .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه كتاب « الرقاق » باب « القصد والمداومة على العمل » رقم [٦٤٦٤] ، ومسلم فى كتاب « المسافرين » رقم [٢١٦ ، ٢١٨] ، الإمام أحمد فى المسند [٣٥٠/٢] ــ [٢١٩/٥] ــ [٤٠/٦ ، ٦١ ، ١٢٥ ، ١٦٥ ، ١٧٦] عن عائشة أم المؤمنين .

(٣) رواه البخارى فى صحيحه كتاب « الدعوات » باب « التوبة » رقم [٦٣٠٨] ، الترمذى فى صحيحه =

المؤمن لعلمه بجلال الله ـــ تعالى ـــ، فإذا نظر إلى عظمة من عصى ، رأى الصغيرة كبيرة .

وفى البخارى من حديث أنس ـــ رضى الله عنه ـــ: « إنكم لتعملون أعمالاً هى أدق فى أعينكم من الشعر إن كنا لنعدها على عهد رسول الله ـــ صلى الله عليه وآله وسلم ـــ من الموبقات »[1]. وقال بلال بن سعد ـــ رحمه الله ـــ: لا تنظر إلى صغر الخطيئة ، ولكن انظر إلى عظمة من عصَيْتَ . ومن الأسباب أن يفرح بالصغيرة ويتمدح بها ، كما يقول : أما رأيتنى كيف مزَقت عرض فلان . وذكرت مساويه حتى خجلته ، أو يقول التاجر : أما رأيت كيف روجت عليه الزائف ، وكيف خدعته وغبنته ، فهذا وأمثاله تكبر به الصغائر . ومنها أن يتهاون بستر الله ـــ تعالى ـــ وحلمه عنه وإمهاله إياه ولا يدرى أن ذلك قد يكون مقتاً ليزداد بالإمهال إثماً .

ومنها أن يأتى بالذنب ثم يذكره بمحضر من غيره ، وفى « الصحيحين » من حديث أبى هريرة ـــ رضى الله عنه ـــ، أن النبى ـــ صلى الله عليه وآله وسلم ـــ قال : « **كل أمتى معافًى إلا المجاهرين ، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل العمل بالليل ، ثم يصبح وقد ستره الله عليه ، فيقول : يافلان : عملت البارحة كذا وكذا ، وقد بات يستره الله عليه ، ويصبح يكشف ستر الله عنه** »[2]. ومنها أن يكون المذنب عَالِماً يُقْتدى به ، فإذا علم منه الذنب ، كبر ذنبه ، كلبسه الحرير ، ودخوله على الظلمة مع ترك الإنكار عليهم ، وإطلاق اللسان فى الأعراض ، واشتغاله من العلوم بما لا يقصد منه إلا الجاه ، كعلم الجدل ، فهذه ذنوب يتبع العالم عليها ، فيموت ويبقى شره مستطيراً فى العالم ، فطوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه . وفى الحديث : « **ومن سن فى الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شىء** »[3]. فعلى العالم وظيفتان :

إحداهما : ترك الذنب ، والثانية : إخفاؤه إذا أتاه . وكما تتضاعف أوزار العلماء إذا اتبعوا على الذنوب ، كذلك تتضاعف حسناتهم إذا اتبعوا على الخير . وينبغى للعالم أن يتوسط فى ملبسه ونفقته ، وليكن إلى التقلل أميل ،فإن الناس ينظرون إليه . وينبغى له الاحتراز مما يقتدى به فيه ، فإنه متى ترخص فى الدخول على السلاطين وجمع الحطام ، فاقتدى به غيره ، كان الإثم عليه ، وربما سلم هو فى دخوله ، ولم يفهموا كيفية سلامته . وقد روينا أن ملكاً كان

= كتاب القيامة باب [٤٩] [٣٠٧/٩ ـــ ٣٠٨] وقال : هذا حديث حسن صحيح ، والإمام أحمد فى مسنده [٣٨٣/١] .

(١) رواه البخارى فى صحيحه كتاب « الرقاق » ، باب « ما يتقى من محقرات الذنوب » رقم [٦٤٩٢] ، الإمام أحمد فى مسنده [١٥٧/٣ ، ٤٧٠] ـــ [٧٩/٥] .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه كتاب « الأدب » باب « ستر المؤمن على نفسه » برقم [٦٠٦٩] ، ومسلم فى صحيحه كتاب « الزهد » رقم [٥٢] .

(٣) رواه مسلم فى كتاب « الزكاة » ، باب « الحث على الصدقة ولو بشق تمرة » رقم [٦٩] .

يُكْرِهُ الناس على أكل لحم الخنزير ، فجيء برجل عالم ، فقال له حاجب الملك : قد ذبحت لك جدياً فكل منه ، فلما دخل قرب إليه فلم يأكل ، فأمر بقتله ، فقال له الحاجب : ألم أقل لك إنه جدى ، فقال : ومن أين يعلم حالى من يقتدى بى .

● فصل [فى شروط التوبة]

واعلم : أن التوبة عبارة عن ندم يورث عزماً وقصداً ، وذلك الندم يورث العلم بأن تكون المعاصى حائلاً بين الإنسان وبين محبوبه . والندم هو توجع القلب عند شعوره بفراق المحبوب ، وعلامته طول الحزن والبكاء ، فإن من استشعر عقوبة نازلة بولده أو من يعزُّ عليه ، طال بكاؤه ، واشتدت مصيبته ، وأىُّ عزيز أعزّ عليه من نفسه ؟ وأى عقوبة أشد من النار ؟ وأى سبب أدل على نزول العقوبة من المعاصى ؟ وأى مخبر أصدق من رسول الله ـ ﷺ ـ ؟ ولو أخبره طبيب أن ولده لا يبرأ من مرضه لاشتد فى الحال حزنه ،وليس ولده بأعز من نفسه ، ولا الطبيب أعلم من الله ورسوله ، ولا الموت بأشد من النار ، ولا المرض أدل على الموت من المعاصى على سخط الله ، والتعرض بها للنار .

وينبغى للتائب أن يتفقد ما عليه من صلاة فائتة ، أو بغير شرطها ؟ مثل أن يكون صلاها فى ثوب نجس ، أو بنية غير صحيحة ، لجهله بذلك ، فيقضيها كلها . وكذلك إن كان عليه صوم ، أو زكاة ، أو حج ، أو غير ذلك من الواجبات ، يقضيها كلها ، ويفتش على ذلك ويتداركه . وأما المعاصى ، فينبغى أن يفتش من أول بلوغه عن معصية صدرت منه ، وينظر فيها ، فما كان من ذلك فيما بينه وبين الله ـ تعالى ـ ، فالتوبة منه الندم والاستغفار . ثم ينظر إلى مقادير ذنوبه ، فيطلب لكل معصية منها حسنة تناسبها ، يأتى من الحسنات بمقدار تلك السيئات . قال الله ـ تعالى ـ : ﴿ **إِنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبنَ السَّيِّئَاتِ** ﴾[1] ، وقال النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « **أتبع السيئة الحسنة تمحها** » .

مثال ما ذكرنا : أن يكفر سماع الملاهى بسماع القرآن ومجالس الذكر ، ويكفر مس المصحف بغير طهارة بإكرامه وكثرة القراءة فيه ، وإن أمكنه أن يكتب مصحفاً ويقفه فليفعل، ويكفِّر شرب الخمر بالتصدق بالشراب الحلال . وعلى هذا فاسلك سبيل المضادة ، فإن الأمراض إنما تعالج بضدها ، فهذا حكم ما بينه وبين الله ـ تعالى ـ . وأما مظالم العباد ، ففيها أيضاً معصية الله ـ تعالى ـ ، لأنه نهى عن ظلم العباد ، فالظالم لهم قد ارتكب نهيه ـ تعالى ـ ، فيتدارك ذلك بالندم والعزم على ترك مثل ذلك فى المستقبل ، والإتيان بالحسنات المضادة لتلك المظالم كما تقدم فى القسم الأول ، فيقابل إيذاء الناس بالإحسان إليهم ، ويكفِّر غصب الأموال بالتصدق بماله الحلال ، ويكفِّر تناول أعراضهم بالثناء على أهل الدين ، ويكفِّر قتل النفوس بالعتق . هذا فيما يتعلق بحق الله ـ تعالى ـ ، فإذا فعل ذلك ، لم يكفه

(١) هود : ١١٤ .

حتى يخرج من مظالم العباد .ومظالمهم إما فى النفوس ، أو الأموال ، أو الأعراض ، أو إيذاء القلوب .

أما الأول : فإنه إذا قتل خطأ أو أوصل الدية إلى مستحقها ، إما منه أو من عاقلته ، وإن قتل عمداً ، وجب عليه القصاص بشروطه ، فعليه أن يبذل نفسه لولى الدم ، إن شاء قتله ، وإن شاء عفا عنه ، ولا يجوز له إخفاء أمره ، بخلاف ما لو زنا ، أو سرق ، أو شرب الخمر ، أو باشر ما يجب فيه حد لله ــ تعالى ــ، فإنه لا يلزمه فى التوبة أن يفضح نفسه ، بل عليه أن يستر نفسه ، فإن رفع أمره إلى الولى حتى أقام عليه الحد ، وقع ذلك موقعه وكانت توبته صحيحة مقبولة عند الله ــ تعالى ــ، بدليل قصة ماعز والغامدية . وكذلك حد القذف ، لابد فيه من تحكيم المستحق فيه .

الثانى : المظالم المتعلقة بالأموال ، نحو الغصب ، والخيانة ، والتلبيس فى المعاملات ، فيجب عليه رد ذلك إلى أصحابه والخروج منه . وليكتب إلى أصحاب المظالم ، وليؤدِّ إليهم حقوقهم ، ويستحلهم ، فإن كثر ظلمه بحيث لا يقدر على أدائه ، فليفعل ما يقدر عليه من ذلك ، ولم يبق له طريق إلا الاستكثار من الحسنات ، لتؤخذ منه فى القصاص يوم القيامة فتوضع فى موازين أرباب المظالم ، فإنها إن لم تف بذلك أخذ من سيئاتهم ، فتوضع فوق سيئاته. هذا حكم المظالم الثابتة فى الذمة والأموال الحاضرة ، فإن كان عنده مال من شيء من ذلك لم يعرف مالكه ولا ورثته ، تصدق به عنه ، وإن اختلط الحلال بالحرام ، عرف قدر الحرام بالاجتهاد ، وتصدق بمقداره .

الثالث : الجناية على الأعراض ، وإيذاء القلوب ، فعليه أن يطلب كل واحد منهم ، وليستحله ، وليعرفه قدر الجناية ، فإن الاستحلال المبهم لا يكفى ، وربما لو عرف ذلك لم تطب نفسه بالإحلال ، إلا أن تكون تلك الجناية إذا ذكرت كثر الأذى ، كنسبته إلى عيب من خفايا عيوبه ، أو كزنىً بجاريته ، فليجتهد فى اللطف به والإحسان إليه ، ثم ليستحله مبهماً ، ولابد أن يبقى فى مثل ذلك مظلمة تجبر بالحسنات يوم القيامة ، وكذلك من ماتِ من هؤلاء فإنه يفوت أمره ، ولا يتدارك إلا بتكثير الحسنات ، لتؤخذ منه عوضاً يوم القيامة ، ولا خلاص إلا برجحان الحسنات .

● فصل فى شروط التوبة

ومن شروط التوبة الصحيحة العزم على أن لا يعود فى المستقبل إلى تلك الذنوب ، ولا إلى أمثالها ، ويعزم على ذلك عزماً مؤكداً . مثال ذلك المريض الذى يعلم أن الفاكهة تضر فى مرضه ، فيعزم عزماً جازماً أن لا يتناول شيئاً من الفاكهة مادام فى مرضه ذلك ، فإن هذاالعزم يتأكد فى الحال ، وإن كان يتصور أن تغلبه الشهوة فى ثانى الحال ، ولكن لا يكون تائباً ما لم يتأكد عزمه فى الحال ، ولا يتصور أن يتم ذلك للتائب فى أول أمره

إلا بالعزلة ، والصمت ، وقلة الأكل والنوم ، وإحراز قوتٍ حلالٍ ، ويترك الشبهات والشهوات من المأكولات والملبوسات . قال بعضهم : من صدق فى ترك الشهوة ، وجاهد نفسه فيها سبع مرات ، لم يبتل بها ، وقال : من تاب من ذنب واستقام سبع سنين ، لم يعد إليه أبداً .

● بيان أقسام العباد فى دوام التوبة

الناس فى التوبة أربع طبقات :

* **الطبقة الأولى** : تائب يستقيم على التوبة إلى آخر عمره ، ويتدارك ما فرَّط من أمره ، ولا يحدِّث نفسه بالعود إلى ذنوبه ، إلا الزلات التى لا ينفك عنها البشر فى العادات ، فهذه هى الاستقامة فى التوبة . وصاحبها هو السابق بالخيرات . وتسمى هذه التوبة : النصوح ، وتسمى هذه النفس : المطمئنة ! وهؤلاء يختلفون ، منهم من سكنت شهوته تحت قهر المعرفة ففتر نزاعها ، ومنهم من تنازعه نفسه وهو ملىء بمجاهدتها .

* **الطبقة الثانية** : تائب قد سلك طريق الاستقامة فى أمهات الطاعات وكبائر الفواحش ، إلا أنه لا ينفك عن ذنوب تعتريه ، لا عن عمد ، ولكنه يبتلى بها فى مجارى أحواله من غير أن يقدم عزماً على الإقدام عليها ، وكلما أتى شيئاً منها لام نفسه ، وندم وعزم على الاحتراز من أسبابها ، فهذه هى النفس اللوَّامة لأنها تلوم صاحبها على ما يستهدف له من الأحوال الذميمة ، فهذه رتبة عالية أيضاً ، وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى ، وهى أغلب أحوال التائبين ، لأن الشر معجون بطينة الآدمى ، فقلما ينفك عنه ، وإنما غاية سعيه أن يغلب خيره شره ، حتى يثقل ميزانه ، فترجح حسناته ، فأما أن تخلو كفة السيئات ، فبعيد . وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله ــ سبحانه ــ، إذ قال : ﴿ **الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ والفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ المَغْفِرَةِ** ﴾[1] . وإلى هذه الرتبة الإشارة بقوله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « **إن الله يحب المؤمن المُفتَّنَ التواب** »[2]

* **الطبقة الثالثة** : أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ، ثم تغلبه شهوته فى بعض الذنوب ، فيقدم عليها لعجزه عن قهر الشهوة ، إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات ، وترك جملة من الذنوب مع القدرة عليها والشهوة لها ، وإنما قهرته شهوة واحدة أو شهوتان ، وهو يود لو أقدره الله على قمعها ، وكفاه شرها ، فإذا انتهت ندم ، لكنه يعد نفسه بالتوبة عن ذلك الذنب ، فهذه النفس تسمى المسئولة ، وصاحبها من الذين قال الله ــ تعالى ــ فيهم : ﴿ **وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِم خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وآخَرَ سَيِّئاً** ﴾[3] فأمر هذا من حيث مواظبته على الطاعات وكراهيته لما يتعاطاه مرجو لقوله ــ تعالى ــ: ﴿ **عَسَى اللهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِم** ﴾[4] . وعاقبته مخطرة من حيث تأخيره وتسويفه ، فربما يختطف قبل التوبة ، فإن

(١) النجم : ٣٢ . (٢) رواه الإمام أحمد فى مسنده [١/٨٠ ، ١٠٣] (٣) ، (٤) التوبة : ١٠٢ .

الأعمال بالخواتيم ، فعلى هذا يكون الخوف من الخاتمة ، وكل نفس يمكن أن يتصل به الموت ، فتكون الخاتمة ، فليراقب الأنفاس ، وليحذر وقوع المحذور .

* ***الطبقة الرابعة*** : أن يتوب ويجرى مدة على الاستقامة ، ثم يعود إلى الذنوب منهمكاً من غير أن يحدث نفسه بالتوبة ، ومن غير أن يتأسف على فعله ، فهذا من المصرين ، وهذه النفس هى الأمارة بالسوء ، ويخاف على هذا سوء الخاتمة . فإن مات هذا على التوحيد ، فإنه يرجى له الخلاص من النار ، ولو بعد حين ، ولا يستحيل أن يشمله عموم العفو بسبب خفى لا يطلع عليه ، إلا أن التعويل على هذا لا يصلح ، فإن من قال : إن الله ــ تعالى كريم ــ ، وخزائنه واسعة ، ومعصيتى لا تضره ، ثم تراه يركب البحار فى طلب الدينار . فلو قيل له : فإذا كان الحق كريماً ، فاجلس فى بيتك لعله يرزقك ، استجهل قائل هذا وقال : إنما الأرزاق بالكسب ، فيقال له : هكذا النجاة بالتقوى .

● فصل فيما ينبغى للتائب فعله

وقد ذكرنا أن التائب ينبغى له أن يأتى بحسنات تضاد ما عمل من السيئات ، لتمحوها وتكفرها ، والحسنات المكفرة تكون بالقلب واللسان والجوارح على حسب السيئات ، فما كان بالقلب، فنحو التضرع والتذلل ، وأما اللسان ، الاعتراف بالظلم والاستغفار ، مثل أن يقول : رب ظلمت نفسى فاغفر لى . روى فى الحديث ، أن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ قال : « **ما من رجل يذنب ذنباً ، فيتوضأ ويحسن الوضوء ، ثم يصلى ركعتين ، ويستغفر الله ــ عز وجل ــ ، إلا غفر له** »[1] . وأما الجوارح فبالطاعات ، والصدقات ، وأنواع العبادات .

● فصل فى دواء التوبة وطريق علاج حل عقد الإصرار

اعلم : أنه لا يقف على الدواء من لا يقف على الداء ، إذ لا معنى للدواء إلا مناقضة أسباب الداء ، ولا يبطل الشىء إلا بضده ، وسبب الإصرار الغفلة والشهوة ، ولا تضاد الغفلة إلا بالعلم ، ولا تضاد الشهوة إلا بالصبر على قطع الأسباب المحركة للشهوة . والغفلة رأس الخطايا ، فلا دواء إذاً للتوبة إلا معجون يعجن من حلاوة العلم ومرارة الصبر ، كما يجمع فى السكنجبين حلاوة السكر وحموضة الخل ، فيحصل بمجموعهما قمع الصفراء .

ما سبب أن أمراض القلوب أكثر من أمراض الأبدان ؟

والأطباء لهذا المرض هم العلماء ، لأنه مرض القلوب ومرض القلوب أكثر من مرض الأبدان ، وإنما صار مرضها أكثر لأمور : **أحدها** : أن المريض لا يدرى أنه مريض . **الثانى** :

(١) رواه أبو داود فى سننه كتاب « الصلاة » باب « الاستغفار » برقم [١٥٢١] ، عن أبى بكر مرفوعاً .

أن عاقبته غير مشاهدة فى هذا العالم ، بخلاف مرض الأبدان ، فإن عاقبته موت مشاهد ينفر الطبع عنه ، وما بعد الموت غير مشاهد ، فقلّت النفرة عن الذنوب وإن علمها مرتكبها ، فلذلك تراه يتكل على فضل الله فى مرض القلب ، ويجتهد فى علاج البدن من غير اتكال .

الأمر الثالث : وهو الداء العضال حيث فقد الطبيب ، فإن الأطباء هم العلماء ، وقد مرضوا فى هذه الأعصار ، لأن الداء المهلك هو حب الدنيا ، وقد غلب هذا الداء على الأطباء ، فلم يقدروا على تحذير الخلق استنكافاً من أن يقال لهم : فما لكم تأمرون بالعلاج وتنسون أنفسكم ؟ فبهذا السبب عم الداء وانقطع الدواء . فإن قيل : فما الذى ينبغى للواعظ سلوكه من الخلق ؟ فالجواب : أن ذلك يطول ، لكنا نشير إلى الأعمال النافعة فى ذلك ، وهى **أربعة أنواع** :

الأول : أن يُذكر ما فى القرآن العزيز من الآيات المخوفة للمذنبين ، وما ورد فى الأخبار والآثار من ذلك ، ويمزج ذلك بمدح التائبين .

النوع الثانى : حكايات الأنبياء ــ عليهم السلام ــ ، والسلف الصالح ، وما أصابهم من المصائب بسبب الذنوب ، كحال آدم ــ عليه السلام ــ وما لقى فى عصيانه من الإخراج من الجنة ، وما جرى لداود وسليمان ويوسف ــ عليهم السلام ــ، ولم يورد القرآن هذه الأشياء إلا للاعتبار . وكان من سعادتهم معالجتهم بذلك ، والأشقياء يمهلون ليزدادوا إثماً ، ولأن عذاب الآخرة أشد ، فينبغى أن يكثر من هذا على أسماع المصرين ، فإنه نافع فى تحريك دواعى التوبة .

النوع الثالث : أن يقرر عندهم ، أن تعجيل العقوبة فى الدنيا متوقع ، وأن كل ما يصيب العبد من المصائب ، فهو سبب جناياته ، فرب عبد يتساهل فى أمر الآخرة يخاف عقوبة الدنيا أكثر لفرط جهله . والذنوب قد يتعجل فى الدنيا شؤمها ، كما قال النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « **إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه** »[1] . وقال الفضيل بن عياض : إنى لأعصى الله ، فأعرف ذلك فى خلق حمارى وخادمى . وقال أبو سليمان الدارانى : الاحتلام عقوبة ، ولا يفوت أحداً صلاة إلا بذنب يذنبه . وعن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « **إن المؤمن إذا أذنب كان نكتة سوداء فى قلبه ، فإن تاب ونزع واستغفر ، سُقِل قلبه ، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه وهُوَ الران الذى ذكر الله ــ عز وجل ــ فى كتابه : ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم**

(١) رواه ابن حبان فى صحيحه [١٠٩٠] ، والإمام أحمد فى مسنده [٥/٢٨٠ ، ٢٨٢] واللفظ له ، ورواه الحاكم فى المستدرك [١/٤٩٣] ولفظ الحاكم . « لا يرد القدر إلا الدعاء ، ولا يزيد فى العمر إلا البر ، وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه » ، قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبى .

﴿ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾(*) » . قال الترمذى : حديث حسن صحيح(1) . وقال الحسن ـ رحمه الله ـ: الحسنة نور فى القلب ، وقوة فى البدن ، والسيئة ظلمة فى القلب ، ووهن فى البدن .

النوع الرابع : ذكر ما ورد من العقوبات فى احاد الذنوب ، كشرب الخمر ، والزنى ، والقتل ، والكبر ، والحسد ، والغيبة . وينبغى أن يكون طبيباً يعلم الداء ، ويدرى كيف يصنع الدواء ، فإن رجلاً سأل النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فقال : أوصنى ، قال : « **لا تغضب** »(2) . وقال آخر : أوصنى ، فقال : « **عليك باليأس مما فى أيدى الناس** »(3) . فكأنه تخايل فى الأول مخايل الغضب ، وفى الثانى مخايل الطمع .

وهذا الذى ذكرنا هو علاج الغفلة ، فيبقى علاج الشهوة ، وطريق علاجها يؤخذ مما ذكرنا فى كتاب « رياضة النفس » ولابد من الصبر ، فإن المريض إنما يطول مرضه لتناوله ما يضره ، وإنما يحمله على ذلك شدة شهوته ، أو غفلته عن مضرته ، فلا بد من مرارة الصبر ، وكذلك يعالج الشهوة فى المعاصى ، كالشاب مثلاً إذا غلبته الشهوة ، فصار لا يقدر على حفظ عينه وقلبه وجوارحه فى السعى وراء الشهوة ، فينبغى أن يستحضر المخوفات التى جاءت فى كتاب الله ـ تعالى ـ، وسنة رسوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ، فإذا اشتد خوفه تباعد عن الأسباب المهيجة للشهوة . والذى يهيج الشهوة من خارج ، هو حضور المشتهى ، والنظر إليه ، وعلاجه : الجوع والصوم الدائم ، وكل ذلك لا يتم إلا بصبر ، ولا يصبر إلا عن خوف ، ولا يخاف إلا عن علم ، ولا يعلم إلا عن بصيرة ، فأول الأمر حضور مجالس الذكر ، والاستماع بقلب مجرد عن الشواغل ، ثم التفكر فيما قيل ، فينبعث الخوف ، ويسهل الصبر ، وتتيسر الدواعى لطلب العلاج ، وتوفيق الحق ـ سبحانه ـ من وراء ذلك كله . فإن قيل : ما بال الإنسان يقع فى الذنب مع علمه بقبح عواقبه ؟ فعن ذلك أجوبة . منها : أن العقاب الموعود ليس بحاضر .

ومنها : أن المؤمن إذا أذنب لابد أن يعزم على التوبة ، وقد وعد أن التوبة تجبر ما فعل ، وطول الأمل غالب على الطباع ، فلا يزال يسوف بالتوبة ، فلما رجا التوبة أقبل على الذنب .
ومنها : أنه يرجو عفو الله عنه ، وعلاج هذه الأسباب أن يفكر فى نفسه أن كل ما هو آت قريب ، وأنه لا يأمن هجوم الموت ، ويعالج التسويف بالفكر فى أن أكثر صياح أهل النار من التسويف ، والمسوف يبنى الأمر على ما ليس إليه ، وهو البقاء ، فلعله لا يبقى ، وإن

(*) المطففين : ١٤ (1) رواه الترمذى فى « التفسير » ـ سورة المطففين ـ وقال : حديث حسن صحيح عن أبى هريرة انظر المسند [٢٩٧/٢] .

(2) رواه البخارى فى صحيحه كتاب « الأدب » باب الحذر من الغضب رقم [٦١١٦] عن أبى هريرة ، والإمام أحمد فى مسنده [١٧٥/٢ ، ٣٦٢ ، ٤٦٦] ـ [٤٨٤/٣] ، [٣٤/٥ ، ٣٧٠ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣] .

(3) رواه ابن ماجه فى « الزهد » باب « الحكمة » رقم [٤١٧١] ـ وهو جزء من حديث ـ عن أبى أيوب الأنصارى .

بقى فربما لم يقدر على الترك غداً كما يقدر عليه اليوم ، وهل عجز عن الحال إلا لغلبة الشهوة وهى غير مفارقة له غداً ؟ بل يتأكد بالاعتياد ، ومن هذا هلاك المسوفون ، لأنهم يظنون الفرق بين المتماثلين ، وما مثال المسوف إلا مثال من احتاج إلى قلع شجرة ، فرآها قوية لا تنقلع إلا بمشقة شديدة ، فقال : أؤخرها سنة ثم أعود إليها ، وهو لا يعلم أن الشجرة كلما بقيت ازداد رسوخها ، وهو كلما طال عمره ازداد ضعفه ، فالعجب من عجزه مع قوته عن مقاومتها فى حال ضعفها ، كيف ينتظر الغلبة إذا ضعف وقويت ، وأما انتظار عفو الله ــ تعالى ــ، فعفو الله ــ سبحانه ــ ممكن ، إلا أن الإنسان ينبغى له الأخذ بالحزم ، وما مثال ذلك إلا كمثل رجل أنفق أمواله كلها ، وترك نفسه وعياله فقراء ينتظر من الله ــ تعالى ــ أن يرزقه العثور على كنز فى خربة ، وهذا ممكن إلا أن صاحبه ملقب بالأحمق ، والله ــ سبحانه وتعالى ــ أعلم .

● كتاب الصبر والشكر

وهو شطران : **الأول** : فضل الصبر وحقيقته وأقسامه ونحو ذلك . وقد ذكر الله ــ تعالى ــ الصبر فى القرآن فى نحو من تسعين موضعاً ، وأضاف إليه أكثر الخيرات والدرجات وجعلها ثمرة له ، فقال ــ تعالى ــ: **﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ﴾**[1] . وقال : **﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ﴾**[2] . وقال : **﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾**[3] . وقال ــ تعالى ــ: **﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾**[4] . فما من قربة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر ، ولأجل كون الصوم من الصبر قال الله ــ تعالى ــ: « **الصوم لى وأنا أجزى به** »[5] . وقد وعد الله الصابرين بأنه معهم ، وجمع للصابرين بين أمور لم يجمعها لغيرهم فقال : **﴿ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾**[6] . والآيات فى هذا كثيرة .

وأما الأحاديث ، ففى « الصحيحين » من حديث أبى سعيد ــ رضى الله عنه ــ، عن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ أنه قال : « **ما أعطى أحد عطاءً خيراً وأوسع من الصبر** »[7] وفى حديث آخر : « **الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد** »[8] . وقال

---

(١) السجدة : ٢٤ . (٢) الأعراف : ١٣٧ . (٣) النحل : ٩٦ . (٤) الزمر : ١٠ .

(٥) حديث قدسى : رواه البخارى فى « الصيام » ، باب « فضل الصيام » ، رقم [١٨٩٤] ، ومسلم فى « الصيام » ، رقم [١٦٠ ، ١٦٢ ــ ١٦٤] ، والإمام أحمد فى المسند [٤٤٦/١ ــ ٢٣٢/٢ ــ ٥/٣ ، ٤٠ ، ٣٤١] .

(٦) البقرة : ١٥٧ .

(٧) رواه البخارى فى صحيحه كتاب « الرقاق » ، باب « الصبر عن محارم الله » ، رقم [٦٤٧٠] ، رواه مسلم فى « الزكاة » ، رقم [١٨] ، المسند [١٢/٣ ، ٤٧] .

(٨) الخبر فى إحياء علوم الدين [٦١/٤] موقوفاً عن على بن أبى طالب ، ووجدته موقوفاً فى مسند الفردوس =

الحسن : الصبر كنز من كنوز الخير ، لا يعطيه الله ــ عزَّ وجل ــ إلا لعبد كريم عنده ، وكان بعض العارفين فى جيبه رقعة يخرجها كل ساعة فيطالعها ، وفيها ﴿ **واصْبِرْ لحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا** ﴾ (١).

واعلم : أن الصبر من خاصية الإنسان ، ولا يتصور فى البهائم لنقصانها ، وغلبة الشهوات عليها من غير شيء يقابلها ، ولا يتصور الصبر أيضاً فى الملائكة لكمالها ، فإن الملائكة جرِّدوا للشوق إلى حضرة الربوبية ، ولم تسلط عليهم شهوة صارفة عنها حتى يحتاج إلى مصادمة ما يصدها عن حضرة الجلال . وأما الإنسان فإنه يخلق فى ابتداء الصبا ناقصاً مثل البهيمة ، لم يخلق فيه إلا شهوة الغذاء الذى هو محتاج إليه ، ثم تظهر فيه شهوة اللعب والزينة ، ثم شهوة النكاح ، وليس له قوة الصبر ، فإذا تحرك العقل وقوى ، ظهرت مبادىء إشراق نور الهداية عند سن التمييز ، وينمو على التدرج إلى سن البلوغ ، كما يبدو نور الصبح إلى أن يطلع قرص الشمس ، ولكنها هداية قاصرة لا مرشد لها إلى مصالح الآخرة ، فإذا عقد بمعرفة الشرع تلمح ما يتعلق بالآخرة وكثر سلاحه ، إلا أن الطبع يقتضى ما يحب ، وباعث الشرع والعقل يمنع ، والحرب بينهما قائمة ، ومعركة هذا القتال قلب العبد ، فالصبر عبارة عن ثبات باعث الدين فى مقابلة باعث الشهوات ، فإن ثبت حتى قهر الشهوة التحق بالصابرين ، وإن ضعف حتى غلبت الشهوة ولم يصبر على دفعها ، التحق بأتباع الشياطين ، وإذا ثبت أن الصبر عبارة عن ثبات باعث الدين فى مقاومة الهوى ، فهذه المقاومة من خاصة الآدميين .

● فصل فى أقسام الصبر

اعلم أن الصبر على ضربين :

* ***أحدهما*** : بدنى ، كتحمل المشاق بالبدن ، وكتعاطى الأعمال الشاقة من العبادات أو من غيرها .

* ***الضرب الآخر*** : هو الصبر النفسانى عن مشتهيات الطبع ومقتضيات الهوى ، وهذا الضرب إن كان صبراً عن شهوة البطن والفرج ، سمى عفة ، وإن كان الصبر فى قتال ، سمى شجاعة ، وإن كان فى كظم غيظ ، سمى حلماً ، وإن كان فى نائبة مضجرة ، سمى سعة صدر ، وإن كان فى إخفاء أمر ، سمى كتمان سر ، وإن كان فى فضول عيش ، سمى زهداً ، وإن كان صبراً على قدر يسير من الحظوظ ، سمى قناعة . وأما المصيبة ، فإنه يقتصر فيها على اسم الصبر ، فقد بان بما ذكرنا أن أكثر أخلاق الإيمان داخلة فى الصبر ، وإن اختلفت الأسماء باختلاف المتعلقات . ثم اعلم أن العبد لايستغنى عن الصبر فى كل حال من الأحوال ، وذلك أن جميع ما يلقى العبد فى الدنيا لا يخلو من نوعين :

= للديلمى رقم [٣٨٤٠] [٤١٤/٢] ، فيض القدير [٥١٣٦] وهو حديث ضعيف .

(١) الطور : ٤٨ .

النوع الأول : ما يوافق هواه من الصحة ، والسلامة والمال ، والجاه ، وكثرة العشيرة ، والأتباع ، وجميع ملاذ الدنيا ، فالعبد محتاج إلى الصبر فى جميع هذه الأمور ، فلا يركن إليها ، ولا ينهمك فى التلذذ بها ، ويراعى حق الله ــ تعالى ــ فى ماله بالإنفاق ، وفى بدنه بالمعونة للحق . ومتى لم يضبط نفسه عن الانهماك فى الملاذ والركون إليها ، أخرجه ذلك إلى البطر والطغيان ، حتى قال بعض العارفين : المؤمن يصبر على البلاء ، ولا يصبر على العافية إلا صدِّيق . وقال عبد الرحمن بن عوف ــ رضى الله عنه ــ: ابتلينا بالضراء فصبرنا ، وابتلينا بالسراء فلم نصبر .

ولذلك قال الله ــ تعالى ــ: ﴿ لاَ تُلْهِكُم أَمْوَالُكُم وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ ﴾[1] . وقال ــ تعالى ــ: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَمَا أَمْوَالُكُم وَأَوْلاَدُكُم فِتْنَةٌ ﴾[2] . ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وأَولاَدكُم عَدُواً لَكُم فَاحْذَرُوهُم ﴾[3]

فالرجل كل الرجل من يصبر على العافية ، وهذا الصبر متصل بالشكر ، فلا يتم إلا بالقيام بحق الشكر ، وإنما كان الصبر على السراء شديداً ، لأنه مقرون بالقدرة ، والجائع عند غيبة الطعام أقدر على الصبر منه عند حضور الطعام اللذيذ .

النوع الثانى : المخالف للهوى وهو ثلاثة أقسام : أحدها : الطاعات ، فيحتاج العبد إلى الصبر عليها ، لأن النفس بطبعها تنفر عن العبودية . ثم من العبادات ما يكره بسبب الكسل كالصلاة ، ومنها ما يكره بسبب البخل ، كالزكاة ، ومنها ما يكره بسببهما جميعاً ، كالحج والجهاد . ويحتاج المريد إلى الصبر على طاعته فى ثلاثة أحوال :

(أ) حال قبل العبادة ، وهى تصحيح النية ، والإخلاص والصبر عن شوائب الرياء .

(ب) وحال فى نفس العبادة ، وهى أن لا يغفل عن الله ــ تعالى ــ فى أثناء العبادة ، ولا يتكاسل عن تحقيق الآداب والسنن ، فيلازم الصبر عن دواعى الفتور إلى الفراغ من العمل .

(جـ) الحالة الثالثة بعد الفراغ من العمل : وهى الصبر عن إفشائه ، والتظاهر به لأجل الرياء والسمعة ، وعن كل ما يبطل عمله ، فمن لم يصبر بعد الصدقة عن المن والأذى أبطلها .

القسم الثانى : الصبر عن المعاصى ، وما أحوج العبد إلى ذلك . ثم إن كان الفعل مما تيسر فعله ، كمعاصى اللسان من الغيبة ، والكذب والمراء ونحوه ، كان الصبر عليه أثقل . فترى الإنسان إذا لبس حريراً ، استنكر ذلك ، ويغتاب أكثر نهاره ، فلا يستنكر ذلك ، ومن لم يملك لسانه فى المحاورات ، ولم يقدر على الصبر ، لم ينجه إلا العزلة .

القسم الثالث : مالا يدخل تحت الاختبار ، كالمصائب ، مثل موت الأحبة ، وهلاك

---

(١) المنافقون : ٩ . (٢) الأنفال : ٢٨ ، (٣) التغابن : ١٤ .

الأموال ، وعمى العين ، وزوال الصحة ، وسائر أنواع البلاء ، فالصبر على ذلك من أعلى المقامات ، لأن سنده اليقين . وقد قال ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « **من يرد الله به خيراً يصب منه** »[1] . وقريب من هذا القسم ، الصبر على أذى الناس ، كالذى يؤذى بقول أو فعل أو جناية على نفسه ، أو ماله ، والصبر على ذلك يكون بترك المكافآت .

والصبر على أذى الناس من أعلى المراتب ، قال الله ــ تعالى ــ: ﴿ **وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ** ﴾[2] . وقال : ﴿ **وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ** ﴾[3] . وقال : ﴿ **وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ** ﴾[4] . وقد روى عن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ أنه قال : « **الصبر ثلاثة : صبر على المصيبة ، وصبر على الطاعة ، وصبر عن المعصية ، فمن صبر على المصيبة حتى يردها بحسن عزائها ، كتب الله له ثلاثمائة درجة ، ما بين الدرجة إلى الأخرى كما بين السماء والأرض ، ومن صبر على الطاعة كتبت له ستمائة درجة ، ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى منتهى العرش ، ومن صبر عن المعصية كتب الله له تسعمائة درجة ، ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى منتهى العرش مرتين** »[5] .

والأحاديث فى فضائل الصبر كثيرة، منها : ما أخرجاه فى « الصحيحين » عن عائشة ــ رضى الله عنها ــ قالت : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « **ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفر الله ــ عز وجل ــ بها عنه، حتى الشوكة يشاكها** »[6] . وفى حديث آخر : « **ما يصيب المسلم من وصب ولا نصب ولا همٍّ ولا حزن ولا أذى ولا غم ، حتى الشوكة يشاكها ، إلا كفر الله بها من خطاياه** » . أخرجاه فى « الصحيحين »[7] . وفى حديث آخر : « **لا يزال البلاء بالمؤمن أو المؤمنة ، فى جسده وفى ماله وفى ولده ، حتى يلقى الله وما عليه خطيئة** »[8]

---

(١) رواه البخارى فى كتاب « المرض » باب « ما جاء فى كفارة المرض » رقم ٥٦٤٥ ، الإمام أحمد فى المسند [٢٣٧/٢] . (٢) آل عمران : ١٨٦ . (٣) الحجر : ٩٧ . (٤) النحل : ١٢٦ .

(٥) فى جمع الجوامع [٤٢٣/١ ، ٤٢٤] عزاه السيوطى لأبى الشيخ والديلمى عن على . قلت : والحديث عند الديلمى فى مسند الفردوس برقم [٣٨٤٦] [٤١٦/٢] ورمز له المناوى بالضعف فى فيض القدير [٥١٣٧) ، وله رواية عند ابن أبى الدنيا فى كتاب الصبر وابن حبان فى الثواب عن على وهو موضوع [اللآلىء المصنوعة ٢٠١/٢] ، الدر المنثور [٦٦/١] .

(٦) رواه البخارى فى صحيحه كتاب « المرض » باب « ما جاء فى كفارة المرض » رقم [٥٦٤٠] ، مسلم فى « البر والصلة » رقم [٤٩] .

(٧) البخارى [٥٦٤١ ، ٥٦٤٢] ، مسلم فى « البر والصلة » رقم [٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨] .

(٨) رواه الإمام أحمد فى مسنده [٢٨٧/٢ ، ٤٥٠] ، والحاكم فى المستدرك [٣٤٦/١] وقال : حديث صحيح =

وفى حديث سعد بن أبى وقاص ــ رضى الله عنه ــ قال : قلت : يارسول الله ، أى الناس أشد بلاء ؟ قال : « **الأنبياء ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل من الناس ، يُبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان فى دينه صلابة زيد فى بلائه ، وإن كان فى دينه رقة خفف عنه ، وما يزال البلاء بالعبد حتى يمشى على الأرض وليس عليه خطيئة** » قال الترمذى : حديث حسن صحيح[1] .

وروينا عن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ أنه قال : قال الله ــ تعالى ــ: « **إذا وجهت إلى عبد من عبادى مصيبة فى بدنه أو ماله أو ولده ، ثم استقبل ذلك بصبر جميل ، استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزاناً ، أو أنشر له ديوانا** »[2] .

● فصل فى آداب الصبر

ومن آداب الصبر استعماله فى أول صدمة ، لقوله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « **إنما الصبر عند الصدمة الأولى** »[3] حديث صحيح . ومن الآداب الاسترجاع عند المصيبة ، لحديث أم سلمة ــ رضى الله عنها ــ وهو من رواية مسلم . ومن الآداب سكون الجوارح واللسان ، فأما البكاء فجائز . قال بعض الحكماء : الجزع لا يرد الفائت ، ولكن يسر الشامت . ومن حسن الصبر أن لا يظهر أثر المصيبة على المصاب ، كما فعلت أم سُليم امرأة أبى طلحة لما مات ابنها ، وحديثها مشهور فى « صحيح مسلم »[4] .

وقال ثابت البنانى : مات عبد الله بن مطرف ، فخرج مطرف على قومه فى ثياب حسنة وقد ادهن ، فغضبوا ، وقالوا : يموت عبد الله ، ثم تخرج فى ثياب من هذه مدهناً ؟! قال : أفأستكين لها ، وعدنى ربى ــ تبارك وتعالى ــ ثلاث خصال ، كل خصلة منها أحب إلىَّ من الدنيا وما فيها . قال الله ــ تعالى ــ: ﴿ **الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ** ﴾[5].

= على شرط مسلم ولم يخرجاه .

(١) رواه الترمذى فى صحيحه كتاب [الزهد] باب « ما جاء فى الصبر على البلاء » ، وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٢) فى كنز العمال [٦٥٦١] عزاه للحكيم الترمذى عن أنس .

(٣) رواه البخارى فى كتاب « الجنائز » باب الصبر عند المصيبة الأولى رقم [١٣٠٢] ، ومسلم فى « الجنائز » رقم [١٤ ، ١٥] ، وأحمد فى المسند [٣/١٣٠ ، ١٤٣ ، ٢١٧].

(٤) رواه البخارى فى صحيحه كتاب الجنائز باب من لم يظهر حزنه عند المصيبة رقم ١٣٠١ عن أنس .

(٥) البقرة : ١٥٦ ــ ١٥٧ .

وقال مطرف : ما شيء أعطى به فى الاخرة قدر كوز من ماء ، إلا وددت أنه أخذ منى فى الدنيا . وكان صلة بن أشيم فى مغزى له ومعه ابنه ، فقال : أى بنى ! تقدم فقاتل حتى أحتسبك ، فحمل فقاتل حتى قتل ، ثم تقدم فقتل ، فاجتمع النساء عند أمه معاذة العدوية ، فقالت : مرحباً إن كنتن جئتن تهنئننى ، وإن كنتن جئتن لغير ذلك فارجعن . وإذا كانت المصيبة مما يمكن كتمانها ، فكتمانها من نعم الله ــ عز وجل ــ الخفية . وروى أبو هريرة ــ رضى الله عنه ــ عن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ أنه قال : « **إذا مرض العبد بعث الله إليه ملكين ، فيقول : انظروا ما يقوله لعواده ، فإن هو حمد الله ــ تعالى ــ إذا دخلوا عليه ، رفعا ذلك إلى الله ــ تعالى ــ وهو أعلم . فيقول : لعبدى إن أنا توفيته أن أدخله الجنة ، وإن أنا شفيته أن أبدله لحماً خيراً من لحمه ، ودماً خيراً من دمه ، وأن أكفر عنه خطاياه** »[1] .

وقال على ــ رضى الله عنه ــ: من إجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجعك ، ولا تذكر مصيبتك . وقال الأحنف : لقد ذهبت عينى منذ أربعين سنة ، ما ذكرتها لأحد . وقال رجل للإمام أحمد : كيف تجدك ياأبا عبدالله ؟ قال : بخير فى عافية . فقال له : حممت البارحة ؟ قال : إذا قلت لك : أنا فى عافية فحسبك ، لا تخرجنى إلى ما أكره .

وقال شقيق البلخى : من شكا مصيبة به إلى غير الله ، لم يجد فى قلبه لطاعة الله حلاوة أبداً . وقال بعض الحكماء : من كنوز البر كتمان المصائب ، وقد كانوا يفرحون بالمصائب نظرا إلى ثوابها ، وحكاياتهم مشهورة فى ذلك . **منها** : ما روى أن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموى ــ رضى الله عنه ــ لما مات دفنه عمر ، وسوى عليه ثم استوى قائماً ، فأحاط به الناس ، فقال : رحمك الله يا بنى ! قد كنت براً بأبيك ، والله مازلت منذ وهبك الله لى مسروراً بك ، ولا والله ما كنت قط أشد بك سروراً ، ولا أرجى بحظى من الله ــ تعالى ــ فيك منذ وضعتك فى هذا المنزل الذى صيَّرك الله إليه .

فإن قيل : إن كان المراد من الصبر عدم كراهية المصائب ، فلا قدرة للآدمى على ذلك ، وإن كان الفرح بوجودها كما حكيتم ، فهو أبعد . والجواب أن الصبر لا يكون إلا عن محبوب أو على مكروه ، ولا ينهى عما لا يدخل تحت الكسب ، وهو انزعاج الباطن ، وإنما ينهى عن المكتسب ، كشق الجيوب ، ولطم الخدود ، والقول باللسان ، فأما ما ذكرنا من فرح بعضهم ، فذلك فرح شرعى لا طبعى ، إذ الطبع لابد له من كراهة المصائب .

ومثال هذا مثال رجل مريض له شربة لمرضه ، فسعى فى طلب حوائجها ، وأنفق عليها

---

(١) رواه مالك فى الموطأ [٢/٤٩٠] باب ما جاء فى أجر المريض رقم [٥] عن عطاء بن يسار مرسلاً ووصله ابن عبد البر من طريق عباد بن كثير المكى كتاب العين ، وفى كنز العمال [٦٧٠٤] عزاه للدارقطنى فى الغرائب ، وابن صخر فى عوالى مالك عن أبى هريرة .

مالاً ، فلما تمت ، فرح بتمامها وتناولها لما يرجو لها من العافية ، فأما طبعه ، فما زالت عنه كراهة التناول أصلاً . ولو أن ملكاً قال لرجل فقير : كلما ضربتك بهذا العود اللطيف ضربة أعطيتك ألف دينار ، لأحب كثرة الضرب ، لا لأنه لا يؤلم ، ولكن لما يرجو من عاقبته ، وإن أنكاه الضرب ، فكذلك السلف تلمحوا الثواب ، فهان عليهم البلاء .

● فصل فى بيان دواء الصبر وما يستعان به عليه

اعلم : أن الذى أنزل الداء أنزل الدواء ووعد بالشفاء ، فالصبر وإن كان شاقاً فتحصيله ممكن بمعجون العلم والعمل ؛ فمنهما تركب الأدوية لأمراض القلوب كلها ، فيحتاج كل مرض إلى علم وعمل يليق به ، فإن العلل إذا اختلفت اختلف العلاج ، إذ معنى العلاج : مضادة العلة . ونضرب لك مثالاً ، فنقول : إذا افتقر الإنسان إلى الصبر عن شهوة الجماع ، وقد غلبت عليه بحيث لا يملك فرجه ولا عينه ولا قلبه ، فعلاج ذلك بثلاثة أشياء : **أحدها** : مواظبة الصوم ، والاقتصار عند الإفطار على قليل من الطعام .

الثانى : قطع أسبابه المهيجة ، فإنه إنما يهيج بالنظر ، والنظر بالقلب ، والقلب يحرك الشهوة ، ودواء هذا العزلة ، والاحتراز عن مظان وقوع البصر على الصور المشتهاة ، فإن النظر سهم مسموم من سهام إبليس ، ولا يمنع عنه إلا غمض الجفن أو الهرب . **الثالث** : تسلية النفس بالمباح من جنس المشتهى ، وذلك بالنكاح ، وكل ما يشتهيه الطبع من الحرام ، ففى المباحات غنية عنه ، وهذا هو العلاج الأرفع فى حق أكثر الناس ، لأن قطع الغذاء يضعف ، ولا يقمع الشهوة بخلاف هذا . وينبغى للإنسان أن يعود نفسه المجاهدة ، فإن من عوَّد نفسه مخالفة الهوى ، غلبها متى أراد .

© اشد انواع الصبر :

واعلم : أن أشد أنواع الصبر والمجاهدة ، كف الباطن من حديث النفس ، وإنما يشتد ذلك على من تفرغ واعتزل ، فإن الوساوس لا تزال تجاذبه ، ولا علاج لهذا إلا قطع العلائق ، وجعل الهم هماً واحداً ، وصرف الفكر إلى ملكوت السموات والأرض وعجائب صنع الله ـــ تعالى ـــ ، وجميع أبواب معرفة الله ـــ تعالى ـــ ، حتى إذا استولى ذلك على قلبه ، دفع اشتغاله مجاذبة الشيطان ووسواسه ، وإن لم يكن له سير الباطن فلا ينجيه إلا الأوراد المتواصلة ، من القراءة ، والأذكار ، والصلوات ، ويحتاج مع ذلك إلى تكليف القلب الحضور ، فإن الفكر الباطن هو الذى يستغرق القلب دون الأوراد الظاهرة ، فهذا الذى يمكن أن ينال بالاكتساب والجهد .

فأما مقادير ما ينكشف ، ومبالغ ما يرد من لطف الله ـــ تعالى ـــ من الأحوال والأعمال ، فذلك يجرى مجرى الصيد ، وهو بحسب الرزق ، فقد يقل الجهد ، ويكثر الصيد ، وقد يطول

الجهد ويقل الصيد ، والمعول وراء هذا الاجتهاد على جذبة من جذبات الرحمن ــ عز وجل ــ، فإنها توازى أعمال الثقلين ، وليس ذلك إلى اختيار العبد ، بل اختياره أن يتعرض لتلك الجذبة ، بأن يقلع عن قلبه جواذب الدنيا ، فإن المجذوب إلى أسفل سافلين ، لا يجذب إلى أعلى عليين ، وكل منهوم بالدنيا هو منجذب إليها ، فقطع العلائق الجاذبة ، هو المراد بقوله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « **إن لربكم فى أيام دهركم نفحات ، ألا فتعرضوا لها** »[1] . فالذى علينا تفريغ المحل ، والانتظار لنزول الرحمة ، كالذى يصلح الأرض وينقيها من الحشيش ، ويضع فيها البذر، وكل ذلك لا ينفع إلا بمطر ، ولا يدرى متى يقدر الله أسباب المطر ، إلا أنه يثق بفضل الله ــ تعالى ــ أنه لا يخلى سنة عن مطر ، وكذلك قلما تخلو سنة وشهر ويوم عن جذبة من الجذبات ونفحة من النفحات .

فينبغى أن يكون العبد قد طهر القلب من حشيش الشهوات ، وبذر فيه بذر الإرادة والإخلاص ، وعرضه لمهاب ريح الرحمة ، وكما يقوى انتظار الأمطار فى أوقات الربيع عند ظهور الغيم ، وكذلك انتظار تلك النفحات فى الأوقات الشريفة ، وعند اجتماع الهم ونشاط القلوب ، كيوم عرفة ، ويوم الجمعة ، وفى رمضان . والهمم والأنفاس أسباب لاستدرار ــ رحمة الله تعالى ــ بحكمته وتقديره .

الشطر الثانى من الكتاب :

● فى الشكر وفضله ونكر النعم وأقسامها ونحو ذلك

قال الله ــ تعالى ــ: ﴿ **وَسَنَجْزِى الشَّاكِرِينَ** ﴾[2] . وقال الله ــ تعالى ــ: ﴿ **مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُم إِن شَكَرتُم وَآمَنتُم** ﴾[3] . وقال : ﴿ **وَقَلِيلٌ من عِبَادِىَ الشَّكُورُ** ﴾[4] . وقطع بالمزيد مع الشكر فقال : ﴿ **لَئِنْ شَكَرْتُم لأَزِيدَنَّكُم** ﴾[5] . مع كونه وقف أشياء كثيرة غيره على المشيئة كقوله : ﴿ **فَسَوْفَ يُغْنِيكُم الله من فَضْلِهِ إن شَاءَ** ﴾[6] . وقوله : ﴿ **فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيهِ إِنْ شَآءَ** ﴾[7] . وقوله : ﴿ **يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ** ﴾[8] . ﴿ **وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ** ﴾[9] ، ﴿ **وَيَتُوبُ اللهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَآءَ** ﴾[10] .

ولما عرف إبليس قدر الشكر قال فى الطعن على بنى آدم : ﴿ **وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُم شَاكِرِينَ** ﴾[11] . وروى أن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ قام حتى تفطرت قدماه ،

---

(١) ذكره السيوطى فى جامعه الكبير [٢٥٥/١] وعزاه للطبرانى فى الكبير وابن النجار ، عن محمد بن مسلمة وفيه من لا يُعرف حاله ، انظر مجمع الزوائد [٢٣١/١٠] .
(٢) آل عمران : ١٤٥ . (٣) النساء : ١٤٧ . (٤) سبأ : ١٣ . (٥) إبراهيم : ٧ . (٦) التوبة : ٢٨ . (٧) الأنعام : ٤١ .
(٨) البقرة : ٢١٢ ، آل عمران : ٣٧ ، النور : ٣٨ ، الشورى : ١٩ .
(٩) النساء : ٤٨ . (١٠) التوبة : ١٥ . (١١) الأعراف : ١٧ .

فقالت له عائشة ــ رضى الله عنها ــ: أتصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : « **أفلا أكون عبد شكورا** »[1] . وعن معاذ ــ رضى الله عنه ــ قال : قال لى رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « **إنى أحبك فقل : اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك** »[2].

● فصل فى كون الشكر بالقلب واللسان والجوارح

والشكر يكون بالقلب ، واللسان ، والجوارح . أما بالقلب ، فهو أن يقصد الخير ، ويضمره للخلق كافة . وأما باللسان ، فهو إظهار الشكر لله بالتحميد . وأما بالجوارح ، فهو استعمال نعم الله فى طاعته ، والتوقى من الاستعانة بها على معصيته ، فمن شكر العينين أن تستر كل عيب تراه لمسلم ، ومن شكر الأذنين أن تستر كل عيب تسمعه ، فهذا يدخل فى جملة شكر هذه الأعضاء . والشكر باللسان : إظهار الرضى عن الله ــ تعالى ــ، وهو مأمور به . قال رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « **التحدث بالنعم شكر ، وتركها كفر** »[3] . وروى أن رجلين من الأنصار التقيا ، فقال أحدهما لصاحبه : كيف أصبحت ؟ فقال : الحمد لله . فقال النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « **قولوا هكذا** »[4] .

وروى أن رجلاً سلم على عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ، فرد عليه ، ثم قال له عمر : كيف أصبحت ؟ قال : أحمد الله ، فقال عمر : ذاك الذى أردت[5] . وقد كان السلف يتساءلون ، ومرادهم استخراج الشكر لله ، فيكون الشاكر مطيعاً ، والمستنطق مطيعاً . وقال أبو عبد الرحمن الحبلى : إن الرجل إذا سلم على الرجل ، وسأله كيف أصبحت ؟ فقال له الآخر : أحمد الله إليك ، قال : يقول الملك الذى عن يساره للذى عن يمينه : كيف تكتبها ؟ قال : أكتبه من الحامدين . فكان أبو عبد الرحمن إذا سئل : كيف أصبحت ؟ يقول : أحمد الله إليك وإلى جميع خلقه .

● فصل فى أن فعل الشكر لا يتم إلا بمعرفة ما يحبه الله

اعلم : أن فعل الشكر وترك الكفران ، لا يتم إلا بمعرفة ما يحبه الله ــ تعالى ــ، إذ معنى الشكر استعمال نعمه فى محابه ، ومعنى الكفران نقيض ذلك ، إما بترك الاستعمال ، أو استعماله فيما يكرهه . ولتمييز ما يحبه الله فيما يكرهه مدركان : **أحدهما** : السمع ، ومستنده الآيات . **والثانى** : بصيرة القلب ، وهو النظر بعين الاعتبار ، وهذا الأخير عسير عزيز ،

---

(١) رواه البخارى فى « التهجد » باب « قيام النبى ــ ﷺ ــ الليل » برقم [١١٣٠] ، ومسلم فى « صفات المنافقين » رقم [٧٩ ــ ٨١] ، الإمام أحمد فى المسند [٢٥١/٤ ــ ٢٥٥] ، [١٥٥/٦] .

(٢) المسند [٢٤٥/٥ ، ٢٤٧] . (٣) المسند [٢٧٨/٤ ، ٣٧٥] .

(٤) ، (٥) حديث : قال ــ ﷺ ــ لرجل كيف أصبحت ؟ فقال : بخير ، فأعاد السؤال حتى قال فى الثالثة : =

ولذلك أرسل الله ــ تعالى ــ الرسل ، وسهل بهم الطرق على الخلق ، ومعرفة ذلك تبنى على معرفة جميع أحكام الشرع فى أفعال العباد ، فمن لا يطلع على حكم الشرع فى جميع أفعاله ، لم يمكنه القيام بحق الشكر أصلاً . **وأما الثانى** : وهو النظر بعين الاعتبار ، فهو إدراك حكمة الله ــ تعالى فى كل موجود خلقه : إذ ما خلق الله ــ تعالى ــ شيئاً فى العالم إلا وفيه حكمة ، وتحت الحكمة مقصود ، وذلك المقصود هو المحبوب . وتلك الحكمة منقسمة إلى جليَّة وخفيَّة .

أما الجلية ، فكالعلم بأن الحكمة فى خلق الشمس أن يحصل الليل والنهار ، فيكون النهار معاشاً ، والليل سباتاً ، فتتيسر الحركة عند الإبصار ، والسكون عند الاستتار ، فهذا من جملة حكم الشمس ، لا كل الحكمة فيها ، وكذلك معرفة الحكمة فى الغيم ونزول الأمطار .

وأما الحكمة فى خلق الكواكب ، فخفية لا يطلع عليها كل الخلق ، وقد يطلعون على بعض ما فيها من الحكم ، نحو كونها زينة للسماء ، وجميع أجزاء العالم لا تخلو منه ذرة عن حكمة ، وكذلك أعضاء الحيوان ، منها ما تبين حكمته بياناً ظاهراً ، كالعلم بأن العين للإبصار ، واليد للبطش ، والرجل للمشى . فأما الأعضاء الباطنة ، كالمرارة ، والكلية والكبد ، وآحاد العروق ، والأعصاب وما فيها من التجاويف والرقة والغلظة ، فلا يعرف الحكمة فيها كل الناس ، والذين يعرفونها إنما يعرفون منها قدراً يسيراً بالنسبة إلى علم الله ــ تعالى ــ ، فكل من استعمل شيئاً فى جهة غير الجهة التى خلق لها ذلك الشىء على غير الوجه الذى أريد به ، فقد كفر نعمة الله ــ تعالى ــ فيه ، فمن ضرب غيره بيده بغير حق ، فقد كفر نعمة الله ــ تعالى ــ فى اليد ، لأنها خلقت ليدفع بها عن نفسه ما يؤذيه ، ويتناول ما ينفعه ، لا ليؤذى بها غيره ، وكذلك العين إذا نظر بها إلى محرم ، فقد كفر نعمتها ، ونعمة الشمس أيضاً ، إذ الإبصار يتم بها ، فالعين والشمس خلقتا ليبصر بهما ما ينفعه فى دينه ودنياه ، ويتقى بهما ما يضره فيهما .

واعلم : أن المراد من خلق الخلق وخلق الدنيا وأسبابها ، أن يستعين بها الخلق على الوصول إلى الله ــ تعالى ــ ، ولا وصول إليه إلا بمحبته ، والأنس به فى الدنيا ، والتجافى عن غرور الدنيا ، ولا أنس إلا بدوام الذكر ، ولا محبة إلا بالمعرفة الحاصلة بدوام الفكر ، ولا يمكن الدوام على الذكر والفكر إلا بدوام البدن ، ولا يبقى البدن إلا بالأرض والماء والهواء ولا يتم ذلك إلا بخلق السماء والأرض وخلق جميع الأعضاء الباطنة والظاهرة ، وكل ذلك لأجل البدن ، والبدن مطية النفس ، والراجع إلى الله هى النفس المطمئنة بطول العبادة والمعرفة ،

= بخير أحمد الله وأشكره ، فقال: « هذا الذى أردت منك » ، عزاه العراقى للطبرانى فى الدعاء من رواية الفضيل بن عمرو مرفوعاً نحوه ، قال فى الثالثة : أحمد الله ، وإسناده معضل ، ورواه فى المعجم الكبير من حديث عبد الله بن عمر وليس فيه تكرار السؤال، وقال : أحمد الله إليك ، وفيه راشد بن سعد [ضعفه الجمهور لسوء حفظه] ، ورواه مالك فى الموطأ موقوفاً على عمر : بسند صحيح [تخريج الإحياء ٨٢/٤] .

ولذلك قال الله ــ تعالى ــ: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾[1] . فكل من استعمل شيئاً فى غير طاعة الله ، فقد كفر نعمة الله فى جميع الأسباب التى لابد منها ، لإقدامه على تلك المعصية .

ولنذكر مثالاً واحداً للحكم الخفيَّة التى ليست فى غاية الخفاء ، حتى يعتبر بها ، ويعلم طريق الشكر والكفران على النعم ، فنقول : من نعم الله ــ تعالى ــ خلق الدراهم والدنانير اللذين بهما قوام الدنيا ، وهما حجران لا منفعة فى أعينهما ، ولكن يضطر الخلق إليهما ، من حيث كل إنسان يحتاج إلى أعيان كثيرة ، فى مطعمه ، ومشربه ، وملبسه ، ومركبه ، وسائر حاجاته ، وقد يعجز عما يحتاج إليه ، ويملك ما يستغنى عنه ، كمن يملك قدراً من الزعفران مثلا وهو يحتاج إلى جمل يركبه ، وآخر يملك الجمل ، وربما استغنى عنه ، ويحتاج إلى الزعفران ، فلابد بينهما من معاوضة ، ولابد فى مقدار العوض من تقدير ، إذ لا يبذل صاحب الجمل جمله بكل مقدار من الزعفران ، ولا مناسبة بين الزعفران والجمل ، حتى يعطى مثله فى الوزن والصورة .

وكذا من يشترى داراً بثياب ، أو عبداً بخف ، أو دقيقاً بحمار ، فهذه الأشياء لا تناسب بينها ، فخلق الله ــ تعالى ــ الدراهم والدنانير ، حاكمين ومتوسطين بين سائر الأموال ، حتى تقدر بهما ، فيقال : هذا الجمل يساوى مائة ، وهذا القدر من الزعفران يساوى مائة ، فحصل التساوى بينهما حينئذ ، وإنما أمكن التعديل بينهما بالنقدين ، إذ لا غرض فى أعيانهما ، فإنه لو كان فى أعيانهما غرض لم ينتظم الأمر . فخلقهما الله لتتداولهما الأيدى ، ويكونا حاكمين بين الأموال بالعدل ، وجعلهما عزيزين فى أنفسهما ، ونسبتهما إلى سائر الأموال نسبة واحدة ، فمن ملكهما ، فكأنه ملك كل شىء . إذا عرفت حكمتهما ، فكل من عمل فيهما عملاً يخالف المقصود منهما ، ولا يليق بحكمتهما ، فقد كفر نعمة الله فيهما ، فمن كنزهما فقد أبطلهما وأبطل الحكمة فيهما ، وكان كمن حبس الحاكم بين المسلمين فى سجن يمتنع من الحكم بسببه ، لأنه ضيعهما ومنع الأيدى من تداولهما . ولما كان كثير من الخلق عاجزين عن قراءة الأسطر الإلهية المكتوبة على صفحات الموجودات بخط إلٰهى لا يدرك بعين البصر ، بل بعين البصيرة ، أخبرهم الله ــ تعالى ــ بكلام سمعوه بواسطة رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ، فقال : ﴿ وَالَّذِينَ يَكنزونَ الذَّهبَ وَالفضَّة وَلاَ يُنْفقُونَهَا فى سبيل الله فَبشرْهُم بِعذَابٍ أليم ﴾[2] .

وكل من اتخذ الدراهم والدنانير آنية ، فقد كفر نعمة الله فيهما ، لأنه أسوأ حالاً ممن كنزهما . ومثال ذلك من استعمل حاكم البلد فى الحياكة والكنس والأعمال التى يقوم بها أخس الناس ، وذلك أن الحديد والنحاس والخزف وغيرها يقوم مقام الذهب والفضة فى حفظ

(١) الذاريات ــ ٥٦ . (٢) التوبة : ٣٤ .

المائعات ، ولا تكفى تلك الأعيان عنهما ، ولا يقوم مقامهما فيما أريد بهما من كونهما قيم الأشياء ، فمن لم تنكشف له هذه الحكمة بالرحمة الإلٰهية قيل له : « **من شرب فى إناء ذهب أو فضة ، فإنما يجرجر فى بطنه نار جهنم** »[1] وكذلك كل من عامل بالربا فى الدراهم والدنانير ، فقد أخرجهما عن مقصودهما ، فهذا مثال لحكمة خفيَّة من حكم النقدين .

فينبغى أن تعتبر شكر النعمة وكفرها بهذا المثال فى غيره من جميع أمورك ، فى حركتك ، وسكونك ، ونطقك ، وسكوتك فى كل فصل صادر منك ، إما شكراً أو عكسه ، وهو الكفر ، وبعض ذلك تصفه بالكراهة ، وبعضه بالحظر . ومن ذلك أن الله ــ تعالى ــ خلق لك يدين ، وجعل إحداهما أقوى من الأخرى ، فاستحقت بمزيد القوة رجحاناً وشرفاً على الأخرى ، وقد أحوجك من أعطاك اليدين إلى أعمال ، بعضها شريفة ، كأخذ المصحف ، وبعضها خسيسة ، كإزالة النجاسة ، فإذا أخذت المصحف باليسار ، وأزلت النجاسة باليمين ، فقد عكست المقصود ، وخصصت الشريف بما هو خسيس ، فظلمته . وكذلك فى الرجلين ، إذا ابتدأت باليسرى فى لبس الخف ، فقط ظلمت اليمنى ، لأن الخف وقاية الرجل ، وقس على ذلك .

وكذلك نقول : من كسر غصناً من شجرة لغير حاجة مهمة وغرض صحيح ، فقد خالف الحكمة فى خلق الأشجار ، لأنها خلقت للمنفعة بها ، فإن كان كسره لغرض صحيح ، فلا بأس ، وإن فعل ذلك فى ملك غيره ، فهو ظالم ، وإن كان محتاجاً ، إلا أن يأذن صاحبه .

● فصل فى بيان النعم وحقيقتها وأقسامها

اعلم : أن كل مطلوب يسمى نعمة ، ولكن النعمة فى الحقيقة هى السعادة الأخروية ، وتسمية ما عداها نعمة تجوز ، والأمور كلها بالإضافة إلينا تنقسم **أربعة أقسام** : **أحدها** : ما هو نافع فى الدنيا والآخرة جميعاً ، كالعلم ، وحسن الخلق ، وهو النعمة الحقيقية . **والثانى** : ما هو ضار فيهما جميعاً ، وهو البَلاء حقيقة .

القسم الثالث : ما ينفع فى الحال،ويضر فى المآل، كالتلذذ ، واتباع الشهوات ، فهو بلاء عند ذوى الأبصار ، والجاهل يظنه نعمة . ومثاله : الجائع إذا وجد عسلاً فيه سم ، فإنه يعده نعمة إن كان جاهلاً ، فإذا علم ذلك عده بلاءً . **القسم الرابع** : الضار فى الحال ، النافع فى المآل ، وهو نعمة عند ذوى الألباب ، بلاء عند الجهال . ومثاله : الدواء الشنيع مذاقه فى الحال ، الشافى فى المآل من الأسقام ، فالصبى الجاهل ، إذا كلف شربه ظنه بلاء ، والعاقل يعده نعمة ، وكذلك إذا احتاج الصبى إلى الحجامة ، فإن الأب يدعوه إليها ويأمره

(١) رواه البخارى فى « الأشربة » باب « آنية الفضة » رقم [٥٦٣٤] . ومسلم فى « اللباس » رقم [١] باب « تحريم استعمال أوانى الذهب والفضة فى الشرب » ، الإمام أحمد فى مسنده [٦/٩٨ ، ٣٠١ ، ٣٠٢] .

بها ، لما يلحظ فى عاقبتها من الشفاء ، والأم تمنعه من ذلك لفرط حبها وشفقتها ، لكونها جاهلة بالمصلحة فى ذلك ، فالصبى يتقلد منة أمه بجهله ، ويأنس إليها دون أبيه ، ويقدر أباه عدواً ، ولو عقل لعلم أن الأم هى العدو الباطن فى صورة صديق ، لأن منعها إياه من الحجامة يسوقه إلى أمراض أشد من ألم الحجامة ، فالصديق الجاهل شر من العدو العاقل ، وكل إنسان صديق نفسه ، ولكن النفس صديق جاهل ، فلذلك تعمل به ما لا يعمل العدو .

● فصل فى بيان كثرة نعم الله -تعالى- وتسلسلها وخروجها عن الحصر والإحصاء

اعلم : أن النعم تنقسم إلى ما هو غاية مطلوبة لذاتها ، وإلى ما هو مطلوب لأجل الغاية :

● أما الغاية فهى سعادة الآخرة ، ويرجع حاصلها إلى أربعة أمور : بقاء لا فناء له ، وسرور لا غم فيه ، وعلم لا جهل معه ، وغنى لا فقر بعده ، وهى السعادة الحقيقية .

● وأما القسم الثانى : فهو الوسائل إلى السعادة المذكورة ، وهى أربعة أقسام : **أعلاها** : فضائل النفس ، كالإيمان ، وحسن الخلق . **الثانى** : فضائل البدن ، من القوة والصحة ونحوهما . **الثالث** : النعم المطيفة بالبدن ، من المال والجاه والأهل . **الرابع** : الأسباب التى جمع بينها وبين ما يناسب الفضائل ، من الهداية والإرشاد ، والتسديد ، والتأييد ، وكل هذه نعم عظيمة .

فإن قيل : ما وجه الحاجة لطريق الآخرة إلى النعم الخارجة فى المال والجاه ونحوهما ؟ قلنا : هذه الأشياء جارية مجرى الجناح المباح ، والآلة المستعملة للمقصود . أما المال ، فإن طالب العلم إذا لم تكن معه كفاية ، كان كساع إلى الهيجاء بغير سلاح ، ولأنه يبقى مستغرق الأوقات فى طلب القوت ، فيشغله عن تحصيل العلم ، وعن الذكر ، والفكر ، ونحو ذلك .

وأما الجاه فيه يدفع الإنسان عن نفسه الذل والضيم ، ولا ينفك عن عدو يؤذيه ، وظالم يهوش عليه ، فيشغل قلبه ، وقلبه رأس ماله . وإنما تدفع هذه الشواغل بالعز والجاه . وأما الصحة والقوة وطول العمر ونحوها ، فهى نعم ، إذ لا يتم علم ولا عمل إلا بذلك . وقد قال النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ : « **نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة ، والفراغ** »[1] . ولما سئل : من خير الناس ؟ قال : « **من طال عمره وحسن عمله** »[2] .

---

(١) رواه البخارى فى كتاب « الرقاق » باب « ما جاء فى الرقاق » وأن لاعيش إلا عيش الآخرة برقم [٦٤١٢] ، والترمذى فى « الزهد » باب « الصحةوالفراغ نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس » [٩/١٨١ ــ ١٨٢] وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٢) رواه الترمذى فى كتاب « الزهد » باب « ما جاء فى طول العمر للمؤمن » عن أبى هريرة وقال : هذا حديث حسن غريب .

وأما المال والجاه ، وإن كانا نعمتين ، فقد ذكرنا ما فيهما من الآفات فيما تقدم ، وأنهما ليسا بمذمومين على الإطلاق . وأما الهداية والرشد والتسديد والتأييد ، فلا خفاء فى كونها من أعظم النعم ، فلا يستغنى أحد عن الحاجة إلى التوفيق ، ولذلك قيل :

إذا لم يكن عون الله للفتى فأكثر ما يجنى عليه اجتهاده

● فصل من نعم الله : الأسباب التى يتم بها الأكل

واعلم : أنا قد ذكرنا جملة من النعم ، وجعلنا صحة البدن نعمة واحدة من النعم الواقعة فى الرتبة الثانية ، فلو أردنا أن نستقصى الأسباب التى بها تمت هذه النعمة ، لم نقدر عليها ، ولكن الأكل أحد أسباب الصحة ، فلنذكر شيئاً من جملة الأسباب التى يتم بها الأكل على سبيل التلويح ، لا على سبيل الاستقصاء ، فنقول : من جملة نعم الله عليك أن خلق لك آلة الإحساس ، وآلة الحركة فى طلب الغذاء ، فانظر إلى ترتيب حكمة الله ــ تعالى ــ فى الحواس الخمس ، التى هى آلة للإدراك .

فأولها : حاسة اللمس ، وهو أول حس يخلق للحيوان ، وأنقص درجات الحس أن يحس بما يلاصقه ، فإن الإحساس بما يبعد منه أتم لا محالة ، فافتقرت إلى حس تدرك به ما بعد عنك ، فخلق لك الشم تدرك به الرائحة من بعد ، ولكن لا تدرى من أى ناحية جاءت الرائحة ، فتحتاج أن تطوف كثيراً حتى تعثر على الذى شممت رائحته ، وربما لم تعثر ، فخلق لك البصر لتدرك به ما بعد عنك ، وتدرك جهته فتقصدها بعينها ، إلا أنه لو لم يخلق لك إلا هذا لكنت ناقصاً ، إذ لا تدرك بذلك ما وراء الجدار والحجاب ، فربما قصدك عدو بينك وبينه حجاب ، وقرب منك قبل أن يكشف الحجاب ، فتعجز عن الهرب ، فخلق لك السمع حتى تدرك به الأصوات من وراء الحجرات عند جريان الحركات ، ولايكفى ذلك ، لو لم يكن لك حسن الذوق ، إذ به تعلم ما يوافقك وما يضرك ، بخلاف الشجرة ، فإنه يصيب فى أصلها كل مائع ، ولا ذوق لها فتجذبه ، وربما يكون ذلك سبب جفافها ، ثم أكرمك الله ــ تعالى ــ بصفة أخرى ، هى أشرف من الكل ، وهو العقل ، فيه تدرك الأطعمة ومنفعتها ، وما يضر فى المآل ، وبه تدرك طبخ الأطعمة وتأليفها وإعداد أسبابها ، فتنتفع به فى الأكل الذى هو سبب صحتك ، وهو أدنى فوائد العقل ، والحكمة الكبرى فيه معرفة الله ــ تعالى ــ، وما ذكرنا من الحواس الخمس الظاهرة ، فهى بعض الإدراكات . ولا تظن أننا استوفينا شيئاً من ذلك ، فإن البصر واحد من الحواس ، والعين آلة له ، وقد ركبت العين من عشر طبقات مختلفة : بعضها رطوبات ، وبعضها أغشية مختلفة ، لكل واحدة من الطبقات العشر ، صفة ، وصورة ، وشكل ، وهيئة ، وتدبير ، وتركيب ، لو اختلت طبقة واحدة منها أو صفة واحدة ، لاختل البصر ، وعجز عنه الأطباء كلهم ، فهذا فى حس

واحد ، وقس حاسة السمع وسائر الحواس ، ولا يمكن أن يستوفى ذلك فى مجلدات ، فكيف ظنك بجميع البدن ؟!

ثم انظر بعد ذلك فى خلق الإرادة والقدرة ، وآلات الحركة من أصناف النعم ، وذلك أنه لو خلق لك البصر حتى تدرك به الطعام ، ولم يخلق لك فى الطبع شوق إليه وشهوة تستحثك على الحركة ، كان البصر معطلاً ، فكم من مريض يرى الطعام وهو أنفع الأشياء له ، ولا يقدر على تناوله لسقوط شهوته ، فخلق لك الله شهوة الطعام وسلطها عليك ، كالمتقاضى الذى يضطرك إلى تناول الغذاء . ثم هذه الشهوة لو لم تسكن عند أخذ مقدار الحاجة من الطعام ، لأسرفت وأهلكت نفسك ، فخلق لك الكراهة عند الشبع لتترك الأكل بها ، وكذلك القول فى شهوة الوقاع لحكمة بقاء النسل . ثم خلق لك الأعضاء التى هى آلات الحركة فى تناول الغذاء وغيره ، منها اليدان ، وهما مشتملتان على مفاصل كثيرة لتتحرك فى الجهات وتمتد وتنثنى ، ولا تكون كخشبة منصوبة .

ثم جعل رأس اليد عريضاً ، وهو الكف ، وقسمه خمسة أقسام ، وهى الأصابع وجعلها مختلفة فى الطول والقصر ، ووضعها فى صفين ، بحيث يكون الإبهام فى جانب ، ويدور على الأصابع البواقى ، ولو كانت مجتمعة متراكمة ، لم يحصل تمام الغرض ، ثم خلق لها أظافر ، وأسند إليها رءوس الأصابع ، لتقوى بها ، ولتلتقط بها بعض الأشياء الدقيقة التى لا تحويها الأصابع ، ثم هب أنك أخذت الطعام باليد ، فلا يكفيك حتى يصل إلى باطنك ، فجعل لك الفم واللحيين ، خلقهما من عظمين ، وركب فيهما الأسنان وقسمها بحسب ما يحتاج إليه الطعام ، فبعضها قواطع كالرباعيات ، وبعضها يصلح للكسر كالأنياب ، وبعضها طواحن كالأضراس . وجعل اللحى الأسفل متحركاً حركة دورية ، واللحى الأعلى ثابتاً لا يتحرك ، فانظر إلى عجيب صنع الله ــ تعالى ــ. وإن كل رحى صنعها الخلق يثبت منها الحجر الأسفل ويدور الأعلى ، إلا هذه الرحى التى هى صنع الله ــ سبحانه وتعالى ــ، فإنه يدور منها الأسفل على الأعلى ، إذ لو دار الأعلى خوطر بالأعضاء الشريفة التى يحتوى عليها .

ثم انظر كيف أنعم الله عليك بخلق اللسان ، فإنه يطوف فى جوانب الفم ، ويرد الطعام من الوسط إلى الأسنان بحسب الحاجة ، كالمجرفة التى ترد الطعام إلى الرحى ، هذا مع ما فيه من عجائب قوة النطق . ثم هب أنك قطعت الطعام وعجنته وهو يابس ، فما تقدر على الابتلاع إلا بأن ينزلق إلى الحلق بنوع رطوبة . فانظر كيف خلق الله ــ تعالى ــ تحت اللسان عيناً يفيض منها اللعاب ، وينصب بقدر الحاجة حتى ينعجن به الطعام .

ثم هذا الطعام المطحون المعجون من يوصله إلى المعدة وهو فى الفم ، فإنه لا يمكن إيصاله باليد ، فهيأ الله تعالى المرىء والحنجرة ، وجعل رأسها طبقات ينفتح لأخذ الطعام ، ثم ينطبق وينضغط حتى يقلب الطعام ، فيهوى فى دهليز المرىء إلى المعدة ، فإذا ورد الطعام إلى المعدة

وهو خبز وفاكهة مقطعة ، فلا يصلح أن يصير لحماً وعظماً ودماً على هذه الهيئة حتى يطبخ طبخاً تاماً ، فجعل الله المعدة على هيئة قدر يقع فيها الطعام ، فتحتوى عليه وتغلق عليه الأبواب ، وينضج بالحرارة التى تتعدى إليها من الأعضاء الأربعة ، وهى الكبد من جانبها الأيمن ، والطحال من جانبها الأيسر ، والثرب[1] من أمامها ، ولحم الصلب من خلفها ، فينضج الطعام ويصير مائعاً متشابهاً يصلح للنفوذ فى تجاويف العروق ، ثم ينصب الطعام من العروق إلى الكبد ، فيستقر فيها ريثما يصلح له نضج آخر .

ثم يتفرق فى الأعضاء ويبقى منه ثُفل[2] ثم يندفع . ولو استوفينا الكلام فى ذلك لطال . وفى الآدمى من العضلات والعروق ما لا يحصى ، مختلف بالصغر والكبر والدقة والغلظ ، ولا شيء منها إلا وفيه حكمة ، وكل ذلك من الله ــ سبحانه ــ، ولو سكن من جملتها عرق متحرك ، أو تحرك عرق ساكن ، لهلكت يامسكين . فانظر إلى نعم الله ــ تعالى ــ عليك ، لتقوى على الشكر ، فإنك لا تعرف من نعمة الله ــ تعالى ــ إلا نعمة الأكل ، وهى أخسها ، ثم لا تعرف منها إلا أنك تجوع فتأكل ، والبهيمة أيضاً تعرف أنها تجوع وتأكل ، وتتعب فتنام ، وتشتهى فتجامع ، وإذا لم تعرف أنت من نفسك إلا ما يعرف الحمار ، فكيف تقوم بشكر الله ــ تعالى ــ؟! وهذا الذى رمزنا إليه على الإيجاز قطرة من بحر من نعم الله ــ تعالى ــ، فقس على ذلك . وجملة ما عرفنا وعرفه الخلق كلهم من نعم الله ــ تعالى ــ بالإضافة إلى ما لم يعرفوه ، أقل من قطرة فى بحر ، قال الله ــ تعالى ــ: ﴿ **وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوهَا** ﴾[3] .

● فصل فى عجائب الأغذية والأدوية

واعلم : أن الأطعمة كثيرة مختلفة ، ولله ــ تعالى ــ فى خلقها عجائب لا تحصى ، وهى تنقسم إلى أغذية وأدوية وفواكه وغيرها : فنتكلم عن بعض الأغذية ، فنقول : إذا كان عندك شيء من الحنطة ، فلو أكلتها لفنيت وبقيت جائعاً ، فما أحوجك إلى عمل ينمى به حب الحنطة ويتضاعف ، حتى يفى بتمام حاجتك ، وهو زرعها ، وهو أن تجعلها فى أرض فيها ماء يمتزج ماؤها بالأرض فيصير طيناً ، ثم لا يكفى الماء والتراب ، إذ لو تركت فى الأرض ندية صلبة ، لم تنبت لفقد الهواء ، فيحتاج إلى تركها فى أرض متخلخلة يتغلغل الهواء فيها ، ثم الهواء لا يتحرك إليها بنفسه ، فيحتاج إلى ريح تحرك الهواء ، وتصرفه بقهر على الأرض ، حتى ينفذ فيها ، ثم كل ذلك لا يغنى ، فيحتاج إلى حرارة الربيع والصيف ، فإنه لو كان فى البرد المفرط لم ينبت .

---

(١) الثَّرب : شحم قد غشى الكرش والأمعاء رقيق . **(٢) الثُّفل : ما سَفَل من كل شيء .**

(٣) إبراهيم : ٣٤ ، النحل : ١٨ .

ثم انظر إلى الماء الذى تحتاج إليه هذه الزراعة كيف خلقه الله ــ تعالى ــ؟ فجَّر العيون وأجرى منها الأنهار ، ولما كان بعض الأرض مرتفعاً لا يناله الماء ، أرسل إليها الغيوم ، وسلط عليها الرياح لتسوقها بإذنه إلى أقطار العالم ، وهى سحب ثقال ، ثم يرسله على الأرض مدراراً فى وقت الحاجة . وانظر كيف خلق الله الجبال حافظة للماء ، تنفجر منها العيون تدريجاً ، فلو خرجت دفعة واحدة لغرقت البلاد وهلك الزرع وغيره . وانظر كيف سخر الشمس وخلقها ، مع بعدها عن الأرض ، مسخنة لها فى وقت دون وقت ، ليحصل البرد عند الحاجة إليه ، والحر عند الحاجة إليه . وخلق القمر وجعل من خاصيته الترطيب ، كما جعل من خاصية الشمس التسخين فهو ينضج الفواكه بتقدير الحكيم الخبير ، وكل كوكب خلق فى السماء ، فهو مسخر لنوع فائدة ، كما سخرت الشمس والقمر . ولا يخلو كل واحد منها عن حكم كثيرة لا تفى قوة البشر بإحصائها ، وكذلك الشمس والقمر . فيهما حكم أُخَر غير ما ذكرنا لا تحصى .

ولما كانت كل الأطعمة لا توجد فى كل مكان ، سخر الله ــ تعالى ــ التجار ، وسلط عليهم الحرص على جمع المال ، مع أنه لا يغنيهم فى غالب الأمر شيء ، بل يجمعون الأموال ، فإما أن تغرق بها السفن أو تنتهبها قطاع الطرق ، أو يموتون فى بعض البلاد ، فتأخذها السلاطين . وأحسن أحوالهم أن يأخذها ورثتهم ، وهم أشد أعدائهم لو عرفوا . فانظر كيف سلط الله عليهم الأمل والغفلة ، حتى يقاسوا الشدائد فى طلب الربح فى ركوب البحار ، وركوب الأخطار فيحملون الأطعمة وأنواع الحوائج من أقصى الشرق والغرب إليك .

واعلم : أن الخلق لم يقصروا عن شكر النعمة إلا للجهل والغفلة ، فإنهم منعوا بذلك عن معرفة النعم ، ولا يتصور شكر النعمة إلا بعد معرفتها ، ثم إن عرفوا نعمة ظنوا أن الشكر عليها أن يقول أحدهم بلسانه : الحمد لله ، والشكر لله ، ولم يعرفوا أن معنى الشكر أن تستعمل النعمة فى إتمام الحكمة التى أريدت بها ، وهو طاعة الله ــ تعالى

© *أسباب الغفلة عن نعم الله :*

أما الغفلة عن النعم فلها أسباب : **أحدها** : أن الناس لجهلهم لا يعدون ما يعم الخلق فى جميع أحوالهم نعمة ، فلذلك لا يشكرون على جملة مما ذكرناه ، من النعم ، لأنها عامة للخلق ، مبذولة لهم فى جميع أحوالهم ، فلا يرى واحد منهم اختصاصاً به ، فلا يعده نعمة ، فلا تراهم يشكرون الله على روح الهواء ، ولو أخذ بمخنقهم لحظة حتى انقطع الهواء عنهم ماتوا ، ولو حبسوا فى حمام أو بئر ماتوا غماً ، فإن ابتلى أحدهم بشيء من ذلك ثم نجا ، قدَّر ذلك نعمة يشكر الله عليها ، وهذا غاية الجهل ، إذ صار شكرهم موقوفاً على أن تسلب عنهم النعمة ، ثم ترد إليهم فى بعض الأحوال ، فالنعم فى جميع الأحوال أولى بالشكر ، فلا ترى

البصير يشكر صحة البصر إلا أن يعمى ، فإذا أعيد بصره أحس بالنعمة وشكرها حينئذ وعدها نعمة ، وهو مثل عبد السوء يضرب دائماً ، فإذا ترك ضربه ساعة ، شكر وتقلد ذلك منة ، وإن ترك ضربه أصلاً ، غلبه البطر وترك الشكر ، فصار الناس لا يشكرون إلا على المآل الذى يتطرق الاختصاص إليه من حيث الكثرة والقلة ، وينسون جميع نعم الله ــ تعالى ــ عليهم .

كما روى أن بعضهم شكا فقره إلى بعض أرباب البصيرة ، وأظهر شدة اغتمامه بذلك ، فقال له : أيسرك أنك أعمى ولك عشرة آلاف درهم ؟ قال : لا ، قال : أيسرك أنك أخرس ولك عشرة آلاف درهم ؟ قال : لا ، قال : أيسرك أنك أقطع اليدين والرجلين ولك عشرون ألفاً ؟ قال : لا . قال : أيسرك أنك مجنون ولك عشرة آلاف ؟ قال : لا ، قال : أما تستحى أن تشكو مولاك وله عندك عروض بخمسين ألفاً . وحكى عن بعض الفقراء أنه اشتد به الفقر حتى ضاق به ذرعاً ، فرأى فى المنام كأن قائلاً يقول له : أتود أنا أنسيناك سورة الأنعام ولك ألف دينار ؟ قال : لا . قال : فسورة هود ؟ قال : لا ، قال : فسورة يوسف ؟ قال : لا ، قال : فمعك قيمة مائة ألف دينار وأنت تشكو ؟ فأصبح وقد سرى عنه .

ودخل ابن السماك على الرشيد فى عظة ، فبكى ثم دعا بماء فى قدح فقال : ياأمير المؤمنين ! لو منعت هذه الشربة إلا بالدنيا وما فيها ، أكنت تفديها بها ؟ قال : نعم . قال : فاشرب رياً ، بارك الله فيك . فلما شرب . قال له : ياأمير المؤمنين : أرأيت لو منعت إخراج هذه الشربة منك إلا بالدنيا وما فيها ، أكنت تفتدى ذلك ؟ قال : نعم . قال : فما تصنع بشىء شربة ماء خير منه ! وهذا يبين أن نعمة الله ــ تعالى ــ على العبد فى شربة ماء عند العطش أعظم من ملك الأرض كلها ، ثم تسهيل خروج الحدث من أعظم النعم ، وهذه إشارة وجيزة إلى النعم الخاصة .

واعلم : أن ما من عبد إلا إذا أمعن النظر رأى من نعم الله نعماً كثيرة لا يشاركه فيها عموم الناس ، بل قد يشاركه فى ذلك كثير منهم ، من ذلك العقل ، فما من عبد إلا وهو راضٍ عن الله سبحانه فى عقله ، يعتقد أنه أعقل الناس ، وقلما يسأل الله العقل ، وإذا كان ذلك اعتقاده ، فيجب عليه أن يشكر الله ــ تعالى ــ على ذلك .

ومن ذلك الخلق ، فإنه ما من عبد إلا ويرى من غيره عيوباً يكرهها ، وأخلاقاً يذمها ، ويرى نفسه بريئاً منها ، فينبغى أن يشكر الله ــ تعالى ــ على ذلك ، حيث أحسن خلقه وابتلى غيره . ومن ذلك أن ما من أحد إلا وهو يعرف من بواطن أمور نفسه وخفايا أركانها ما هو منفرد به ، ولو كشف الغطاء عنه حتى اطلع عليه أحد من الخلق لافتضح ، فكيف لو اطلع الناس كافة ؟ فلم لا يشكر الله بستر الجميل على مساويه ، حيث أظهر الجميل وستر القبيح ، ولننزل إلى طبقة أعم من هذا القبيل ، فنقول : ما من عبد إلا وقد رزقه الله

ــ تعالى ــ فى صورته ، أو أخلاقه أو صفاته ، أو أهله ، أو ولده ، أو مسكنه أو بلده ، أو رفيقه ، أو أقاربه ، أو جاهه ، أو سائر محابه ، أموراً ، لو سلب ذلك وأعطى ما خصص به من ذلك غيره ، لكان لا يرضى به ، وذلك مثل أن جعله مؤمناً لا كافراً ، وحياً لا جماداً ، وإنساناً لا بهيمة ، وذكراً لا أنثى ، وصحيحاً لا مريضاً ، وسليماً لا معيباً ، فإن كل هذه خصائص .

فإن كان لا يرى أن يبدل حاله بحال غيره ، مثل أن لا يعرف شخصاً يرتضى لنفسه حاله بدلاً عن حال نفسه ، إما على الجملة ، أو فى أمر خاص ، فإن لله عليه نعماً ليست له على أحد من عباده سواه ، وإن كان يرى أنه يبدل حال نفسه بحال بعضهم دون بعض ، فلينظر إلى عدد المغبوطين عنده ، فإنه يراهم عنده لا محالة أقل من غيرهم، فيكون من دونه فى الحال أكثر بكثير ممن فوقه ، فما باله ينظر إلى من فوقه ولا ينظر إلى من دونه ؟! وفى « الصحيحين » عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ، قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « **إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه فى المال والخلق ، فلينظر إلى من هو أسفل منه ممن فضل عليه** »(1) . وقد رواه الترمذى بلفظ آخر : « **انظروا إلى من هو أسفل منكم ، ولا تنظروا إلى من فوقكم ، فإنه أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم** »(2) .

فإن من اعتبر حال نفسه ، وفتش على ما خص به ، وجد لله ــ تعالى ــ عليه نعماً كثيرة ، لا سيما من خص الإيمان ، والقرآن ، والعلم ، والسنة ، ثم الفراغ ، والصحة والأمن وغير ذلك . وقد روى فى بعض الأحاديث « **من قرأ القرآن فهو غنى** » . وفى لفظ : « **القرآن غنى لا فقر بعده ، ولا غنى دونه** »(3) . وفى حديث آخر : « **من أصبح آمناً فى سربه ، معافى فى بدنه ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها** »(4) . وقال بعضهم :

إذا ما القوت يأتى لـك(*) فى الصحة والأمن
وأصبحت أخا حزن فلا فارقك الحزن

---

(1) رواه الإمام أحمد فى المسند [٢/٣١٤] ، والبخارى فى الرقاق باب « لينظر إلى من هو أسفل منه ، ولا ينظر إلى من هو فوقه » برقم [٦٤٩٠] ، ورواه مسلم فى « الزهد » برقم [٨] .

(2) رواه مسلم فى الزهد رقم ٩ ، والترمذى فى القيامة باب [٥٨] عن أبى هريرة وقال : حديث صحيح ، الإمام أحمد فى المسند [٢/٢٥٤ ، ٤٨٢] ، وابن ماجه فى الزهد باب القناعة رقم [٤١٤٢] .

(3) فى جمع الجوامع [١/٤٣٥] عزاه لأبى يعلى ومحمد بن نصر والطبرانى فى الكبير والبيهقى فى شعب الإيمان والخطيب فى تاريخه عن أنس ، وقال : حديث ضعيف ، وكذا قال العراقى [٤/١٢٢] .

(4) رواه الترمذى « فى الزهد » باب [٣٤] [٩/٢٠٨] عن سلمة بن عبيد الله بن محصن الخطمى عن أبيه وقال : هذا حديث حسن غريب ، وابن ماجه فى الزهد باب القناعة رقم [٤١٤١] .

(*) فى إحياء علوم الدين [٤/١٢٣] : يأتيك .

obeikandi.com

فإن قيل : فما علاج القلوب الغافلة عن شكر نعم الله ــ تعالى ــ ؟ فالجواب : أما القلوب المبصرة ، فتتأمل ما رمز إليه من أصناف نعم الله ــ عز وجل ــ وأما القلوب البليدة التى لا تعد النعمة نعمة إلا إذا نزل بها البلاء ، فسبيل صاحبها أن ينظر أبداً إلى من دونه ، ويفعل ما كان يفعله بعض القدماء ، فإنه كان يحضر دار المرضى ليشاهد أنواع البلاء عليهم ، ثم يتأمل صحته وسلامته ، ويشاهد الجناة الذين يقتلون ، وتقطع أيديهم وأرجلهم ويعذبون ، فيشكر الله على سلامته من تلك العقوبات ، ويحضر المقابر ، فيعلم أن أحب الأشياء إلى الموتى أن يردوا إلى الدنيا ، ليتدارك من عصا عصيانه ، وليزيد فى الطاعة من أطاع ، فإن يوم القيامة يوم التغابن ، فإذا شاهد المقابر ، وعلم أحب الأشياء إليهم ، فليصرف بقية عمره فى طاعة الله ــ تعالى ــ وشكره فى الإمهال ، بأن يصرف العمر إلى ما خلق لأجله ، وهو التزود للآخرة . ومما ينبغى أن تعالج به القلوب البعيدة عن الشكر أن يعرف أن النعمة إذا لم تشكر زالت . كان الفضيل ــ رحمه الله تعالى ــ يقول : عليكم بمداومة الشكر على النعم ، فقل نعمة زالت عن قوم فعادت إليهم .

● فصل فى بيان اجتماع الصبر والشكر على وجه واحد

لعلك تقول : قد ذكرت أن لله ــ تعالى ــ فى كل موجود نعمة ، وهذا يشير إلى أن البلاء لا وجود له أصلاً ، فما معنى الصبر ، وإن كان البلاء موجوداً ، فما معنى الشكر على البلاء ؟ وكيف يجتمع الصبر والشكر ؟! فإن الصبر يستدعى ألماً ، والشكر يستدعى فرحاً ، وهما متضادان .

فاعلم أن البلاء موجود ، كما أن النعمة موجودة ، وأنه ليس كل بلاء يؤمر بالصبر عليه ، مثل الكفر ، فإنه بلاء ، ولا معنى للصبر عليه ، وكذا المعاصى ، إلا أن الكافر لا يعلم أن كفره بلاء ، فيكون كمن به علة وهو لا يتألم بها بسبب غشيته ، والعاصى يعرف عصيانه ، فعليه ترك المعصية ، وكل بلاء يقدر الإنسان على دفعه لا يؤمر بالصبر عليه ، فلو ترك شرب الماء مع العطش حتى عظم ألمه ، لم يؤمر بالصبر على ذلك ، بل يؤمر بإزالة الألم ، وإنما يكون الصبر على ألم ليس إلى العبد إزالته ، فإذن يرجع الصبر فى الدنيا إلى ما ليس ببلاء مطلق ، بل يجوز أن يكون نعمة من وجهه ، فلذلك يتصور أن يجتمع عليه وظيفة الشكر ووظيفة الصبر ، فإن الغنى مثلاً يجوز أن يصير سبب هلاك الإنسان ، حتى يقصد قتله بسبب ماله ، والصحة أيضاً كذلك ، فما من نعمة من نعم الدنيا إلا ويجوز أن تصير بلاء ، وقد يكون على العبد فى بعض الأمور بلاء وفيه نعمة .

مثال ذلك ، جهل الإنسان بأجله ، فإنه نعمة عليه ، إذ لو عرفه تنغص عليه العيش ، وطال بذلك غمه ، وكذلك جهله بما يضمره بعض الناس له ، إذ لو اطلع عليه ، لطال ألمه وحقده وحسده واشتغاله بالانتقام ، وكذلك جهله بالصفات المذمومة من غيره ، إذ لو عرف منه ذلك ، أبغضه واذاه، فكان ذلك وبالاً عليه . ومن ذلك إبهام القيامة ، وليلة

القدر ، وساعة الجمعة ، وكل ذلك نعمة ، لأن الجهل يوفر الدواعى على الطلب والاجتهاد ، فهذه وجوه نعم الله ــ تعالى ــ فى الجهل ، فكيف فى العلم ؟!

وقد قلنا : إن لله ــ سبحانه ــ فى كل موجود نعمة ، حتى إن الآلام قد تكون نعمة فى حق المتألم ، وقد تكون نعمة فى حق غيره ، كألم الكفار فى النار فى الآخرة ، فإنه نعمة فى حق أهل الجنة ، إذ لو لم يعذب قوم ، ما عرف المتنعمون قدر نعيمهم ، وإنما يتضاعف فرح أهل الجنة إذا ذكروا ألم أهل النار ، ألا ترى أن أهل الدنيا لا يشتد فرحهم بنور الشمس ، مع شدة حاجتهم إليها من جهة أنها عامة مبذولة ، ولا بالنظر إلى زينة السماء ، وهى أحسن من كل نبت ، لأنها عامة ، فلذلك لم يشعروا بها ، ولم يفرحوا بسببها ، فإذا صح قولنا : إن الله ــ تعالى ــ لم يخلق شيئاً إلا وفيه حكمة ونعمة ، إما على جميع العباد ، أو على بعضهم ، ففى خلق الله ــ تعالى ــ البلاء نعمة أيضاً ، إما على المبتلى ، أو على غيره ، فيجتمع على العبد وظيفة الشكر والصبر فى كل حالة لا توصف بأنها بلاء مطلق ، ولا نعمة مطلقة ، فإن الإنسان قد يفرح بالشىء الواحد من وجه ، ويغتم به من وجه ، فيكون الصبر من حيث الاغتمام ، والشكر من حيث الفرح .

واعلم : أن فى كل فقر ،ومرض ، وخوف ، وبلاء فى الدنيا ، خمسة أشياء ينبغى أن يفرح العاقل بها ، ويشكر عليها : **أحدها** : أن كل مصيبة ومرض يتصور أن يكون عليه أكثر منها ، لأن مقدورات الله ــ تعالى ــ لا تتناهى ، فلو أضعفها الله ــ عزَّ وجل ــ على العبد ، فما كان يمنعه ؟ فليشكر إذ لم يكن أعظم . **الثانى** : أن المصيبة لم تكن فى الدين . قال عمر ابن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ: ما ابتليت ببلاء إلا كان لله ــ تعالى ــ علىَّ فيه أربع نعم : إذ لم يكن فى دينى ، وإذ لم يكن أعظم ، وإذ لم أحرم الرضى به ، وإذ أرجو الثواب عليه . قال رجل لسهل بن عبد الله : دخل اللص بيتى وأخذ متاعى ، فقال : اشكر الله ــ تعالى ــ، ولو دخل الشيطان قلبك فأفسد إيمانك ، ماذا كنت تصنع ؟ ومن استحق أن يضربك مائة سوط ، فاقتصر على عشرة ، فهو مستحق للشكر .

الثالث : أن ما من عقوبة إلا كان يتصور أن تؤخر إلى الآخرة ، ومصائب الدنيا يتسلى عنها فتخف ، ومصيبة الآخرة دائمة، وإن لم تدم ، فلا سبيل إلى تخفيفها ، ومن عجلت عقوبته فى الدنيا لم يعاقب ثانياً ، كذا ورد فى الحديث عن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ. وفى « صحيح مسلم » : « **إن كل ما يصاب به المسلم يكون كفارة له ، حتى النكبة ينكبها ، والشوكة يشاكها** »[1] .

الرابع : أن هذه المصيبة كانت مكتوبة عليه فى أم الكتاب ، ولم يكن بد من وصولها إليه ، فقد وصلت واستراح منها ، فهى نعمة .

---

(١) تقدم تخريجه .

الخامس : أن ثوابها أكثر منها ، فإن مصائب الدنيا - إلى الآخرة ، كما يكون المنع من أسباب اللعب نعمة فى حق الصبى ، فإنه لو خلى واللعب ، لكان يمنعه ذلك من العلم والأدب ، فكان ضرره طول عمره ، وكذلك المال والاهل والأقارب والأعضاء ، قد تكون سبباً لهلاكه ، فالملحدون غداً يتمنون أن لو كانوا مجانين وصبياناً ، ولم يتصرفوا بعقولهم فى دين الله ــ تعالى ــ، فما من شيء من هذه الأسباب يوجد من العبد ، إلا ويتصور أن يكون له فى ذلك خيرة دينية ، فعليه أن يحسن الظن بالله ــ عز وجل ــ، ويقدر الخيرة فيما أصابه ويشكر الله ــ تعالى ــ عليه ، فإن حكمة الله ــ تعالى ــ واسعة ، وهو أعلم بمصالح العباد منهم ، وغداً يشكره العباد على البلاء إذا رأوا ثوابه ، كما يشكر الصبى بعد البلوغ أستاذه وأباه على ضربه وتأديبه ، إذا رأى ثمرة ما استفاد من التأديب .

والبلاء تأديب من الله ــ تعالى ــ، ولطفه بعباده أتم وأوفى من عناية الآباء بالأولاد . وفى الحديث : « **لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له** »[1] . وأيضاً ، فاعلم أن رأس الخطايا المهلكة حب الدنيا ، ورأس أسباب النجاة التجافى بالقلب عنها ، ومواتاة النعم على وفق المراد من غير امتزاج ببلاء ومصيبة تورث طمأنينة القلب إلى الدنيا والأنس بها ، فإذا كثرت المصائب انزعج القلب عن الدنيا ولم يسكن إليها ، فصارت سجناً له ، فكانت نجاته منها غاية المراد كخلاص المسجون من السجن .

وأما التألم فهو ضرورى وذلك يضاهى فرحك بمن يحجمك أو يسقيك دواء نافعاً بلا أجر ، فإنك تتألم وتفرح ، فتصبر على الألم ، وتشكر على سبب الفرح ، فمن عرف هذا ، تصور منه أن يشكر على البلاء ، ومن لا يؤمن أن ثواب المصيبة أكثر منها لم يتصور منه الشكر على المصيبة . وقد روى أن أعرابياً عزى ابن عباس ــ رضى الله عنه ــ بأبيه فقال :

اصبر نكن بك صابرين فإنما صبر الرعية عند صبر الرأس
خير من العباس صبرك بعده والله خير منك للعباس

فقال ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ: ما عزانى أحد أحسن من تعزيته . وقد سبق ذكر أنواع البلاء ، وثواب الصبر عليها . فإن قال قائل : الأخبار الواردة فى فضل الصبر تدل على أن البلاء فى الدنيا خير من النعيم ، فهل لنا أن نسأل الله ــ عز وجل ــ البلاء ؟ فالجواب : أنه لا وجه لذلك ، فإن فى الحديث من رواية أنس ، أن رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ عاد رجلاً من المسلمين صار مثل الفرخ ، فقال له رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « **هل كنت تدعو بشيء ، أو تسأله** » ؟ قال : نعم ، كنت أقول

---

(١) روى مسلم فى صحيحه عن صهيب قال : قال رسول الله ــ ﷺ ــ: « عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير ، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيراً له » « صحيح مسلم كتاب ''الزهد'' باب « المؤمن أمره كله خير » رقم [٦٤] » .

: اللّٰهم ما كنت معاقبى به فى الآخرة ، فعجله لى فى الدنيا ، فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « **سبحان الله لا تطيقه ولا تستطيعه ، فهلا قلت : اللّٰهم آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار** »[1] .

ومن حديث أنس ــ رضى الله عنه ــ أيضاً ، أن رجلاً قال : يانبى الله : أى الدعاء أفضل ؟ قال : « **سل الله العفو والعافية فى الدنيا والآخرة** » ، ثم أتاه الغد ، فقال : يارسول الله : أى الدعاء أفضل ؟ قال : « **سل الله العفو والعافية فى الدنيا والآخرة** » ، ثم أتاه اليوم الثالث . فقال : « **سل الله العفو والعافية فى الدنيا والآخرة ، فإن أعطيت العفو والعافية فى الدنيا والآخرة فقد أفلحت** »[2] . وفى « الصحيحين » أنه ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ قال : « **تعوذوا بالله من جهد البلاء ، ودرك الشقاء ، وسوء القضاء ، وشماتة الأعداء** »[3] . وقال مطرف : لأن أعافى فأشكر ، أحب إلىّ من أن أبتلى فأصبر .

● فصل فى بيان ايهما افضل الصبر ام الشكر

واختلف الناس: هل الصبر أفضل من الشكر، أو بالعكس؟ وفى ذلك كلام طويل، ذكره المصنف ــ رحمه الله ــ وتلخيص القول فيه : أن لكل واحد من الصبر والشكر درجات . فأقل درجات الصبر ، ترك الشكوى مع الكراهة ودواعها الرضى ، وهو مقام وراء الصبر ، ووراء ذلك الشكر على البلاء ، وهو وراء الرضى . ودرجات الشكر كثيرة ، فإن حياء العبد من تتابع نعم الله عليه شكر ، ومعرفته بتقصيره عن الشكر شكر ، والمعرفة بعظيم حلم الله وستره شكر ، والاعتراف بأن النعم ابتلاء من الله بغير استحقاق شكر ، والعلم بأن الشكر نعمة من نعم الله شكر ، وحسن التواضع فى النعم والتذلل فيها شكر ، وشكر الوسائط شكر، لقوله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « **لا يشكر الله من لا يشكر الناس** »[4]. وقلة الاعتراض وحسن الأدب بين يدى المنعم شكر ، وتلقى النعم بحسن القبول واستعظام صغيرها شكر ، فما يندرج من الأعمال والأقوال تحت اسم الشكر والصبر لا ينحصر ، وهى درجات مختلفة ، فكيف يمكن إجمال القول بتفضيل أحدهما على الآخر ؟

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه كتاب الذكر باب كراهة الدعاء بتعجيل العقوبة فى الدنيا رقم [٢٣] ، ورواه الترمذى فى الدعوات باب [٧٢] [٢٦/١٣] وقال : هذا حديث صحيح غريب ، رواه أحمد فى مسنده [١٠٧/٣ ، ٢٨٨] .

(٢) رواه الترمذى فى صحيحه باب ٨٤ [٤٤/١٣ ــ ٤٥] عن أنس وقال : هذا حديث حسن غريب .

(٣) رواه البخارى فى « القدر » باب من « تعوذ بالله من درك الشقاء وسوء القضاء » رقم [٦٦١٦] ، ورواه مسلم فى « الذكر » رقم [٥٣] ، والإمام أحمد فى المسند [١٧٣/٢ ، ٢٤٦] .

(٤) رواه أبو داود فى « الأدب » باب [١٢] رقم [٤٨١١] ، ورواه الترمذى فى « البر والصلة » باب « ما جاء فى الشكر لمن أحسن إليك » [١٣٢/٨] وقال : هذا حديث حسن صحيح . والإمام أحمد فى المسند [٢٥٨/٢ ، ٢٩٥] ــ [٢٣/٣ ، ٧٤] ــ [٢٧٨/٤] ــ [٢١١/٥ ، ٢١٢] .

لكن نقول : إذا أضيف إلى الشكر الذى هو صرف المال إلى الطاعة ، فالشكر أفضل ، لأنه تضمن الصبر أيضاً ، وفيه فرح بنعمة الله ــ عز وجل ــ، وفيه احتمال ألم فى صرفه إلى الفقراء ، وترك صرفه إلى التنعم المباح ، فهو أفضل من الصبر بهذا الاعتبار . وأما إذا كان شكر المال ألا يستعين به على معصية ، بل يصرفه إلى التنعم المباح ، فالصبر هنا أفضل من الشكر ، والفقير الصابر أفضل من الممسك ماله الصارف له فى المباحات ، لأن الفقير قد جاهد نفسه وأحسن الصبر على بلاء الله ــ تعالى ــ، وجميع ما ورد من تفضيل أجزاء الصبر على الشكر ، إنما أريد به هذه الرتبة على الخصوص ، لأن السابق إلى أفهام الناس ، من نعمة الأموال ، والغنى بها ، والسابق إلى الأفهام من الشكر أن يقول الإنسان : الحمد لله . فإذن الصبر الذى يعتمده العامة أفضل من هذا الشكر الذى يفهمونه . ومتى لحظت المعنى الذى ذكرناه ، علمت بأن لكل واحد من القولين وجهاً فى بعض الأحوال ، فرب فقير صابر أفضل من غنى شاكر كما ذكر ، ورب غنى شاكر أفضل من فقير صابر ، وذلك هو الغنى الذى يرى نفسه مثل الفقير الذى لا يمسك لنفسه من المال إلا قدر الضرورة ، ويصرف الباقى فى الخيرات ، أو يمسكه على اعتقاده أنه خازن للمحتاجين ، وإنما ينتظر حاجة تسنح حتى يصرف إليها ، وإذا صرفه لم يصرفه لطلب جاه ولا تقليد منة ، فهذا أفضل من الفقير الصابر ، والله ــ سبحانه وتعالى ــ أعلم .

● كتاب الرجاء والخوف

واعلم : أن الرجاء والخوف جناحان ، بهما يطير المقربون إلى كل مقام محمود ، ومطيتان بهما يقطع من طريق الآخرة كل عقبة كؤود ، ولابد من بيان حقيقتهما وفضيلتهما وسببهما ، وما يتعلق بذلك . ونحن نذكرهما فى شطرين : الأول : فى الرجاء . والثانى : فى الخوف .

© الشطر الأول : الرجاء :

واعلم : أن الرجاء من جملة مقامات السالكين وأحوال الطالبين ، وإنما يسمى الوصف مقاماً إذا ثبت وأقام ، فإن كان عارضاً سريع الزوال سمى حالاً ، كما أن الصفرة تنقسم إلى ثابتة ، كصفرة الذهب ، وإلى سريعة ، كصفرة الوجل ، وإلى ما بينهما كصفرة المرض ، وكذلك صفات القلب تنقسم إلى هذه الأقسام ، وإنما سمى غير الثابت حالاً ، لأنه يحول عن القلب .

واعلم : أن كل ما يلاقيك من محبوب أو مكروه ينقسم إلى موجود فى الحال ، وإلى موجود فيما مضى . **فالأول** : يسمى وجداً وذوقاً وإدراكاً . **والثانى يسمى** ذِكْرًا ، وإن كان قد خطر ببالك شىء فى الاستقبال ، وغلب على قلبك ، سمى انتظاراً وتوقعاً ، فإن كان المنتظر محبوباً ، سمى رجاء ، وإن كان مكروهاً ، سمى خوفاً . فالرجاء : هو ارتياح لانتظار

ما هو محبوب عنده ، ولكن ذلك المتوقع لابد له من سبب حاصل ، فإن لم يكن السبب معلوم الوجود ولا معلوم الانتفاء ، سمى تمنياً ، لأنه انتظار من غير سبب . ولا يطلق اسم الرجاء والخوف إلا على ما يتردد فيه ، فأما ما يقطع به فلا ، إذ لا يقال : أرجو طلوع الشمس وأخاف غروبها ، لأن ذلك مقطوع به عند طلوعها وغروبها ، ولكن يقال : أرجو نزول المطر وأخاف انقطاعه .

وقد علم أرباب القلوب أن الدنيا مزرعة الآخرة ، والقلب كالأرض ، والإيمان كالبذر فيه ، والطاعات جارية مجرى تنقية الأرض وتطهيرها ، ومجرى حفر الأنهار ومساق الماء إليها . وإن القلب المستغرق بالدنيا ، كالأرض السبخة التى لا ينمو فيها البذر . ويوم القيامة هو يوم الحصاد ، ولا يحصد أحد إلا ما زرع ، ولا ينمو زرع إلامن بذر الإيمان ، وقل أن ينفع إيمان مع خبث القلب وسوء أخلاقه ، كما لا ينمو البذر فى الأرض السبخة . فينبغى أن يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع ، فكل من طلب أرضاً طيبة ، وألقى فيها بذراً جيداً غير مسوس ولا عفن ، ثم ساق إليها الماء فى أوقات الحاجة ، ونقّى الأرض من الشوك والحشيش وما يفسد الزرع ، ثم جلس ينتظر من فضل الله ــ تعالى ــ دفع الصواعق والآفات المفسدة ، إلى أن يتم الزرع ويبلغ غايته ، فهذا يسمى انتظاره رجاء .

فأما إن بذر فى أرض سبخة صلبة مرتفعة لا يصل إليها الماء و لم يتعاهدها أصلاً ، ثم انتظر الحصاد ، فهذا يسمى انتظاره حمقاً وغروراً ، لا رجاء . وإن بث البذر فى أرض طيبة ، ولكن لا ماء لها ، وأخذ ينتظر مياه الأمطار ، سمى انتظاره تمنياً لا رجاءً .فإذن اسم الرجاء إنما يصدق على انتظار محبوب مهدت أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ، و لم يبق إلا ما ليس إلى اختياره ، وهو فضل الله ــ سبحانه ــ، بصرف الموانع المفسدات ، فالعبد إذا بث بذر الإيمان ، وسقاه ماء الطاعات ، وطهر القلب من شوك الأخلاق الرديئة ، وانتظر من فضل الله ــ تعالى ــ **تثبيته على ذلك إلى الموت ، وحسن الخاتمة المفضية إلى المغفرة ، كان انتظاره لذلك رجاءً** محموداً باعثاً على المواظبة على الطاعات والقيام بمقتضى الإيمان إلى الموت ، وإن قطع بذر الإيمان عن تعهده بماء الطاعات أو ترك القلب مشحوناً برذائل الأخلاق ، وانهمك فى طلب لذات الدنيا ، ثم انتظر المغفرة ، كان ذلك حمقاً وغروراً . قال الله ــ تعالى ــ: ﴿ **فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِم خَلْفٌ وَرِثُوا الكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَر لنا** ﴾[1] . وذم القائل : ﴿ **وَلَئِن رُدِدْتُ إِلَى رَبِّى لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً** ﴾[2] .

وروى شداد بن أوس ، قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « **الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله ــ عز**

---

(١) الأعراف : ١٦٩ . (٢) الكهف : ٣٦ .

وجل ــ الأمانى »[1] . وقال معروف الكرخى ــ رحمه الله ــ: رجاؤك لرحمة من لا تطيعه خذلان وحمق . ولذلك قال الله ــ تعالى ــ ﴿ **إِنَّ الذينَ آمَنُوا وَالَّذينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فى سبيل اللهِ اوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ** ﴾[2] . المعنى : أولئك الذين يستحقون أن يرجوا ، ولم يرد تخصيص وجود الرجاء ،لأن غيرهم أيضاً قد يرجو ذلك .

واعلم : أن الرجاء محمود ، لأنه باعث على العمل ، واليأس مذموم ، لأنه صارف عن العمل ، إذ منّ عرف أن الأرض سبخة ، وأن الماء مغور ، وأن البذر لا ينبت ، ترك تفقد الأرض ، ولم يتعب فى تعاهدها . وأما الخوف ، فليس بضد الرجاء ، بل رفيق له ، كما سيأتى بيانه إن شاء الله ــ تعالى ــ. وحال الرجاء يورث طريق المجاهدة بالأعمال ، والمواظبة على الطاعات كيفما تقلبت الأحوال ، ومن آثاره التلذذ بدوام الإقبال على الله ــ عز وجل ــ، والتنعم بمناجاته ، والتلطف فى التملق له ، فإن هذه الأحوال لابد أن تظهر على كل من يرجو ملكاً من الملوك ، أو شخصاً من الأشخاص ، فكيف لا يظهر ذلك فى حق الله ــ سبحانه وتعالى ــ؟ فمتى لم يظهر ، استدل به على حرمان مقام الرجاء ، فمن رجا أن يكون مراداً بالخير من غير هذه العلامات ، فهو مغرور .

● فصل فى فضيلة الرجاء

روى فى « الصحيحين » من حديث أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ، عن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ أنه قال : « **قال الله ــ عز وجل ــ: أنا عند ظن عبدى بى** » وفى رواية أخرى : « **فليظن بى ما شاء** »[3] . وفى حديث آخر من رواية مسلم : أن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ قال : « **لا يموتنَّ أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله** »[4] .

وأوحى الله ــ تعالى ــ إلى داود ــ عليه السلام ــ: « **أحبنى ، وأحب من يحبنى ، وحببنى إلى خلقى . قال : يارب : كيف أحببك إلى خلقك ؟ قال : اذكرنى بالحسن الجميل ، واذكر آلائى وإحسانى** . وعن مجاهد ــ رحمه الله ــ قال : يؤمر بالعبد يوم القيامة إلى النار ، فيقول : ما كان هذا ظنى فيقول : ما كان ظنك ؟ فيقول : أن تغفر لى ، فيقول : خلوا سبيله .

---

(١) الحديث فى المسند [١٢٤/٤] ، أخرجه الحاكم [٥٧/١] وقال : حديث صحيح على شرط البخارى ولم يخرجاه ، قال الذهبى : لا والله أبو بكر بن أبى مريم الغسانى ــ أحد رجال السند ــ واهٍ .

(٢) البقرة: ٢١٨ .

(٣) رواه مسلم فى صحيحه كتاب « التوبة » باب « الحض على التوبة » رقم [١] . والإمام أحمد فى المسند [٥٢٤/٢ ، ٥٣٤] .

(٤) رواه مسلم فى صحيحه كتاب « الجنة وصفة نعيمها وأهلها » رقم [٨١] .

● فصل فى دواء الرجاء والسبب الذى يحصل به

اعلم : أن دواء الرجاء يحتاج إليه رجلان : إما رجل قد غلب عليه اليأس حتى ترك العبادة . وإما رجل غلب عليه الخوف حتى أضر بنفسه وأهله . فأما العاصى المغرور المتمنى على الله مع الإعراض عن العبادة ، فلا ينبغى أن يستعمل فى حقه إلا أدوية الخوف ، فإن أدوية الرجاء تقلب فى حقه سموماً ، كما أن العسل شفاء لمن غلبت عليه البرودة ، مضرٌّ لمن غلبت عليه الحرارة . ولهذا يجب أن يكون واعظ الناس متلطفاً ، ناظراً إلى مواضع العلل ، معالجاً كل علة بما يليق بها ، وهذا الزمان لا ينبغى أن يستعمل فيه مع الخلق أسباب الرجاء ، بل المبالغة فى التخويف ، وإنما يذكر الواعظ فضيلة أسباب الرجاء إذا كان مقصوده استمالة القلوب إليه ، لإصلاح المرضى . وقد قال على ــ رضى الله عنه ــ: إنما العالم الذى لا يقنط الناس من رحمة الله ، ولا يؤمنهم مكر الله .

إذا عرفت هذا ، فاعلم أن من أسباب الرجاء ، ما هو من طريق الاعتبار ، ومنها ما هو من طريق الأخبار . أما الاعتبار ، فهو أن يتأمل جميع ما ذكرناه من أصناف النعم فى كتاب الشكر ، فإذا علم لطائف الله ــ تعالى ــ بعباده فى الدنيا ، وعجائب حكمته التى راعاها فى فطرة الإنسان ، وأن لطفه الإلٰهى لم يقصر عن عباده فى دقائق مصالحهم فى الدنيا ، ولم يرض أن تفوتهم الزيادات فى الرتبة ، فكيف يرضى سياقتهم إلى الهلاك المؤبد ؟! فإن من لطف فى الدنيا يلطف فى الآخرة ، لأن مدبر الدارين واحد . وأما استقراء الآيات والأخبار ، فمن ذلك قوله ــ سبحانه وتعالى ــ: ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِىَ الَّذِين أَسْرَفوا عَلَى أَنْفُسهم لاَ تَقْنطُوا من رَّحْمَةِ الله إِنَّ اللهَ يَغْفرُ الذُّنوب جَميعاً** ﴾[1] . وقال ــ تعالى ــ: ﴿ **وَالمَلاَئكَةَ يُسَبِّحُون بِحَمْد رَبهم وَيَسْتَغْفرُوُن لمَن فى الأرض** ﴾[2] .

وأخبر ــ تعالى ــ أنه أعد النار -لأعدائه ، وإنما خوف بها أولياءه ، فقال : ﴿ **لَهُمْ مِن فَوْقهمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ ، وَمن تحتهمْ ظُلَلٌ ذَٰلك يُخَوِّفُ الله بِهِ عِبَادَهُ** ﴾[3] . وقال ــ تعالى ــ: ﴿ **واتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعدَّتْ للْكَافرِينَ** ﴾[4] . وقال : ﴿ **فَأَنذرتُكُم ناراً تَلَظَّى . لاَ يَصْلاَهَا إِلاَّ الأشقى ، الَّذى كَذَّبَ وتَوَلَّى** ﴾[5] وقال ــ تعالى ــ ﴿ **وإِنَّ رَبَّك لَذُو مَغفرَةٍ للنَّاسِ عَلىَّ ظُلْمِهم** ﴾[6] .

---

(١) الزمر : ٥٣ . (٢) الشورى : ٥ . (٣) الزمر : ١٦ . (٤) آل عمران : ١٣١ .
(٥) الليل : ١٤ ــ ١٦ . (٦) الرعد : ٦ .

ومن الأخبار ما روى أبو سعيد الخدرى ــ رضى الله عنه ــ، قال : سمعت رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ يقول : « **إن إبليس قال لربه عزَّ وجل : بعزتك وجلالك ، لا أبرح أغوى بنى آدم ما دامت الأرواح فيهم . فقال الله ــ عز وجل ــ: فبعزتى وجلالى ، لا أبرح أغفر لهم ما استغفرونى** »[1] . وعن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال: قال رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « **والذى نفسى بيده ، لو لم تذنبوا ، لذهب الله بكم ، ولجاء بقوم يذنبون ، فيستغفرون فيغفر لهم** » رواه مسلم[2] .

وفى « الصحيحين » من حديث عائشة ــ رضى الله عنها ــ، أن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ قال : « **سددوا وقاربوا وأبشروا ، فإنه لن يدخل أحداً الجنة عمله** ، قالوا : **ولا أنت يارسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله منه برحمته** »[3] . وفى « الصحيحين » من حديث أبى سعيد الخدرى ــ رضى الله عنه ــ، عن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ قال : « **يقول الله ــ عز وجل ــ يوم القيامة : ياآدم : قم فابعث بعث النار فيقول : لبيك وسعديك والخير فى يديك . يارب : وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون ، فحينئذ يشيب المولود ، ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ ﴾**[4]. فشق ذلك على الناس ، حتى تغيرت وجوههم ، وقالوا : يارسول الله ! وأينا ذلك الواحد ؟ قال ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « **من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعون ، ومنكم واحد** » فقال الناس : الله أكبر . فقال النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « **والله إنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة . والله إنى لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة ، والله إنى لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة** » ، فكبر الناس ، فقال : « **ما أنتم يومئذ فى الناس إلا كالشعرة البيضاء فى الثور الأسود ، أو كالشعرة السوداء فى الثور الأبيض** »[5]

فانظر كيف جاء بالتخويف ، فلما أزعج جاء باللطف ، ومتى اطمأنت القلوب إلى الهوى ، فينبغى أن تزعج فإذا اشتد قلقها ، ينبغى أن تسكن ليعتدل الأمر . وقال ابن مسعود ــ رضى الله عنه ــ: ليغفرن الله ــ عز وجل ــ يومَ القيامةَ مغفرة لم تخطر على قلب بشر . وروى أن مجوسياً استضاف إبراهيم الخليل ــ عليه السلام ــ فلم يضفه وقال : إن أسلمت ،

---

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده [٢٩/٣] . وهو ضعيف لأن فيه ابن لهيعة ودراج .

(٢) رواه مسلم فى صحيحه كتاب « التوبة » باب « سقوط الذنوب بالاستغفار » رقم [١١] .

(٣) رواه البخارى فى صحيحه كتاب « الإيمان » باب « الدين يسر » برقم [٣٦] ، مسلم فى كتاب « صفات المنافقين » رقم [٧١ ، ٧٦ ، ٧٨] ، المسند [١٦٧/٢] ، [٣٣٧/٣] .

(٤) الحج : ٢ .

(٥) الحديث فى صحيح البخارى كتاب « الرقاق » باب رقم [٤٦] حديث [٦٥٣٠] ، وصحيح مسلم « كتاب الإيمان » باب : « يقول الله لآدم » .

أضفتك ، فأوحى الله ــ تعالى ــ إليه : يا إبراهيم منذ تسعين سنة أطعمه على كفره فسعى إبراهيم ــ عليه السلام ــ خلفه ، فرده وأخبره فى الحال ، فتعجب من لطف الله ــ تعالى ــ. فأسلم . فهذه الأسباب التى تجتلب بها روح الرجاء إلى قلوب الخائفين واليائسين . فأما الحمقى المغرورون ، فلا ينبغى أن يسمعوا شيئاً من ذلك ، بل يسمعون ما سنورده فى أسباب الخوف ، فإن أكثر الناس لا يصلحون إلا على ذلك ، كعبد السوء الذى لا يستقيم إلا بالعصا .

الشطر الثانى من الكتاب فى

● الخوف وحقيقته وبيان درجاته وغير ذلك

اعلم : أن الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه فى الاستقبال . مثال ذلك ، من جنى على ملك جناية ، ثم وقع فى يده ، فهو يخاف القتل ، ويجوِّز العفو ، ولكن يكون تألم قلبه بحسب قوة علمه بالأسباب المفضية إلى قتله ، وتفاحش جنايته ، وتأثيرها عند الملك ، وبحسب ضعف الأسباب يضعف الخوف . وقد يكون الخوف لا عن سبب جناية ، بل عن صفة المخوف وعظمته وجلاله ، إذ قد علم أن الله ــ سبحانه ــ، لو أهلك العالمين لم يبال ، ولم يمنعه مانع ، فبحسب معرفة الإنسان بعيوب نفسه ، وبجلال الله ــ تعالى ــ واستغنائه ، وأنه لا يسأل عما يفعل ، يكون خوفه .

وأخوف الناس أعرفهم بنفسه وبربه ، ولذلك قال النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « **أنا أعرفكم بالله ، وأشدكم له خشية** »[1] . وقال ــ تعالى ــ: ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾[2]. وإذا كملت المعرفة ، أثرت الخوف ، ففاض أثره على القلب ، ثم ظهر على الجوارح والصفات بالنحول والاصفرار والبكاء والغشى ، وقد يفضى إلى للوت ، وقد يصعد إلى الدماغ فيفسد العقل . وأما ظهور أثره على الجوارح ، فبكفها عن المعاصى ، وإلزامها الطاعات ، تلافياً لما فرط ، واستعداداً للمستقبل . قال بعضهم : من خاف أدلج . وقال آخر : ليس الخائف من بكى ، إنما الخائف من ترك ما يقدر عليه .

ومن ثمرات الخوف ، أنه يقمع الشهوات ، ويكدر اللذات ، فتصير المعاصى المحبوبة عنده مكروهة ، كما يصير العسل مكروهاً عند من يشتهيه إذا علم أن فيه سماً ، فتحترق الشهوات بالخوف ، وتتأدب الجوارح ، ويذل القلب ويستكين ، ويفارقه الكبر والحقد والحسد ، ويصير مستوعب الهم لخوفه ، والنظر فى خطر عاقبته ، فلا يتفرغ لغيره ، ولا يكون له شغل

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه كتاب « الأدب » باب « من لم يواجه الناس بالعتاب » رقم [٦١٠١] ، رواه مسلم فى صحيحه كتاب « الفضائل » باب « علمه ــ ﷺ ــ بالله ــ تعالى ــ وشدة خشيته » رقم [١٢٨] .
(٢) فاطر : ٢٨ .

إلا المراقبة والمحاسبة ، والمجاهدة ، والضنّة بالأنفاس واللحظات ، ومؤاخذة النفس فى الخطرات والخطوات والكلمات ، ويكون حاله كحال من وقع فى مخالب سبع ضارٍ لا يدرى أيغفل عنه فيفلت ، أو يهجم عليه فيهلكه ، ولا شغل له إلا ما وقع فيه ، فقوة المراقبة والمحاسبة بحسب قوة الخوف ، وقوة الخوف بحسب قوة المعرفة بجلال الله ــ تعالى ــ، وصفاته ، وبعيوب النفس ، وما بين يديها من الأخطار والأهوال . وأقل درجات الخوف مما يظهر أثره فى الأعمال ، أن يمنع المحظورات ، فإن منع ما يتطرق إليه إمكان التحريم ، سمى ورعاً ، وإن انضم إليه التجرد والاشتغال بذلك عن فضول العيش ، فهو الصدق .

● فصل الخوف سوط الله ـ تعالى ـ

اعلم : أن الخوف سوط الله ــ تعالى ــ يسوق به عباده إلى المواظبة على العلم والعمل ، لينالوا بهما رتبة القرب من الله ــ تعالى ــ. والخوف ، له إفراط ، وله اعتدال ، وله قصور . والمحمود من ذلك الاعتدال ، وهو بمنزلة السوط للبهيمة ، فإن الأصلح للبهيمة أن لا تخلو عن سوط ، وليس المبالغة فى الضرب محمودة ، ولا المتقاصر عن الخوف أيضاً محمود ، وهو كالذى يخطر بالبال عند سماع آية ، أو سبب هائل ، فيورث البكاء ، فإذا غاب ذلك السبب عن الحس ، رجع القلب إلى الغفلة ، فهو خوف قاصر قليل الجدوى ، ضعيف النفع ، وهو كالقضيب الضعيف الذى يضرب به دابة قوية فلا يؤلمها ألماً مبرحاً ، فلا يسوقها إلى المقصد ، ولا يصلح لرياضتها ، وهذا هو الغالب على الناس كلهم ، إلا العارفين والعلماء ، أعنى العلماء بالله وبآياته ، وقد عز وجودهم . وأما المرتسمون برسوم العلم ، فإنهم أبعد الناس عن الخوف .

وأما القسم الأول ، وهو الخوف المفرط ، فهو كالذى يقوى ويجاوز حد الاعتدال حتى يخرج إلى اليأس والقنوط ، فهو أيضاً مذموم ، لأنه يمنع من العمل ، وقد يخرج المرض والوله والموت ، وليس ذلك محموداً ، وكل ما يراد لأمر ، فالمحمود منه ما يفضى إلى المراد المقصود منه ، وما يقصر عنه أو يجاوزه ، فهو مذموم ، وفائدة الخوف الحذر ، والورع ، والتقوى ، والمجاهدة والفكر ، والذكر ، والتعبد وسائر الأسباب التى توصل إلى الله ــ تعالى ــ، وكل ذلك يستدعى الحياة ، مع صحة البدن وسلامة العقل ، فإذا قدح فى ذلك شىء ، كان مذموماً .

فإن قيل : فما تقول فيمن مات من الخوف ؟ فالجواب : أنه ينال لموته على تلك الحال مرتبة لا ينالها لو مات من غير خوف ، إلا أنه لو عاش وترقى إلى درجات المعارف والمعاملة ، كان أفضل ، فإن أفضل السعادة طول العمر فى طاعة الله ــ تعالى ــ فكل ما أبطل العمر والعقل والصحة فهو نقصان وخسران .

● بيان أقسام الخوف

اعلم : أن مقامات الخائفين تختلف ، فمنهم من يغلب على قلبه خوف الموت قبل التوبة ، ومنهم من يغلب عليه خوف الاستدراج بالنعم ، أو خوف الميل عن الاستقامة ، ومنهم من يغلب عليه خوف سوء الخاتمة . وأعلى من هذا خوف السابقة ، لأن الخاتمة فرع السابقة ، والله ــ تعالى ــ يرفع من يشاء من غير وسيلة ، ويضع من يشاء من غير وسيلة ، لا يسأل عما يفعل . وقد قال : « **هؤلاء فى الجنة ولا أبالى ، وهؤلاء فى النار ولا أبالى** » .

ومن أقسام الخائفين ، من يخاف سكرات الموت وشدته ، أو سؤال منكر ونكير ، أو عذاب القبر . ومنهم من يخاف هيبة الوقوف بين يدى الله ــ تعالى ــ، والخوف من المناقشة ، والعبور على الصراط ، والخوف من النار وأهوالها ، أو حرمان الجنة ، أو الحجاب عن الله ــ سبحانه وتعالى ــ وكل هذه الأسباب مكروهة فى أنفسها ، مخوفة . فأعلاها رتبة خوف الحجاب عن الله ــ تعالى ــ، وهو خوف العارفين ، وما قبل ذلك خوف الزاهدين والعابدين .

فصل فى فضيلة الخوف والرجاء وما ينبغى أن يكون الغالب منهما

فضيلة كل شىء بقدر إعانته على طلب السعادة ،وهى لقاء الله ــ تعالى ــ، والقرب منه ، فكل ما أعان على ذلك فهو فضيلة . قال الله ــ تعالى ــ: ﴿ **وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ** ﴾[1] . وقال ــ تعالى ــ: ﴿ **رضى اللهُ عَنْهُم وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خشى رَبَّهُ** ﴾[2] . وفى الحديث عن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ أنه قال : « **إذا اقشعر جلد العبد من مخافة الله ــ عز وجل ــ تحاتت عنه ذنوبه ، كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها** »[3] . وفى حديث آخر : « **لن يغضب الله على من كان فيه مخافة** » .

وقال النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « **قال الله ــ عز وجل ــ: وعزتى وجلالى ، لا أجمع على عبدى خوفين ، ولا أجمع له أمنين ، إن أمننى فى الدنيا ، أخفته يوم القيامة ، وإن خافنى فى الدنيا ، أمنته يوم القيامة** »[4] . وعن ابن عباس ـرضى الله عنهما ـ عن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ أنه قال : « **عينان لا تمسهما النار أبدا : عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس فى سبيل الله** »[5] .

واعلم : أن قول القائل : أيما أفضل الخوف ، أو الرجاء ؟ كقوله : أيما أفضل الخبز أو الماء ؟ وجوابه : أن يقال الخبز للجائع أفضل ، والماء للعطشان أفضل ، فإن اجتمعا ، نظر

---

(١) الرحمن : ٤٦ . (٢) البينة : ٨ .

(٣) رواه البيهقى والطبرانى من حديث العباس بسند ضعيف [قاله العراقى ٤/١٦٠] .

(٤) رواه ابن حبان فى صحيحه [٢٤٩٤] من حديث أبى هريرة بسند حسن ، والبيهقى فى الشعب ، وابن المبارك فى الزهد ، وابن أبى الدنيا فى كتاب الخائفين مرسلاً من رواية الحسن ، عن شداد بن أوس .

(٥) رواه الترمذى فى « فضائل الجهاد » باب ما جاء فى فضل الحرس فى سبيل الله ، وقال : حسن غريب .

إلى الأغلب ، فإن استويا ، فهما متساويان ، والخوف والرجاء دواءان يداوى بهما القلوب ، ففضلهما بحسب الداء الموجود ، فإن كان الغالب على القلب الأمن من مكر الله ، فالخوف أفضل ، وكذلك إن كان الغالب على العبد المعصية ، وإن كان الغالب عليه اليأس والقنوط ، فالرجاء أفضل ، ويجوز أن يقال مطلقاً : الخوف أفضل ، كما يقال : الخبز أفضل من السكنجبين لأن الخبز يعالج به مرض الجوع ، والسكنجبين يعالج به مرض الصفراء ، ومرض الجوع أغلب وأكثر ، فالحاجة إلى الخبز أكثر ، فهو أفضل بهذا الاعتبار ، لأن المعاصى والاغترار من الخلق أغلب .

وإن نظرنا إلى موضع الخوف والرجاء فالرجاء أفضل ، لأن الرجاء يُستقى من بحر الرحمة ، والخوف يُستقى من بحر الغضب . وأما المتقى ، فالأفضل عنده اعتدال الخوف والرجاء ، ولذلك قيل : لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه ، لاعتدلا . قال بعض السلف : لو نودى : ليدخل الجنة كل الناس إلا رجلاً واحداً ، لخشيت أن أكون أنا ذلك الرجل . ولو نودى : ليدخل النار كل الناس إلا رجلاً واحداً ، لرجوت أن أكون أنا ذلك الرجل . وهذا ينبغى أن يكون مختصاً بالمؤمن المتقى . فإن قيل : كيف اعتدال الخوف والرجاء فى قلب المؤمن ، وهو على قدم التقوى ؟ فينبغى أن يكون رجاؤه أقوى . فالجواب : أن المؤمن غير متيقن من صحة عمله ، فمثله من بذر بذراً ولم يجرب جنسه فى أرض غريبة ، والبذر الإيمان ، وشروط صحته دقيقة ، والأرض القلب ، وخفايا خبثه وصفائه من النفاق ، وخبايا الأخلاق غامضة ، والصواعق أهوال سكرات الموت ، وهناك تضطرب العقائد ؛ وكل هذا يوجب الخوف عليه ، وكيف لا يخاف المؤمن ؟

وهذا عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ يسأل حذيفة ــ رضى الله عنه ــ: هل أنا من المنافقين ؟ وإنما خاف أن تلتبس حاله عليه ، ويستتر عيبه عنه ، فالخوف المحمود هو الذى يبعث على العمل ، ويزعج القلب عن الركون إلى الدنيا . وأما عند نزول الموت ، فالأصلح للإنسان الرجاء ، لأن الخوف كالسوط الباعث على العمل ، وليس ثمة عمل ، فلا يستفيد الخائف حينئذ إلا تقطيع نياط[1] قلبه ، والرجاء فى هذه الحال يقوى قلبه ، ويحبب إليه ربه ، فلا ينبغى لأحد أن يفارق الدنيا إلا محباً لله تعالى ، محباً للقائه، حسن الظن به . وقد قال سليمان التيمى عند الموت لمن حضره : حدثنى بالرخص ، لعلى ألقى الله وأنا أحسن الظن به .

● فصل فى بيان الدواء الذى يستجلب به الخوف

وذلك يحصل بطريقين : أحدهما أعلى من الآخر . مثاله أن الصبى إذا كان فى بيت ، فدخل عليه سبع ، أو حية ، ربما لم يخف منه ، وربما مد يده إلى الحية ليأخذها يلعب

---

(١) النياط : عرق علق به القلب من الوتين .

بها ، ولكن إذا كان معه أبوه فهرب منها وخافها ، هرب الصبى ، وخاف موافقة لأبيه ، فخوف الأب عن معرفة ، وخوف الولد من غير معرفة ، بل هو تقليد لأبيه . فإذا عرفت هذا ، فاعلم أن الخوف من الله ــ تعالى ــ على مقامين :

أحدهما : الخوف من عذابه ، وهذا خوف عامة الخلق ، وهو حاصل بالإيمان بالجنة والنار ، وكونهما جزاءين على الطاعة والمعصية ، وبضعف هذا الخوف بسبب ضعف الإيمان ، أو قوة الغفلة . وزوال الغفلة يحصل بالتذكر ، والتفكر فى عذاب الآخرة ، ويزيد بالنظر إلى الخائفين ومجالستهم ، أو سماع أخبارهم . **المقام الثانى** : الخَرِف من الله ــ تعالى ــ ، وهو خوف العلماء العارفين . قال الله ــ تعالى ــ : ﴿ **وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ** ﴾[1] . وصفاته سبحانه تقتضى الهيبة والخوف ، فهم يخافون البعد والحجاب .

قال ذو النون : خوف النار عند خوف الفراق ، كقطرة فى بحر ، ولعامة الناس حظ من هذا الخوف ، ولكن بمجرد التقليد ، فهو يضاهى خوف الصبى من الحية ، تقليداً لأبيه ، فلذلك يضعف ، فإن العقائد التقليدية ضعيفة فى الغالب ، إلا إذا قويت بمشاهدة أسبابها المولدة لها على الدوام ، وبالمواظبة على مقتضاها فى تكثير الطاعات ، واجتناب المعاصى ، فإذا ارتقى العبد إلى معرفة الله ــ تعالى ــ ، خافه بالضرورة ، ولا يحتاج إلى علاج يجلب الخوف إلى قلبه ، بل يخاف بالضرورة .

ومن قصر ، فسبيله أن يعالج نفسه بسماع الأخبار والآثار ، فيطالع أحوال الخائفين وأقوالهم ، وينسب عقولهم ومناصبهم إلى مناصب الراجين المغرورين ، فلا يتارى فى أن الاقتداء بهم أولى ، لأنهم الأنبياء والعلماء والأولياء . وفى « صحيح مسلم » من حديث عائشة ــ رضى الله عنها ــ ، قالت : دعى رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ إلى جنازة غلام من الأنصار . فقلت : يارسول الله ، طوبى لهذا ، عصفور من عصافير الجنة ، لم يدرك الشر و لم يعمله ، قال : « **أو غير ذلك ياعائشة ؟ إن الله ــ عز وجل ــ خلق للجنة أهلاً ، خلقهم لها وهم فى أصلاب آبائهم ، وخلق للنار أهلاً ، خلقهم لها وهم فى أصلاب آبائهم** »[2] . ومن أعجب ما ظاهره الرجاء وهو شديد التخويف ، قوله ــ تعالى ــ : ﴿ **وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَىٰ** ﴾[3] . فإنه علق المغفرة على أربعة شروط ، يبعد تصحيحها .

ومن المخوفات قوله ــ تعالى ــ : ﴿ **وَالْعَصْرِ ۞ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِى خُسْرٍ** ﴾[4] . ثم ذكر

---

(١) آل عمران : ٣٠ .

(٢) رواه الإمام مسلم فى صحيحه كتاب « القدر » رقم [٣١] ، الإمام أحمد فى المسند [٦/٤١ ، ٢٠٨] .

(٣) طه : ٨٢ .

(٤) العصر : ١ ، ٢ .

بعدها أربعة شروط ، بها يقع الخلاص من الخسران . وقال ـــ تعالى ـــ: ﴿ **وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ، وَلَكِن حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِن الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ** ﴾[1] . ومعلوم أنه لو كان الأمر مستأنفاً لامتدت الأطماع فى التحيل ، فأما ما حُقَّ فى القدم ، فلا يمكن تداركه ، فليس إلا التسليم ، لولا أن الله ـــ تعالى ـــ لطف بعارفيه ، وروح قلوبهم بالرجاء ، لاحترقت من نار الخوف . وقال أبو الدرداء ـــ رضى الله عنه ـــ: ما أحد أمن على إيمانه أن يسلبه عند الموت إلا سلبه .

ولما حضرت سفيان الثورى الوفاة ، جعل يبكى ، فقال له رجل : ياأبا عبد الله : أراك كثير الذنوب ، فرفع شيئاً من الأرض وقال : والله لذنوبى أهون عندى من هذا ، ولكن أخاف أن أسلب الإيمان قبل الموت . وكان سهل ـــ رحمه الله تعالى ـــ يقول : المريد يخاف أن يبتلى بالمعاصى ، والعارف يخاف أن يبتلى بالكفر . ويروى أن نبياً من الأنبياء ، شكا إلى الله ـــ تعالى ـــ الجوع والعرى ، فأوحى الله ـــ عز وجل ـــ إليه : « **عبدى ، أما رضيت أن عصمت قلبك أن يكفرنى حتى تسألنى الدنيا ؟! فأخذ التراب فوضعه على رأسه وقال : بلى قد رضيت ، فاعصمنى من الكفر** » .

فإذا كان هذا خوف العارفين من سوء الخاتمة مع رسوخ أقدامهم ، فكيف لا يخاف ذلك الضعفاء ؟! ولسوء الخاتمة أسباب تتقدم على الموت ، مثل البدعة ، والنفاق ، والكبر ، ونحو ذلك من الصفات المذمومة ، ولذلك اشتد خوف السلف من النفاق . قال بعضهم : لو أعلم أنى برىء من النفاق ، كان أحب إلىَّ مما طلعت عليه الشمس ، ولم يريدوا بذلك نفاق العقائد ، إنما أرادوا نفاق الأعمال ، كما ورد فى الحديث الصحيح : « **آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان** »[2] .

وسوء الخاتمة على رتبتين : إحداهما أعظم ، وهى أن يغلب على القلب والعياذ بالله شك ، أو جحود عند سكرات الموت وأهواله ، فيقتضى ذلك العذاب الدائم . والثانية دونها ، وهى أن يسخط الأقدار ، ويتكلم بالاعتراض ، أو يجور فى وصيته ،أو يموت مصراً على ذنب من الذنوب .

وقد روى أن الشيطان لا يكون فى حال أشد على ابن آدم من حال الموت،يقول لأعوانه : دونكم هذا ، فإنه إن فاتكم اليوم لم تلحقوه . وقد روى عن النبى ـــ صلى الله عليه وآله وسلم ـــ، أنه كان يدعو : « **اللّهم إنى أعوذ بك أن يتخبطنى الشيطان عند الموت** » . قال الخطابى : وذلك أن يستولى على الإنسان حينئذ ، فيضله ويحول بينه وبين التوبة أو يمنعه

(١) السجدة : ١٣ .

(٢) رواه أبو داود فى سننه كتاب الصلاة رقم [١٥٥٢] وصححه الحاكم فى المستدرك [٥٣١/١] ووافقه الذهبى .

الخروج من مظلمة ، أو يؤيسه من ـــ رحمة الله ـــ ويكره إليه الموت ، فلا يرضى بقضاء الله ـــ عز وجل ـــ. والأسباب التى تفضى إلى سوء الخاتمة لايمكن انحصارها على التفصيل ، لكن يمكن الإشارة إلى مجامع ذلك ، أما الختم على الشك والجحود ، فسببه البدعة ، ومعناها أن يعتقد فى ذات الله ـــ تعالى ـــ، أو صفاته ، أو أفعاله خلاف الحق ، إما تقليداً ، أو برأيه الفاسد ، فإذا انكشف الغطاء عند الموت ، بان له بطلان ما اعتقده ، فيظن أن جميع ما اعتقده هكذا لا أصل له .

ومن اعتقد فى الله ـــ سبحانه ـــ وصفاته اعتقاداً مجملاً على طريقة السلف من غير بحث ولا تنقير ، فهو بمعزل عن هذا الخطر إن شاء الله ـــ تعالى ـــ. وأما الختم على المعاصى ، فسببه ضعف الإيمان فى الأصل ، وذلك يورث الانهماك فى المعاصى ، والمعاصى مطفئة لنور الإيمان ، وإذا ضعف الإيمان ضعف حب الله ـ تعالى ـ، فإذا جاءت سكرات الموت ، ازداد ذلك ضعفاً ، لاستشعاره فراق الدنيا ، فإن السبب الذى يفضى إلى مثل هذه الخاتمة ، وهو حب الدنيا ، والركون إليها ، مع ضعف الإيمان الموجب لضعف حب الله ، فمن وجد فى قلبه حب الله ـــ تعالى ـــ، أغلب من حب الدنيا ، فهو أبعد من هذا الخطر ، وكل من مات على محبة الله ـــ تعالى ـــ، قدم به قدوم العبد المحسن المشتاق إلى مولاه ، فلا يخفى ما يلقاه من الفرح والسرور بمجرد القدوم ، فضلاً عما يستحقه من الإكرام .

ومن فارقه الروح فى حال ، خطر بباله فيها لإنكار على الله ـــ سبحانه ـــ فى فعله ، أو كان مصراً على مخالفته ، قدم على الله قدوم من قدم به قهراً ، فلا يخفى ما يستحقه من النكال . فمن أراد طريق السلامة ، تزحزح عن أسباب الهلاك ، على أن العلم بتقليب القلوب وتغيير الأحوال ، يقلقل قلوب الخائفين . وقد ورد فى « الصحيحين » من حديث سهل بن سعد ، أن رسول الله ـــ صلى الله عليه وآله وسلم ـــ قال : « **إن الرجل ليعمل بعمل أهل النار ، وإنه لمن أهل الجنة ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة وإنه من أهل النار** »[1] . وروى : « **إن العبد إذا عرج بروحه إلى السماء ، قالت الملائكة : سبحان الله ! نجا هذا العبد من الشيطان : ياويحه ! كيف نجا** »؟![2] وإذا عرفت معنى سوء الخاتمة ، فاحذر أسبابها ، وأعد ما يصلح لها ، وإياك والتسويف بالاستعداد ، فإن العمر قصير ، وكل نفس من أنفاسك بمنزلة خاتمتك ، لأنه يمكن أن تخطف فيه روحك ، والإنسان يموت على ما عاش عليه ، ويحشر على ما مات عليه :

واعلم : أنه لا يتيسر لك الاستعداد بما يصلح ، إلا أن تقنع بما يقيمك ، وترفض طلب

---

(١) رواه البخارى فى كتاب « الرقاق » باب « الأعمال بالخواتيم » رقم [٦٤٩٣] ، ومسلم فى « القدر » رقم ١ ، ١٢ ، وفى « الإيمان » رقم [١٧٩] .

(٢) ذكره صاحب الإحياء [١٧٥/٤] وجعله من قول حامد اللفاف ولم يرفعه .

الفضول وسنورد عليك من أخبار الخائفين ما نرجو أن يزيل بعض القساوة من قلبك ، فإنك متحقق أن الأنبياء والأولياء كانوا أعقل منك ، فتفكر فى اشتداد خوفهم ، لعلك تستعد لنفسك .

● ذكر خوف الملائكة عليهم السلام

قال الله ــ تعالى ــ فى صفتهم : ﴿ **يَخَافُونَ رَبَّهُم من فَوقهم وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** ﴾[1] . وقد روينا عن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ أنه قال : « **إن لله ملائكة ترعد فرائصهم من مخافته** »[2] . وذكر تمام الحديث . وبلغنا أن من حملة العرش من تسيل عينيه مثل الأنهار ، فإذا رفع رأسه قال : سبحانك ما تُخشى حق خشيتك ، فيقول الله : لكن الذين يحلفون باسمى كاذبين لا يعلمون ذلك . وعن جابر ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « **لما كان ليلة أسرى بى ، رأيت جبريل ــ عليه السلام ــ كالشن**[*] **البالى من خشية الله ــ تعالى ــ** » .

وبلغنا أن جبريل ــ عليه السلام ــ جاء إلى النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ وهو يبكى فقال له : « **ما يبكيك ، قال : ما جفت لى عين منذ خلق الله جهنم مخافة أن أعصيه ، فيلقينى فيها** » . وعن يزيد الرقاشى[3] قال : إن لله ــ تعالى ــ ملائكة حول العرش تجرى أعينهم مثل الأنهار إلى يوم القيامة ، يميدون كأنما تنفضهم الريح من خشية الله ــ تعالى ــ، فيقول لهم الرب ــ عز وجل ــ: **ياملائكتى ما الذى يخيفكم وأنتم عندى ؟** فيقولون : يارب ! لو أن أهل الأرض اطلعوا من عزتك وعظمتك على ما اطلعنا عليه ، ما أساغوا طعاماً ولا شراباً ، ولا انبسطوا فى فرشهم ، ولخرجوا إلى الصحارى يخورون كما تخور البقر . وقال محمد بن المنكدر : لما خلقت النار ، طارت أفئدة الملائكة من أماكنها ، فلما خلق آدم عادت . وروى أنه لما ظهر من إبليس ما ظهر ، طفق جبريل وميكائيل يبكيان ، فأوحى الله ــ تعالى ــ إليهما : « **ما هذا البكاء ؟** قالا : يارب ؟ ما نأمن من مكرك . فقال ــ تعالى ــ: **هكذا فكونا** » .

● ذكر خوف الأنبياء ـ عليهم السلام ـ

قال وهب : بكى آدم ــ عليه السلام ــ على الجنة ثلاثمائة عام ، وما رفع رأسه إلى

(١) النحل : ٥٠ .

(٢) الحديث ذكره السيوطى فى جمع الجوامع [١/٢٦٠] بتمامه ، وعزاه لأبى الشيخ فى العظمة والبيهقى فى شعب الإيمان والخطيب فى تاريخه وابن عساكر عن رجل من الصحابة . وكما ترى فإسناده ضعيف لجهالة الراوى ، والله أعلم .

(*) الشّن والشّنّة : القربة الخلق .

(٣) يزيد بن أبان الرقاشى : متروك الحديث [الميزان ٤/٤١٨ ، الكبير ٨/٣٢٠ ، الضعفاء والمتروكين للنسائى رقم ٦٤٢] .

السماء بعد ما أصاب الخطيئة . وقال وهيب بن الورد : لما عاتب الله ــ تعالى ــ نوحاً ــ عليه السلام ــ فى ابنه فقال : ﴿ إِنِّى أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾[1] . بكى ثلاثمائة عام حتى صار تحت عينيه أمثال الجداول من البكاء . وقال أبو الدرداء ــ رضى الله عنه ــ: كان يسمع لصدر إبراهيم ــ عليه السلام ــ إذا قام إلى الصلاة أزيز من بُعد خوفاً من الله ــ عزَّ وجل ــ.

وقال مجاهد : لما أصاب داود ــ عليه السلام ــ الخطيئة ، خر لله ساجداً أربعين يوماً حتى نبت من دموع عينيه من البقل ما غطى رأسه ، ثم نادى يارب : قرح الجبين ، وجمدت العين ، وداود لم يرجع إليه فى خطيئته شيء ، فنودى : أجائع أنت فتطعم ؟ أم مريض فتشفى ؟ أم مظلوم فتنصر ، فنحب نحيباً هاج كل شيء نبت ، فعند ذلك غفر له . وقيل : كان دواد ــ عليه السلام ــ يعوده الناس يظنون أنه مريض ، وما به إلا شدة الفرق من الله ــ عز وجل ــ. وكان عيسى ــ عليه السلام ــ إذا ذكر الموت يقطر جلده دماً . وبكى يحيى بن زكريا ــ عليهما السلام ــ حتى بدت أضراسه ، فاتخذت أمه قطعتين من لبود فألصقتهما بخديه .

● ذكر خوف نبينا ـصلى الله عليه وآله وسلمـ

عن عائشة ــ رضى الله عنها ــ قالت : ما رأيت رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ قطُّ مستجمعاً ضاحكاً ، حتى أرى لهواته[*] إنما كان يبتسم ، وكان إذا رأى غيماً وريحاً عرف ذلك فى وجهه ، فقلت : يارسول الله : الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر ، وأراك إذا رأيته عُرِفَتِ الكراهةُ فى وجهك ! فقال : « **ياعائشة : ما يؤمننى أن يكون فيه عذاب ؟ قد عذب قوم بالريح ، وقد رأى قوم العذاب فقالوا : هذا عارض ممطرنا** » أخرجاه فى « الصحيحين »[2] . وكان ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ يصلى ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء[3] .

● ذكر خوف اصحابه ـرضى الله عنهمـ

روينا عن أبى بكر الصديق ــ رضى الله عنه ــ أنه كان يمسك لسانه ويقول : هذا الذى أوردنى الموارد . وقال : ياليتنى كنت شجرة تُعْضد[**] ثم تؤكل . وكذلك قال طلحة وأبو الدرداء وأبو ذر ــ رضى الله عنهم ــ. وكان عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ يسمع آية فيمرض فيعاد أياماً . وأخذ يوماً تبنة من الأرض فقال : ياليتنى كنت هذه

(١) هود : ٤٦ (*) اللَّهَاة : قطعة من اللحم فى أقصى سقف الفم ، والجمع اللَّها واللَّهَوات واللَّهَيات .
(٢) رواه البخارى فى التفسير ــ تفسير سورة الأحقاف ، مسلم فى « الاستسقاء » رقم [١٥ ، ١٦] .
(٣) المسند [٤/٢٥ ، ٢٦] ، ابن ماجه فى « المقدمة » باب [٣] رقم [٢٨] .
(**) تُقطَع .

التبنة ، ياليتنى لم أكُ شيئاً مذكوراً ، ياليت أمى لم تلدنى . وكان فى وجهه خطان أسودان من البكاء . وقال عثمان ــ رضى الله عنه ــ: وددت أنى إذا مت لا أبعث . وقال أبو عبيدة ابن الجراح ــ رضى الله عنه ــ: وددت أنى كنت كبشاً فذبحنى أهلى ، فأكلوا لحمى ، وحسوا مرقى . وقال عمران بن حصين : ياليتنى كنت رماداً تذروه الرياح .

وقال حذيفة ــ رضى الله عنه ــ: وددت أن لى إنساناً يكون فى مالى ، ثم أغلق علىَّ بابى ، فلا يدخل علىَّ أحد حتى ألحق بالله ــ عز وجل ــ. وكان مجرى الدمع فى خد ابن عباس ــ رضى الله عنه ــ كالشراك البالى . وقالت عائشة ــ رضى الله عنها ــ: ياليتنى كنت نسياً منسياً .

وقال على ــ رضى الله عنه ــ: والله لقد رأيت أصحاب محمد ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ، فما أرى اليوم شيئاً يشبههم ، لقد كانوا يصبحون شعثاً غبراً ، بين أعينهم أمثال ركب المعزى ، قد باتوا لله سجداً وقياماً ، يتلون كتاب الله ــ تعالى ــ، يراوحون بين جباهم وأقدامهم ، فإذا أصبحوا فذكروا الله ــ عز وجل ــ، مادوا كما يميد الشجر فى يوم الريح ، وهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم ، والله لكأن القوم باتوا غافلين .

● ذكر خوف التابعين ومن بعدهم

قال هرم بن حيان : وددت والله أنى شجرة أكلتنى ناقة ، ثم قذفتنى بعراً ، ولم أكابد الحساب يوم القيامة ، إنى أخاف الداهية الكبرى . وكان على بن الحسين إذا توضأ اصفرَّ وتغير ، فيقال : مالك ؟ فيقول : أتدرون بين يدى من أريد أن أقوم ؟ وكان محمد بن واسع يبكى عامة الليل لا يكاد يفتر . وكان عمر بن عبد العزيز إذا ذكر الموت انتفض انتفاض الطير ، ويبكى حتى تجرى دموعه على لحيته ، وبكى ليلة فبكى أهل الدار ، فلما تجلت عنهم العبرة قالت فاطمة : بأبى أنت ياأمير المؤمنين مم بكيت ؟ قال : ذكرت منصرف القوم من بين يدى الله ــ تعالى ــ، فريق فى الجنة ، وفريق فى السعير . ثم صرخ وغشى عليه .

ولما أراد المنصور بيت المقدس ، نزل براهب كان ينزل به عمر بن عبد العزيز فقال له : أخبرنى بأعجب ما رأيت من عمر . فقال : بات ليلة على سطح غرفتى هذه وهو من رخام ، فإذا أنا بماء يقطر من الميزاب ، فصعدت فإذا هو ساجد ، وإذا دموع عينه تنحدر من الميزاب . وقد روينا عن عمر بن عبد العزيز وفتح الموصلى أنهما بكيا الدم . وقال إبراهيم بن عيسى اليشكرى : دخلت على رجل بالبحرين قد اعتزل الناس ، وتفرغ لنفسه ، فذاكرته شيئاً من أمر الآخرة ، وذكر الموت . قال : فجعل يشهق حتى خرجت نفسه . وقال مسمع : شهدت عبد الواحد بن زيد وهو يعظ ، فمات يومئذ فى ذلك المجلس أربعة أنفس . وكان يزيد بن مرشد يبكى كثيراً ويقول : والله لو تواعدنى ربى

أن يسجننى فى الحمام ، لكان حقى أن لا أفتر من البكاء ، فكيف وقد تواعدنى أن يسجننى فى النار إن عصيته ؟! وقال السرى السقطى : إنى لأنظر كل يوم إلى أنفى مخافة أن يكون قد اسود وجهى . فهذه مخاوف الملائكة والأنبياء والعلماء والأولياء ، ونحن أجدر بالخوف منهم ، ولكن ليس الخوف بكثرة الذنوب ولكن بصفاء القلوب وكمال المعرفة ، وإنما أمنا لغلبة جهلنا وقوة قساوتنا ، فالقلب الصافى تحركه أدنى مخافة ، والقلب الجامد تنبو عنه كل المواعظ .

قال بعض السلف : قلت لراهب : أوصنى ، فقال : إن استطعت أن تكون بمنزلة رجل قد احتوشته(*) السباع والهوام ، فهو خائف حذر يخاف أن يغفل فيفترسنه ، أو يسهو فينهشنه ، فهو مذعور فافعل . قلت : زدنى . فقال : الظمآن يجزيه من الماء أيسره . وما ذكره هذا الراهب من تقدير شخص احتوشته السباع والهوام ، فهو حقيقة فى حق المؤمن ، فإن من نظر إلى باطنه بنور بصيرته ، رآه مشحوناً بالسباع والهوام ، كالغضب ، والحقد ، والحسد ، والكبر ، والعجب ، والرياء ، وغير ذلك ، وكلهن ينهشنه ويفترسنه إن سها عنهن ، إلا أنه محجوب عن مشاهدتها ، فإذا انكشف الغطاء ووضع فى القبر ، عاينها متمثلة حيات وعقارب يلدغنه ، وإنما هى صفاته الحاضرة الآن ، فمن أراد أن يقهرها قبل الموت ويقتلها فليفعل ، وإلا فليوطن نفسه على لدغها لصميم قلبه ، فضلاً عن ظاهر بشرته والسلام . آخر كتاب الخوف ..

● كتاب الزهد والفقر

اعلم : أن حب الدنيا رأس كل خطيئة ، وبغضها أسباب كل طاعة ، وقد سبق ذم الدنيا فى ربع المهلكات ، ونحن نذكر الآن فضل البغض لها والزهد فيها ، فإنه رأس المنجيات . ومقاطعتها إما أن تكون بانزوائها عن العبد ويسمى ذلك فقراً ، وإما بانزواء العبد عنها ، ويسمى ذلك زهداً ،ولكل واحد منهما درجة فى نيل السعادات ، وحظ فى الإعانة على الفوز والنجاة . ونحن نذكر الفقر ، والزهد ،ودرجاتهما ، وأقسامهما ، وما يتعلق بهما فى شطرين :

○ الشطر الأول من الكتاب فى الفقر :

اعلم : أن الفقير إلى الشىء هو المحتاج إليه ، وكل موجود سوى الله ــ تعالى ــ فهو فقير ، لأنه محتاج إلى دوام الوجود ، وذلك مستفاد من فضل الله ــ تعالى ــ.

أحوال الفقر : وأما فقر العبد بالإضافة إلى أصناف حاجاته فلا يحصر ، ومن جملة حاجاته ما يتوصل إليه بالمال ، ثم يتصور أن يكون له خمسة أحوال عند فقره : **الأولى** : أن يكون بحيث لو أتاه المال لكرهه وتأذى به ، وهرب من أخذه بغضاً له ، واحترازاً من شره وشغله ،

(*) احتوشوه : أحاطوا به وجعلوه بينهم .

وصاحب هذه الحالة يسمى زاهداً . **الحالة الثانية** : أن يكون بحيث لا يرغب فيه رغبة يفرح بحصوله ، ولا يكرهه كراهة يتأذى بها ، وصاحب هذه الحالة يسمى راضياً .

الثالثة : أن يكون وجود المال أحب إليه من عدمه لرغبة له فيه ، ولكن لم يبلغ من رغبته أن ينهض لطلبه ، بل إن أتاه عفواً أو صفواً أخذه وفرح به ، وإن افتقر إلى تعب فى طلبه لم يشتغل به . وصاحب هذه الحالة يسمى قانعاً . **الرابعة** : أن يكون تركه للطلب لعجزه ، وإلا فهو راغب فيه ، لو وجد سبيلاً إلى طلبه بالتعب لطلبه ، وصاحب هذه الحالة يسمى الحريص . **الخامسة** : أن يكون مضطراً إلى ما قصده من المال ، كالجائع ، والعارى الفاقد للمأكول والملبوس ، ويسمى صاحب هذه الحالة مضطراً ، كيفما كانت رغبته فى الطلب ضعيفة أو قوية .

وأعلى هذه الخمس : الحالة الأولى، وهى : الزهد ، ووراءها حالة أخرى أعلى منها ، وهى أن يستوى عنده وجود المال وعدمه ، فإن وجده لم يفرح به ، ولم يتأذ إن فقده ، كما روينا عن عائشة ــ رضى الله عنها ــ أنها جاءها مال فى غرارتين ، ففرقته فى يومها ، فقالت لها جاريتها : أما استطعت أن تشترى لنا مما قسمت لحماً بدرهم نفطر عليه ؟ فقالت : لو ذكرتينى لفعلت . فمن هذه حاله لو كانت الدنيا بحذافيرها فى يده لم تضره ، إذ هو يرى الأموال فى خزانة الله ــ تعالى ــ، لا فى يد نفسه .

وينبغى أن يسمى صاحب هذه الحالة المستغنى ، لأنه غنى عن فقد المال ووجوده جميعاً ، ومتى كان الزاهد فى الدنيا لا يرغب فى وجودها ، ولا عدمها ، فهو فى غاية الكمال . قال أحمد بن أبى الحوارى لأبى سليمان الدارانى : قال مالك بن دينار للمغيرة : اذهب إلى البيت فخذ الزكاة التى أهديتها لى ، فإن الشيطان يوسوس لى أن اللص قد أخذها ، فقال أبو سليمان : هذا من ضعف الزهد ، هو قد زهد فى الدنيا ما عليه من أخذها ، فالهرب من المال والزهد فيه فى حق الضعفاء كمال ، فأما فى حق الأنبياء والأقوياء ، فسواء عليهم وجوده وعدمه . وقد يظهر القوى النفار من المال ليقتدى به الضعفاء فى الترك ، والله أعلم .

● فصل فى فضيلة الفقر وتفضيل الفقر على الغنى

أما الآيات فقد قال الله ــ تعالى ــ فى معرض المدح فى حق الفقراء : ﴿ **لِلْفُقَرَآءِ الَّذِينَ أُحصِرُوا فى سَبِيلِ اللهِ** ﴾[1] الآية . وقال : ﴿ **لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا من دِيارِهِم** ﴾[2] .. الآية . وأما الأخبار فكثيرة ، منها : قوله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « **قمت على باب الجنة فإذا عامة من يدخلها الفقراء ، إلا أن أصحاب الجد محبوسون** » وذكر تمام الحديث . وهو فى « الصحيحين »[3] .

(١) البقرة : ٢٧٣ . (٢) الحشر : ٨

(٣) رواه البخارى فى « الرقاق » باب « صفة الجنة والنار » رقم [٦٥٤٧] ، الإمام أحمد فى المسند [٢٠٥/٥ =

وفيهما من حديث أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ قال : « **اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً** »[1] . وفيهما من حديث عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام البر ثلاث ليال تباعاً حتى قُبض[2] . وفى أفراد مسلم من حديث عمر ـ رضى الله عنه ـ قال : لقد رأيت رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يظل اليوم يلتوى ما يجد دقلا يملأ بطنه[3] . وروى أبو هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ قال : « **يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام** »وقال الترمذى : حديث صحيح[4] . وقال ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لعائشة ـ رضى الله عنها ـ : « **إياك ومجالسة الأغنياء** »[5] . وقال : « **يؤتى بالعبد يوم القيامة فيعتذر الله ـ عز وجل ـ إليه كما يعتذر الرجل إلى الرجل فى الدنيا ، فيقول : وعزتى وجلالى ما زويت الدنيا عنك هوانك علىّ ، ولكن لما أعددت لك من الكرامة . اخرج ياعبدى إلى هذه الصفوف ، فمن أطعمك أو كساك يريد بذلك وجهى ، فخذ بيده فهو لك** »[6] .

وقيل لموسى ـ عليه السلام ـ : إذا رأيت الفقر مقبلاً ، فقل : مرحباً بشعار الصالحين ، وإذا رأيت الغنى مقبلاً فقل : ذنب عجلت عقوبته . وقال أبو الدرداء : حساب ذى الدرهمين أشد حساباً من ذى الدرهم . وكان الفقراء يتقدمون فى مجلس [سفيان] الثورى على الأغنياء . وجاء رجل إلى إبراهيم بن أدهم بعشرة آلاف درهم فلم يقبلها ، وقال : تريد أن تمحوا اسمى من ديوان الفقراء ؟! لا أفعل . وقال النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « **طوبى لمن هدى إلى الإسلام وكان عيشه كفافاً ، وقنع بما آتاه الله ـ عز وجل ـ** »[7] . وقد ذكرنا فى القناعة وذم الحرص والطمع فى كتاب ذم المال ما يغنى عن الإعادة ، ولا يقدر على ذلك إلا بعد قوة الصبر .

وأما التفضيل بين الغنى والفقير ، فظاهر النقل يدل على تفضيل الفقير ، ولكن لابد من تفصيل ، فنقول : إنما يتصور الشك والخلاف فى فقير صابر ليس بحريص بالإضافة إلى غنى

= ٢١٠] ، مسلم فى « الذكر » رقم [٩٣] .

(١) رواه البخارى فى كتاب « الرقاق » باب « كيف كان عيش النبى » برقم [٦٤٦٠] ، مسلم فى « الزهد » رقم [١٨ ، ١٩] .

(٢) البخارى فى كتاب « الرقاق » باب « كيف كان عيش النبى » رقم [٦٤٥٤] ، مسلم فى « الزهد » رقم [٢١] .

(٣) رواه مسلم فى « الزهد » رقم ٣٤ ، ٣٦ ، أحمد فى المسند [٢٤/١] ، [٢٦٨/٤] .

(٤) المسند [٢٢٤/٣] ، ورواه الترمذى فى صحيحه كتاب « الزهد » باب « فضل الفقر » وقال حديث حسن غريب .

(٥) أخرجه الترمذى فى كتاب « اللباس » باب « ما جاء فى ترقيع الثوب » ثم قال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث صالح بن حسان وقال : سمعت محمداً يقول صالح منكر الحديث .

(٦) عزاه العراقى فى تخريج الإحياء [١٩٢/٤] لأبى الشيخ فى الثواب من حديث أنس بسند ضعيف .

(٧) رواه الحاكم فى المستدرك [٣٥/١] ، وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ، ووافقه الذهبى .

شاكر ينفق ماله فى الخيرات ، أو فقير حريص مع غنى حريص ، إذ لا يخفى أن الفقير القانع أفضل من الغنى الحريص الممسك ، وأن الغنى المنفق ماله فى الخير أفضل من الفقير الحريص ، فإن كان متمتعاً بالمال فى المباحات ، فالفقير القنوع أفضل منه . وكشف الغطاء فى هذا أن ما يراد لغيره ، ولا يراد لعينه ، ينبغى أن يضاف إلى مقصوده ، إذ به يظهر فضله ، والدنيا ليست محذورة لعينها ، بل لكونها عائقة عن الوصول إلى الله ــ تعالى ــ، والفقر ليس مطلوباً لعينه ، ولكن لأن فيه فقد العائق عن الله ــ تعالى ــ، وعدم التشاغل عنه .

وكم من غنى لا يشغله الغنى عن الله ــ تعالى ــ، كسليمان ــ عليه السلام ــ، وكذلك عثمان وعبد الرحمن بن عوف ــ رضى الله عنهما ــ. وكم من فقير شغله فقره عن المقصود ، وصرفه عن حب الله ــ تعالى ــ والأنس به ، وإنما الشاغل له حب الدنيا ، إذ لايجتمع معه حب الله ــ تعالى ، فإن المحب للشىء مشغول به ، سواء كان فى فراقه ، أو فى وصاله ، بل قد يكون شغله فى الفراق أكثر . والدنيا معشوقة الغافلين ، فالمحروم منها مشغول بطلبها ، والقادر عليها مشغول بحفظها والتمتع بها . وإن أخذت الأمر باعتبار الأكثر ، فالفقير عن الخطر أبعد ، لأن فتنة السراء أشد من فتنة الضراء ، ومن العصمة أن لا تجد ، ولما كان ذلك طبع الآدميين إلا القليل منهم ، جاء الشرع بذم الغنى وفضل الفقر ، وقد تقدم ما يدل على فضله . ومن ذلك ما روى عن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « **التقى مؤمنان على باب الجنة : مؤمن غنى ، ومؤمن فقير ، كانا فى الدنيا ، فأدخل الفقير الجنة ، وحبس الغنى ما شاء الله ــ تعالى ــ أن يحبس ، ثم أدخل الجنة ، فلقيه الفقير ، فقال : أى أخى : ماذا حبسك ؟ والله لقد احتبست حتى خفت عليك ، فقال : أى أخى : حبست بعدك محبساً فظيعاً كريباً ، وما وصلت إليك حتى سال منى العرق ما لو ورده ألف بعير كلها آكلة حمض ، لصدرت عنه رواءً** »[1] .

واعلم : أن فراق المحبوب شديد ، فإذا أحببت الدنيا ، كرهت لقاء الله ــ تعالى ــ، فيكون قدومك بالموت على ما تكرهه ، وفراقك لما تحبه ، وكل من فارق محبوباً كان أذاه فى فراقه بقدر حبه له وأنسه به ، فينبغى أن تحب من لا يفارقك ، وهو الله ــ تعالى ــ، ولا تحب الدنيا التى تفارقك .

● فصل فى آداب الفقير فى فقره

ينبغى له أن لا يكون كارهاً لما ابتلاه الله به من الفقر . وأرفع من هذا أن يكون راضياً فرحاً ، ويكون متوكلاً على الله ــ سبحانه ــ، واثقاً به ومتى عكس الحال ، وكان يشكو

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده [٣٠٤/١] وفى سنده جهالة أحد الرواة .

إلى الخلق ، ولا يشكو إلى الله ــ تعالى ــ، كان الفقر عقوبة فى حقه ، فلا ينبغى له إظهار الشكوى ، بل يظهر التعفف والتجمل . قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ **يَحْسَبُهُمُ الجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ** ﴾[1] . وينبغى للفقير أن لا يتواضع لغنى لأجل غناه ، ولا يرغب فى مجالسته . وينبغى له أيضاً أن لا يفتر عن العبادة بسبب فقره ، ولا يمنع بذل ما فضل عنه ، فإن ذلك جهد المقل . روى أبو ذر ــ رضى الله عنه ــ قال : قلت : يارسول الله : أى الصدقة أفضل ؟ قال : « **جهد من مقل إلى فقير فى السر** »[2] .

● بيان آدابه فى قبول العطاء

إذا جاءه بغير سؤال ينبغى أن يلاحظ فيما جاءه ثلاثة أمور : نفس المال ، وغرض المعطى ، وغرضه فى الأخذ .

● [***الأول***] أما فى نفس المال ، فينبغى أن يكون خالياً عن الشبهات كلها ، فإن كان فيه شبهة فليحترز عن أخذه . وقد تقدم فى كتاب الحلال والحرام درجات الشبهة ، وما يجب اجتنابه ، وما يستحب . وأما غرض المعطى ، فلا يخلو ، إما أن يكون طلباً للمحبة ، وهو الهدية ، فلا بأس بقبولها إذا لم تكن رشوة ولم يكن فيها منة .

● ***الثانى*** : أن يكون غرض المعطى الثواب ، وهو الزكاة والصدقة ، فعليه أن ينظر فى صفات نفسه ، هل هو مستحق أم لا ؟ فإن اشتبه عليه فهو محل شبهة ، وإن كان صدقة ، فكان المعطى إنما يعطيه لدينه ، فلينظر إلى باطنه ، فإن كان مقارناً لمعصية فى السر ، يعلم أن المعطى لو علم بذلك ، لنفر طبعه ولما تقرب إلى الله بالصدقة عليه ، لم يأخذه كما لو أعطاه لظنه أنه عالم فلم يكن .

● ***الثالث*** : أن يكون غرض المعطى الشهرة والرياء والسمعة ، فينبغى أن يرد عليه قصده الفاسد ، ولا يأخذه ، لأنه إذا قبله يكون معيناً له على قصده الفاسد . وأما غرضه فى الأخذ ، فلينظر أهو محتاج إليه أو مستغن عنه ؟ فإن كان مستغنياً لم يأخذه ، وإن كان محتاجاً إليه ، وقد سلم من الشبهة والآفات التى ذكرناها ، فالأفضل له الأخذ ، لما روى عن عمر ــ رضى الله عنه ــ، أن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ قال : « **ما جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل ، فخذه ، ومالا فلا تتبعه نفسك** » أخرجاه فى « الصحيحين »[3] . وفى حديث آخر : « **من جاءه من أخيه معروف من غير إشراف ولا مسألة ، فليقبله ولا يرده ، فإنما هو رزق ساقه الله إليه** » .

---

(١) البقرة : ٢٧٣ . (٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند [١٧٨/٥] وفيه على بن يزيد الألهانى (ضعيف) .

(٣) رواه البخارى فى الأحكام باب رزق الحاكم والعاملين عليها رقم [٧١٦٣] ، ومسلم فى « الزكاة » رقم [١١٠ ، ١١١] ، الإمام أحمد فى المسند [١٧/١ ، ٢١] ــ [٩٩/٢] .

(٤) فى كنز العمال [ج١٦٥٦١/٦] عزاه لابن أبى شيبة وابن سعد وأبى يعلى والبغوى وابن حبان والبيهقى =

● فصل فى بيان تحريم السؤال من غير ضرورة وآداب الفقير المضطر فى السؤال

اعلم : أنه قد ورد فى السؤال أحاديث فى النهى عنه ، وفى الترخيص فيه . أما الترخيص ، فكقوله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « **للسائل حق وإن جاء على فرس** »[1] : وفى بعض الأحاديث : « **ردوا السائل ولو بظلف محرق** »[2] . ولو كان السؤال حراماً ، لما جاز إعانة المعتدى على عدوانه ، والإعطاء إعانة . وأما أحاديث النهى عن السؤال : فروى ابن عمر ــ رضى الله عنهما ــ قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « **لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله ــ عز وجل ــ وليس فى وجهه مزعة لحم** » أخرجاه فى « الصحيحين »[3] . وفيهما أيضاً : أنه ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ ذكر التعفف عن المسألة فقال : « **اليد العليا خير من اليد السفلى** »[4] . واليد العليا المعطية ، والسفلى السائلة . وفى حديث ابن مسعود ــ رضى الله عنه ــ: أنه ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ قال : « **من سأل وله ما يغنيه ، جاءت مسألته يوم القيامة خدوشاً أو كدوحاً فى وجهه** »[5] . إلى آخره . وهو حديث حسن ، وفى المعنى أحاديث كثيرة . وكشف الغطاء فى هذا أن نقول : السؤال فى الأصل حرام ، لأنه لا ينفك عن ثلاثة أمور : **أحدها** : الشكوى . **والثانى** : إذلال نفسه ، وما ينبغى للمؤمن أن يذل نفسه . **والثالث** : إيذاء المسئول غالباً .

وإنما يباح السؤال فى حال الضرورة والحاجة المهمة القريبة من الضرورة . أما المضطر ، فهو كسؤال الجائع عند خوفه على نفسه موتاً أو مرضاً ، وكسؤال العارى الذى ليس له ما يواريه . وأما المحتاج حاجة مهمة فهو كمن له جبة ولا قميص تحتها فى الشتاء ، فهو يتأذى بالبرد تأذياً لا ينتهى إلى حد الضرورة ، فكذلك من يقدر على المشى لكن بمشقة ، يجوز له أن يسأل أجرة يكترى بها للركوب ، وتركه أولى . ومن وجد الخبز وهو محتاج إلى الأدم ، فله أن يسأل مع الكراهة ، وكذلك إذا سأل المحمل من هو قادر على الراحلة .

وينبغى فى مثل هذه المسألة أن يظهر الشكر لله ــ تعالى ــ ولا يسأل سؤال محتاج ،

= فى الشعب وأبى نعيم عن خالد بن عدى الجهنى ، قال البغوى : لا أعلم له غيره .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده [٢٠١/١] بسند جيد كما قال العراقى .

(٢) الحديث فى المسند [٧٠/٤] ، [٤٣٥/٦] .

(٣) رواه البخارى فى كتاب « الزكاة » باب « من سأل الناس تكثرا » رقم [١٤٧٤] ، الإمام أحمد فى المسند [١٥/٢ ، ٨٨] .

(٤) رواه البخارى فى « الرقاق » باب « قول النبى هذا المال خضرة حلوة » رقم [٦٤٤١] ، مسلم فى الزكاة رقم [٩٤ ــ ٩٧] .

(٥) رواه الإمام أحمد فى المسند [٣٨٨/١ ، ٤٤١] ، وابن ماجه فى « الزكاة » باب من « سأل عن ظهر غنى » رقم [١٨٤٠] .

بل يقول : أنا مستغن بما أملكه ، وإنما النفس تطالبنى ، فيخرج بهذا عن حد الشكوى لله ــ تعالى ــ. وينبغى أن يسأل أباه أو قريبه أو صديقه الذى لا ينقص بذلك فى عينه ، أو السخى الذى أعد ماله للمكارم ، فيخرج بذلك من الذل . وإن أخذ ممن يعلم أنه إنما أعطاه حياءً ، لم يجز له الأخذ ، ويجب رده إلى صاحبه . ولا يجوز للفقير أن يسأل إلا مقدار ما يحتاج إليه ، من بيت يكنه ، وثوب يستره ، وطعام يقيمه . ويراعى فى هذه الأشياء ما يدفع الزمان من غير تَنَوُّق[1] فى شىء من ذلك ، فإن كان يعلم أنه يجد من يسأله كل يوم ، لم يجز أن يسأل أكثر من قوت يومه وليلته ، وإن خاف أن لا يجد من يعطيه ، أو خاف أن يعجز عن السؤال ، أبيح له السؤال أكثر من ذلك . ولا يجوز له فى الجملة أن يسأل فوق ما يكفيه لسنته ، وعلى هذا يتنزل الحديث المروى فى تقدير الغنى بخمسين درهماً ، فإنها تكفى المنفرد المقتصد لسنة ، فأما ذو العائلة فلا .

● بيان أحوال السائلين

كان بشر الحافى يقول : الفقراء ثلاثة : فقير لا يسأل ، وإن أعطى لا يأخذ ، فهذا من الروحانيين . وفقير لا يسأل ، وإن أعطى أخذ ، فذاك من أهل حظيرة القدس . وفقير إذا احتاج سأل ، فكفارة مسألته صدقة فى السؤال .

قال الشيخ جمال الدين ــ رحمه الله ــ: قلت : وفصل الخطاب أنه متى قدر الفقير على دفع الزمان من غير سؤال ، لم يجز له أن يسأل ، فإن كان يندفع على مضض ، نظرت ، فإن كان مثله لا يحتمل ، ولا يخاف منه التلف ، فالسؤال مباح وتركه فضيلة ، وإن كان مثله لا يحتمل ، وجب عليه أن يسأل . قال سفيان الثورى ــ رحمه الله ــ: من جاع فلم يسأل حتى مات دخل النار .

الشطر الثانى من الكتاب :

● وفيه بيان حقيقة الزهد وفضيلته وذكر درجاته واقسامه ونحو ذلك

اعلم : أن الزهد فى الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين ، والزهد عبارة عن انصراف الرغبة عن الشىء إلى ما هو خير منه ، وشرط المرغوب عنه أن يكون مرغوباً فيه بوجه من الوجوه ، فمن رغب عن شىء ليس مرغوباً فيه ولا مطلوباً فى نفسه ، لم يسم زاهداً ، كمن ترك التراب لا يسمى زاهداً . وقد جرت العادة بتخصيص اسم الزاهد بمن ترك الدنيا ، ومن زهد فى كل شىء سوى الله ــ تعالى ــ، فهو الزاهد الكامل ، ومن زهد فى الدنيا مع رغبته فى الجنة ونعيمها ، فهو أيضاً زاهد ، ولكنه دون الأول .

---

(١) تنوق فى الأمر : تأنق فيه .

واعلم : أنه ليس من الزهد ترك المال ، وبذله على سبيل السخاء والقوة، واستمالة القلوب ، وإنما الزهد أن يترك الدنيا للعلم بحقارتها بالنسبة إلى نفاسة الآخرة . ومن عرف أن الدنيا كالثلج يذوب ، والآخرة كالدر يبقى ، قويت رغبته فى بيع هذه بهذه . وقد دل على ذلك قوله ــ تعالى ــ: ﴿ **قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى** ﴾[1] . وقوله : ﴿ **مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ** ﴾[2] . ومن فضيلة الزهد قوله ــ تعالى ــ: ﴿ **وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ** ﴾[3] .

وقال النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « **من أصبح وهمه الدنيا ، شتت الله عليه أمره ، وفرق عليه ضيعته ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له ، ومن أصبح وهمه الآخرة ، جمع الله له همه ، وحفظ عليه ضيعته ، وجعل غناه فى قلبه ، وأتته الدنيا وهي راغمة** »[4] . وقال الحسن : يحشر الناس عراةً ما خلا أهل الزهد ، وقال : إن أقواماً أكرموا الدنيا فصلبتهم على الخشب ، فأهينوها ، فأهنأ ما تكون إذا أهنتموها . وقال الفضيل : جعل الشر كله فى بيت ، وجعل مفتاحه حب الدنيا ، وجعل الخير كله فى بيت ، وجعل مفتاحه الزهد فى الدنيا . وكان بعض السلف يقول : الزهد فى الدنيا يريح القلب والبدن ، والرغبة فيها تكثر الهم والحزن .

● فصل فى درجات الزهد وأقسامه

© درجات الزهد :

أحدها : من الناس من يزهد فى الدنيا وهو لها مشتهٍ ، لكنه يجاهد نفسه ، وهذا يسمى : المتزهد ،وهو مبدأ الزهد . **الدرجة الثانية** : أن يزهد فيها طوعاً لا يكلف نفسه ذلك ، لكنه يرى زهده ويلتفت إليه ، فيكاد يعجب بنفسه ، ويرى أنه قد ترك شيئاً له قدر لما هو أعظم قدراً منه ، كما يترك درهماً لأخذ درهمين ، وهذا أيضاً نقصان . **الدرجة الثالثة** : وهى العليا أن يزهد طوعاً ، ويزهد فى زهده ، فلا يرى أنه ترك شيئاً ، لأنه عرف أن الدنيا ليست بشيء ، فيكون كمن ترك خرقة ، وأخذ جوهرة فلا يرى ذلك معاوضة ، فإن الدنيا بالإضافة إلى نعيم الآخرة ، أحسن من خرقة بالإضافة إلى جوهرة ، فهذا هو الكمال فى الزهد .

واعلم : أن مثل من ترك الدنيا ، مثل من منعه عن باب الملك كلب على بابه ، فألقى إليه لقمة من خبز فشغله بذلك ودخل ، فقرب من الملك ، أفتراه يرى لنفسه يداً عند الملك بلقمة ألقاها إلى كلبه فى مقابلة ما قد ناله ؟ فالشيطان كلب فى باب الله ــ عز وجل ــ، ويمنع الناس من الدخول ، مع أن الباب مفتوح ، والحجاب مرفوع ، والدنيا كلقمة ، فمن

---

(١) النساء : ٧٧ .　　(٢) النحل : ٩٦ .　　(٣) طه : ١٣١

(٤) أخرجه الإمام أحمد فى المسند [٥/١٨٣] ، وابن ماجه فى « الزهد » باب « الهم بالدنيا » برقم [٤١٠٥] بسند جيد .

تركها لينال عز الملك ، فكيف يلتفت إليها ؟ ثم إن نسبتها ، أعنى ما سلم لكل شخص منها ولو عمَّر ألف سنة بالإضافة إلى نعيم الآخرة ، أقل من لقمة بالإضافة إلى ملك الدنيا ، لأن الفانى لانسبة له إلى الباقى ، كيف ومدة العمر قصيرة ولذات الدنيا مكدرة ؟

© أقسام الزهد :

وأما أقسام الزهد بالإضافة إلى المرغوب فيه ، فعلى ثلاث درجات : **أحدها** : الزهد للنجاة من العذاب ، والحساب ، والأهوال التى بين يدى الآدمى ، وهذا زهد الخائفين . **الدرجة الثانية** : الزهد للرغبة فى الثواب ، والنعيم الموعود به ، وهذا زهد الراجين فإن هؤلاء تركوا نعيماً لنعيم . **الدرجة الثالثة** : وهى العليا . وهو أن لا يزهد فى الدنيا للتخلص من الآلام ، ولا للرغبة فى نيل اللذات ، بل لطلب لقاء الله ــ تعالى ــ ، وهذا زهد المحسنين العارفين ، فإن لذة النظر إلى الله ــ سبحانه وتعالى ــ بالإضافة إلى لذات الجنة ، كلذة ملك الدنيا ، والاستيلاء عليها ، بالإضافة إلى لذة الاستيلاء على عصفور واللعب به .

● فصل فى بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة

والضروريات المهمات سبعة أشياء : المطعم ، والملبس ، والمسكن ، وأثاثه ، والمنكح ، والمال ، والجاه .

● ***فأما الأول ــ وهو المطعم*** : فاعلم أن همة الزاهد منه ما يدفع به الجوع مما يوافق بدنه من غير قصد الالتذاذ . وفى الحديث : « **إن عباد الله ليسوا بالمتنعمين** »[1] . وقالت عائشة ــ رضى الله عنها ــ لعروة : كان يمر بنا هلال ، وهلال ، وهلال ، ما يوقد فى بيت رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ نار . قال : قلت : ياخالة : فعلى أى شىء كنتم تعيشون ؟ قالت : على الأسودين : الماء والتمر[2] . والأحاديث فى ذلك كثيرة مشهورة . وقد كان كثير من الزهاد يخشنون المطعم ، وكان فيهم من لا يطيق ذلك . فكان الثورى حسن المطعم ، وربما حمل فى سفرته اللحم المشوى والفالوذج . وفى الجملة فالزاهد يقصد ما يصلح به بدنه ، ولا يزيد فى التنعم ، إلا أن الأبدان تختلف ، فمنها ما لا يحتمل التخشن . وقد يدخر بعض الناس الزاد الحلال بتقوته ، فلا يخرجه ذلك من الزهد ، فقد كان السبتى يعمل من السبت إلى السبت ويتقوته . وورث داود الطائى عشرين ديناراً ، فأنفقها فى عشرين سنة .

● ***الثانى : الملبس*** : فالزاهد يقتصر فيه على ما يدفع الحر والبرد ، ويستر العورة ، ولا بأس أن يكون فيه نوع تجمل ، لئلا يخرجه التقشف إلى الشهرة . وكان أكثر لباس السلف خشناً فصار لبس الخشن شهرة .

وقد روى عن أبى بردة قال : أخرجت إلينا عائشة ــ رضى الله عنها ــ كساء ملبداً ،

---

(١) المسند [٥/٢٤٣ ، ٢٤٤] .

(٢) رواه البخارى فى « الهبة » باب [١] رقم [٢٥٦٧] ، ومسلم فى « الزهد » رقم [٢٨ ، ٣٠ ، ٣١] .

وإزاراً غليظاً ، وقالت : قبض رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ فى هذين . أخرجاه فى « الصحيحين »[1] . وعن الحسن قال : خطب عمر ــ رضى الله عنه ــ وهو خليفة ، وعليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعة .

● **الثالث : المسكن** : فللزاهد فيه ثلاث درجات . **أعلاها** : أن لا يطلب موضعاً خاصاً لنفسه ، بل يقنع بزوايا المساجد ، كأصحاب الصفة . **وأوسطها** : أن يطلب موضعاً خاصاً لنفسه ، مثل كوخ من سعف ، أو خص وما أشبه ذلك . **وأدناها** : أن يطلب حجرة مبنية ، ومتى طلب السعة وعلو السقف ، فقد جاوز حد الزهد فى المسكن . وقد توفى رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ ولم يضع لبنة على لبنة . قال الحسن : كنت إذا دخلت بيوت رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ، نلتُ السقف . وفى الحديث : « **إن المسلم ليؤجر فى كل شىء ينفقه إلا فى شىء يجعله فى هذا التراب** »[2] . وقال إبراهيم النخعى ــ رحمه الله ــ: إذا كان البنيان كفافاً ، فلا أجر ولا وزر وفى الجملة : إن كل ما يراد للضرورة فلا ينبغى أن يجاوز حد الزهد .

الرابع : أثاث البيت : فينبغى للزاهد أن يقتصر فيه على الخزف ، ويستعمل الإناء الواحد فى مقاصده ، فيأكل فى القصعة ، ويشرب فيها ، ومن خرج إلى كثرة العدد فى الآلة ، أو فى نفاسة الجنس ، خرج عن الزهد . ولينظر إلى سيرة رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ. ففى « صحيح مسلم » من حديث عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ قال : دخلت على رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ وهو مضطجع على حصير ، وإذا الحصير قد أثر فى جنبه ، فنظرت فى خزانة رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ، فإذا أنا بقبضة من شعير ، نحو الصاع . وفى رواية البخارى : فوالله ما رأيت شيئاً يرد البصر . والحديث مشهور فى « صحيح مسلم »[3] .

وقال على ــ رضى الله عنه ــ: تزوجت فاطمة وما لى ولها فراش إلا جلد كبش ، كنا ننام عليه بالليل ، ونعلف عليه الناضح(*)بالنهار ، وما لى خادم غيرها ، ولقد كانت تعجن ، وإن قُصتها(**) لتضرب حرف الجفنة من الجهد الذى بها . ودخل رجل على أبى ذر ــ رضى الله عنه ــ، فجعل يقلب بصره فى بيته ، فقال: ياأبا ذر ! ما أرى فى بيتك متاعاً ، ولا أثاثاً . فقال : إن لنا بيتاً نوجه إليه صالح متاعنا . فقال : إنه لابد لك من متاع مادمت هٰهنا ، فقال : إن صاحب المنزل لا يدعنا فيه .

---

(١) رواه البخارى فى اللباس رقم [٥٨١٨] وابن ماجه فى « اللباس » باب « لباس رسول الله ــ ﷺ ــ » رقم [٣٥٥١] ، والإمام أحمد فى المسند [٦/٣٢ ، ١٣١] .

(٢) رواه الترمذى بنحوه عن خباب فى كتاب « القيامة » باب « ما يعطى أهل الإيمان من حلل الجنة ، وقال : حديث حسن صحيح . (٣) صحيح مسلم فى « الزهد » رقم ١٤٧٩ باب « فى الإيلاء واعتزال النساء »

(*) الناضح : بعير يُسقى عليه . (**) القُصّة : شعر الناصية .

● **الخامس : المنكح** : لا معنى للزهد فى أصل النكاح ، ولا فى كثرته . قال سهل بن عبد الله : حبب إلى رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ النساء . وكان على ــ رضى الله عنه ــ من أزهد الصحابة ، وكان له أربع نسوة ، وبضع عشرة سرية . وكان أبو سليمان الدارانى يقول : كل ما شغلك عن الله ، من أهل ، ومال ، وولد ، فهو مشؤوم . وكشف الغطاء عن ذلك أن نقول : من غلبت عليه شهوته وخاف على نفسه ، تعين عليه النكاح ، فأما من لا يخاف ، فهل النكاح فى حقه أفضل أو التعبد ؟ فيه اختلاف بين العلماء ، والناس مختلفون فيه ، منهم من يقصد النكاح لطلب النسل ويمكنه الكسب الحلال للعائلة ، فلا يقدح ذلك فى دينه ، ولا يتشتت قلبه ، بل يجمع النكاح همه ، ويكف بصره ، ويرد فكره ، فهذا غاية فى الفضيلة ، وعليه يحمل حال رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ ، وحال على ــ رضى الله عنه ــ ، ومن جرى مجراهما ، ولا التفات إلى قول من يرى الزهد بترك الالتذاذ بالنكاح ، فإن ذلك يقع ضمناً وتبعاً للمقصود .

وقد كان بعض السلف يختار المرأة الدون على الجميلة ، وذلك محمول على أن تلك تكون إلى الدين أميل ، والنفقة عليها أقل ، والاهتمام بأمرها يسير ، بخلاف المستحسنة ، فإنها تشتت القلب ، وتشغله ، وتريد زيادة فى النفقة ، وربما لم يكن . وقد قال مالك بن دينار : يعمد أحدهم فيتزوج ديباجة الحى(*) فتقول : أريد مرطاً(**) فَتمْرُطُ دينه(***) .

● **السادس : المال** : وهو ضرورى فى المعيشة ، فالزاهد يقتصر منه على ما يدفع به الوقت ، وكان فى الصالحين من يتشاغل بالتجارة ويقصد بها العفاف . وكان حماد بن سلمة إذا فتح حانوته وكسب حبتين ، قام . وكان سعيد بن المسيب يتجر فى الزيت ، وخلف أربعمائة دينار ، وقال : إنما تركتها لأصون بها عرضى ودينى .

● **السابع** : الجاه ، ولابد للإنسان من جاه حتى فى قلب خادمه ، واشتغال الزاهد بالزهد يمهد له الجاه فى القلب ، فينبغى أن يتحرز من شر ذلك . وفى الجملة فإن الحوائج الضرورية ليست من الدنيا ، وكان كثير من السلف يعرض لهم بالمال الحلال ، فيقولون : لا نأخذه ، نخاف أن يفسد علينا ديننا .

● فصل فى بيان علامات الزهد

قد تظن أن تارك المال زاهد ، وليس كذلك ، فإن ترك المال ، وإظهار التخشن ، سهل على من أحب المدح بالزهد ، فكم من راهب قد لازم الدير ، وقلل المطعم . وقوّاه على ذلك حب المحمدة ، كما سبق ذكره فى كتاب الرياء . ولابد من الزهد فى فضول الأموال والجاه جميعاً ، حتى يكمل الزهد فى حظوظ النفس ، فأول معرفة الزهد مشكل . وقد

(*) يقصد : أجمل فتيات الحى . (**) المِرْط : واحد المُرُوط وهى أكسية من صوف أو خز كان يؤتزر بها .
(***) تمرط دينه : أى تُذهب به ،يقال : تَمَرّطَ شعره أى تحاتّ (سقط) .

obeikandl.com

قال ابن المبارك : أفضل الزهد إخفاء الزهد ، وينبغى أن يعوَّل فى هذا على ثلاث علامات . **الأولى** : أن لا يفرح بموجود ، ولا يحزن على مفقود ، كما قال ــ تعالى ــ: ﴿ **لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُم** ﴾[1] . وهذا علامة الزهد فى المال . **الثانى** : أن يستوى عنده ذامُّه ومادحه ، وهذه علامة الزهد فى الجاه . **الثالث** : أن يكون أنسه بالله ، والغالب على قلبه حلاوة الطاعة . فأما محبة الدنيا ومحبة الله ــ تعالى ــ، فهما فى القلب كالماء والهواء فى القدح ، إذا دخل الماء خرج الهواء ، فلا يجتمعان . قيل لبعضهم : إلام أفضى بهم الزهد ؟ قال : إلى الأنس بالله . قال يحيى بن معاذ : الدنيا كالعروس ، ومن يطلبها ما شطتها ، والزاهد فيها يسخم[*] وجهها ، وينتف شعرها ، ويخرق ثوبها ، والعارف مشتغل بالله ــ تعالى ــ عنها . فهذا ما أردنا ذكره من حقيقة الزهد وأحكامه . وإذا كان الزهد لا يتم إلا بالتوكل فلنشرع فى بيانه إن شاء الله ــ تعالى ــ وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم حامداً ومسلماً على أحمد خير الأنام ومصباح الظلام .

● كتاب التوحيد والتوكل

بيان فضيلة التوكل

قال الله ــ تعالى ــ: ﴿ **وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** ﴾[2] . وقال : ﴿ **وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُه** ﴾[3] .

وفى الحديث : أن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ ذكر أنه يدخل الجنة من أمته سبعون ألفاً لا حساب عليهم ، ثم قال : « **هم الذين لا يكتوون ، ولا يسترقون ، ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون** » . أخرجاه فى « الصحيحين »[4] . وعن عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ قال : سمعت رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ يقول : « **لو أنكم توكلتم على الله حق توكله ، لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً** »[5] . وكان من دعاء النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « **اللهم إنى أسألك التوفيق لمحابك من الأعمال ، وصدق التوكل عليك ، وحسن الظن بك** »[6] .

---

(١) الحديد : ٢٣ .

(*) السخمة : السواد ، الأسخم : الأسود ، والسخام : سواد القدر ، وسخم الله وجهه تسخيماً أى سوده تسويدا.

(٢) آل عمران : ١٢٢ . (٣) الطلاق : ٣ .

(٤) رواه البخارى فى كتاب الطب باب من اكتوى أو كوى غيره ، رقم [٥٧٠٥] ، ورواه مسلم فى صحيحه كتاب « الإيمان » رقم [٣٧١ ، ٣٧٢] ، الإمام أحمد فى المسند [٢٧١/١ ، ٤٠١ ، ٤٠٣] .

(٥) رواه الإمام أحمد فى مسنده [٣٠/١ ؛ ٥٢] . وابن ماجه فى « الزهد » باب « التوكل واليقين » رقم [٤١٦٤]

(٦) فى كنز العمال [٣٦٥٤] عزاه لأبى نعيم فى الحلية عن الأوزاعى مرسلاً ، وللحكيم الترمذى عن أبى هريرة

والتوكل يبتنى على التوحيد ، والتوحيد طبقات : منها أن يصدق القلب بالوحدانية المترجم عنها قولك ، لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، فيصدق بهذا اللفظ ، لكن من غير معرفة دليل ، فهو اعتقاد العامة . **الثانية** : أن يرى الأشياء المختلفة ، فيراها صادرة عن الواحد ، وهذا مقام المقربين . **الثالثة** : أن يرى الإنسان إذا انكشف عن بصيرته أن لا فاعل سوى الله ، لم ينظر إلى غيره ، بل يكون منه الخوف وله الرجاء وبه الثقة وعليه التوكل ، لأنه فى الحقيقة هو الفاعل وحده ، فسبحانه والكل مسخرون له ، فلا يعتمد على المطر فى خروج الزرع ، ولا على الغيم فى نزول المطر ، ولا على الريح فى سير السفينة ، فإن الاعتماد على ذلك جهل بحقائق الأمور . ومن انكشفت له الحقائق ، علم أن الريح لا تتحرك بنفسها ، ولابد لها من محرك ، فالتفات العبد فى النجاة إلى الريح يضاهى التفات من أخذ لتضرب عنقه ، فوقع له الملك بالعفو عنه ، فأخذ يشتغل بذكر الحبر والكاغد والقلم الذى كتب به التوقيع ، ويقول : لولا هذا القلم ما تخلصت ، فيرى نجاته من القلم لا من محرك القلم ، وهذا غاية الجهل . ومن علم أن القلم لا حكم له فى نفسه ، شكر الكاتب دون القلم ، وكل المخلوقات فى قهر تسخير الخالق أبلغ من القلم فى يد الكاتب ، فسبحان مسبب الأسباب الفعَّال لما يريد .

● فصل فى بيان احوال التوكل واعماله وحده ونحو ذلك

اعلم : أن التوكل مأخوذ من الوكالة ، يقال : وكل فلان أمره إلى فلان ، أى فوض أمره إليه ، واعتمد فيه عليه . فالتوكل عبارة عن اعتماد القلب على الموكل ، ولا يتوكل الإنسان على غيره إلا إذا اعتقد فيه أشياء : الشفقة ، والقوة ، والهداية . فإذا عرفت هذا ، فقس عليه التوكل على الله ــ سبحانه ــ، وإذا ثبت فى نفسك أنه لا فاعل سواه ، واعتقدت مع ذلك أنه تام العلم والقدرة والرحمة ، وأنه ليس وراء قدرته قدرة ، ولا وراء علمه علم ، ولا وراء رحمته رحمة ، اتكل قلبك عليه وحده لا محالة ، ولم يلتفت إلى غيره بوجه ، فإن كنت لا تجد هذه الحالة من نفسك ، فسببه أحد أمرين : إما ضعف اليقين بأحد هذه الخصال .

وإما ضعف القلب باستيلاء الجبن عليه ، وانزعاجه بسبب الأوهام الغالبة عليه ، فإن القلب قد ينزعج ببقاء الوهم وطاعته له من غير نقصان فى اليقين ، فإنه من كان يتناول عسلاً ، فشبه بين يديه بالعذرة ، ربما نفر طبعه منه ، وتعذر عليه تناوله . ولو كلف العاقل أن يبيت مع الميت فى قبر أو فراش أو بيت ، نفر طبعه من ذلك ، وإن كان متيقناً كونه ميتاً جماداً فى الحال ، ولا ينفر طبعه عن سائر الجمادات ، وذلك جبن فى القلب ، وهو نوع ضعف قلماً يخلو الإنسان منه ، وقد يقوى ذلك حتى يصير مرضاً ، حتى يخاف أن يبيت فى البيت وحده مع غلق الباب وإحكامه . فإذاً لا يتم التوكل إلا بقوة القلب ، وقوة اليقين جميعاً ،

فإذا انكشف لك معنى التوكل ، وعلمت الحالة التى تسمى توكلاً ، فاعلم أن تلك الحالة لها فى القوة والضعف ثلاث درجات :

الأولى : ما ذكرناه ، وهو أن يكون حاله فى حق الله ـــ تعالى ـــ الثقة بكفالته وعنايته ، كحاله فى الثقة بالوكيل . **الدرجة الثانية** : وهى أقوى ، أن يكون حاله مع الله ـــ تعالى ـــ كحال الطفل مع أمه ، فإنه لا يعرف غيرها ولا يفزع إلى سواها ، ولا يعتمد إلا إياها ، وإن نابه أمر كان أول خاطر يخطر على قلبه ، وأول سابق إلى لسانه : ياأماه . فمن كان تألهه إلى الله ، ونظره إليه ، واعتماده عليه ، كلف به كما يكلف الصبى بأمه ، فيكون متوكلاً حقاً . والفرق بين هذا وبين الأول ، أن هذا متوكل قد فنى فى توكله عن توكله ، إذ لا يلتفت إلى غير المتوكل عليه ، ولا مجال فى قلبه لغيره . وأما الأول ، فهو متوكل بالتكليف والكسب ، وليس فانياً عن توكله ، بل له التفات إليه ، وذلك شغل صارف عن ملاحظة المتوكل عليه وحده . **الدرجة الثالثة** : وهى أعلى منهما ، أن يكون بين يدى الله ـــ تعالى ـــ مثل الميت بين يدى الغاسل ، لا يفارقه إلا أنه لا يرى نفسه ميتاً ، وهذا يفارق حال الصبى مع أمه فإنه يفزع إلى أمه ، ويصيح ويتعلق بذيلها . وهذه الأحوال توجد فى الخلق ، إلا أن الدوام يبعد ، ولاسيما المقام الثالث .

● فصل فى بيان أعمال المتوكلين

قد يظن بعض الناس أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن ، وترك التدبير بالقلب ، والسقوط على الأرض كالخرقة ، وكلحم على وضم(*) ، وهذا ظن الجهال ، فإن ذلك حرام فى الشرع . والشرع قد أثنى على المتوكلين ، وإنما يظهر تأثير التوكل فى حركة العبد وسعيه إلى مقاصده ، وسعى العبد إما أن يكون لجلب نفع مفقود كالكسب ، أو حفظ مرجو كالادخار ، وإما لدفع ضرر لم ينزل ، كدفع الصائل[1] ، أو لإزالة ضرر قد نزل ، كالتداوى من المرض ، فحركات العبد لا تعدو هذه الفنون الأربعة :

الفن الأول : فى جلب المنافع ، فنقول : الأسباب التى بها تجلب المنافع على ثلاث درجات :

● ***أحدها*** : سبب مقطوع به كالأسباب التى ارتبطت بها المسببات بتقدير الله ـــ تعالى ـــ ومشيئته ارتباطاً مطرداً لا يختلف ، مثاله : أن يكون الطعام بين يديك وأنت جائع ، فلا تمد يدك إليه وتقول : أنا متوكل ، وشرط التوكل ترك السعى ، ومد اليد إلى الطعام سعى ، وكذلك مضغه وابتلاعه ، فهذا جنون محض ، وليس من التوكل فى شىء ، فإنك إذا انتظرت أن يخلق الله فيك شبعاً دون أكل الطعام ، أو يخلق فى الطعام حركة إليك ، أو يسخر ملكاً ليمضغه ويوصله إلى معدتك ، فقد جهلت سنة الله . وكذلك لو لم تزرع ، وطمعت أن

(*) الوَضَم : كل شىء يوضع عليه اللحم يوقى به من الأرض . (1) الصَّائل : المطاول المعتدى .

يخلق الله ــ تعالى ــ نباتاً من غير بذر ، أو تلد الزوجة من غير وقاع ، فكل ذلك جنون ، وليس التوكل فى هذا المقام ترك العمل ، بل التوكل فيه بالعلم والحال . أما العلم : فهو أن تعلم أن الله ــ تعالى ــ خلق الطعام ، واليد ، والأسباب ، وقوة الحركة ، وأنه الذى يطعمك ويسقيك . وأما الحال ، فهو أن يكون قلبك واعتمادك على فضل الله ــ تعالى ــ، لا على اليد والطعام ، لأنه ربما جفت يدك ، وبطلت حركتك ، وربما سلط الله عليك من يغلبك على الطعام ، فمد اليد إلى الطعام لا ينافى التوكل .

● ***الدرجة الثانية*** : الأسباب التى ليست متيقنة ، لكن الغالب أن المسببات لا تحصل دونها . مثاله من يفارق الأمصار ، ويخرج مسافراً إلى البوادى التى لا يطرقها الناس إلا نادراً ، ولا يستصحب معه شيئاً من الزاد ، فهذا كالمجرب على الله ــ تعالى ــ، وفعله منهى عنه ، وحمله للزاد مأمور به ، فإن رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ لما سافر تزود واستأجر دليلاً إلى المدينة .

● ***الدرجة الثالثة*** : ملابسة الأسباب التى يتوهم إفضاؤها إلى المسببات من غير ثقة ظاهرة ، كالذى يستقصى فى التدبيرات الدقيقة فى تفصيل الاكتساب ووجوهه ، فمتى كان قصده صحيحاً وفعله لا يخرج عن الشرع ، لم يخرج عن التوكل ، لكنه ربما دخل فى أهل الحرص إذا طلب فضول العيش . وترك التكسب ليس من التوكل فى شىء ، إنما هو من فعل البطالين الذين آثروا الراحة وتعللوا بالتوكل . قال عمر ــ رضى الله عنه ــ: المتوكل الذى يلقى حبه فى الأرض ويتوكل على الله .

● ***الفن الثانى*** : فى التعرض للأسباب بالادخار ، ومن وجد قوتاً حلالاً يشغله كسب مثله عن جمع همه ، فادخاره إياه لا يخرجه عن التوكل ، خصوصاً إذا كان له عائلة . وفى « الصحيحين » من حديث عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ، أن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ كان يبيع نخل بنى النضير ، ويحبس لأهله قوت سنتهم[1] . فإن قيل : فقد نهى رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ بلالاً أن يدخر ، فالجواب : أن الفقراء كانوا عنده كالضيف ، فما كان ينبغى أن يدخر فيجوعون ، بل الجواب : أن حال بلال وأمثاله من أهل الصُفَّة كان مقتضاها عدم الادخار ، فإن خالفوا كان التوبيخ على الكذب فى دعوى الحال لا على الادخار الحلال .

● ***الفن الثالث*** : مباشرة الأسباب الدافعة للضرر . ليس من شرط التوكل ترك الأسباب الدافعة للضرر ، فلا يجوز النوم فى الأرض المسبعة[*] ، أو مجرى السيل ، أو تحت الجدار الخراب ، فكل ذلك منهى عنه . وكذلك لا ينقص التوكل ليس الدرع ، وإغلاق الباب ،

---

(١) انظر صحيح مسلم اكتاب « الجهاد » حديث [٥٠] ، صحيح البخارى كتاب « النفقات » باب [٣] .
(*) أى التى فيها سباع .

وشد البعير بالعقال . قال الله ــ تعالى ــ: ﴿ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ ﴾[1] . وجاء رجل إلى النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ فقال : يارسول الله أعقلها وأتوكل ، أو أطلقها وأتوكل ؟ قال : « **اعقلها وتوكل** »[2] . ويتوكل فى ذلك كله على المسبب لا على السبب ، ويكون راضياً بكل ما يقضى الله عليه . ومتى عرض له إذا سرق متاعه أنه لو احترز لم يسرق ، أو أخذ يشكو ما جرى عليه ، فقد بان بعده عن التوكل .

وليعلم أن القدر له كالطبيب ، فإن قدم إليه الطعام فرح ، وقال : لولا أنه علم أن الغذاء ينفعنى ما قدمه ، وإن منعه فرح ، وقال : لولا أنه علم أن الغذاء يؤذينى لما منعنى .

واعلم : أن كل من لا يعتقد فى لطف الله ــ تعالى ــ ما يعتقده المريض فى الطبيب الحاذق الشفيق ، لم يصح توكله ، فإن سرق متاعه رضى بالقضاء ، وأحل الآخذ ، شفقة على المسلمين ، فقد شكا بعض الناس إلى بعض العلماء أنه قطع عليه الطريق ، وأخذ ماله ، فقال : إن لم يكن غمك كيف صار فى المسلمين من يفعل هذا أكثر من غمك بمالك ، فما نصحت المسلمين .

الفن الرابع : السعى فى إزالة الضرر ، كمداواة المريض ونحو ذلك .

اعلم : أن الأسباب المزيلة للضرر تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

● ***إلى مقطوع به*** : كالماء المزيل لضرر العطش ، والخبز المزيل لضرر الجوع ، فهذا القسم ليس تركه من التوكل فى شىء .

● ***القسم الثانى*** : أن يكون مظنوناً ، كالفصد ، والحجامة ، وشرب المسهل ، ونحو ذلك ، فهذا لا يناقض التوكل ، فإن رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ قد تداوى وأمر بالتداوى . وقد تداوى خلق كثير من المسلمين ، وامتنع عنه أقوام توكلاً ، كما روى عن أبى بكر الصديق ــ رضى الله عنه ــ أنه قيل له : ألا ندعو لك طبيباً ؟ فقال : رآنى الطبيب . قيل : فما قال لك ؟ قال : إنى فعال لما أريد . قال المصنف ــ رحمه الله ــ: والذى ننصره أن التداوى أفضل ، وتحمل حال أبى بكر ــ رضى الله عنه ــ أنه قد تداوى ثم أمسك بعد انتفاعه بالدواء ، أو يكون قد علم قرب أجله بأمارات .

واعلم : أن الأدوية أسباب مسخرة بإذن الله تعالى ــ.

● ***القسم الثالث*** : أن يكون السبب موهوماً ، كالكى ، فيخرج عن التوكل ، لأن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ وصف المتوكلين بأنهم لا يكتوون[3] . وقد حمل بعض العلماء الكى المذكور فى قوله : « لا يكتوون » على ما كانوا يفعلونه فى الجاهلية ، فإنهم كانوا

---

(١) النساء : ١٠٢ .

(٢) رواه الترمذى فى كتاب « صفة القيامة » باب [٦٠] ثم قال : قال عمرو بن على : قال يحى وهذا عندى حديث منكر ، قال الترمذى : وهذا حديث غريب من حديث أنس لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

(٣) الحديث ، متفق عليه ، وقد تقدم تخريجه فى أول كتاب التوكل .

يكتوون ويسترقون فى زمن العافية لئلا يمرضوا ، فإن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ كان يرق الرقية بعد نزول المرض ، وقد كوى أسعد بن زرارة ــ رضى الله عنه ــ. وأما شكوى المريض ، فهى مخرجة عن التوكل ، وقد كانوا يكرهون أنين المريض ، لأنه يترجم عن الشكوى ، فكان الفضيل يقول : أشتهى مرضاً بلا عوَّاد .

وقال رجل للإمام أحمد : كيف أنت ؟ قال : بخير . قال حممت البارحة ؟ قال : إذا قلت لك : أنا بخير ، فلا تخرجنى إلى ما أكره . فأما إذا وصف المريض للطبيب ما يجده ، فإنه لا يضره . وقد كان بعض السلف يفعل ذلك ، ويقول : إنما أصف قدرة الله فىَّ ، ويتصور أن يصف ذلك لتلميذ يقويه على الضراء ويرى ذلك نعمة ، فيصف ذلك كما يصف النعمة شكراً لها ، ولا يكون ذلك شكوى . وقد روينا أن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ قال : « **إنى أوعك كما يوعك رجلان منكم** » . وذلك آخر التوكل وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم .

● كتاب المحبة والشوق والأنس والرضى

اعلم : أن المحبة لله ــ تعالى ــ هى الغاية القصوى من المقامات ، فما بعد إدراك المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها ، وتابع من توابعها ، كالشوق ، والأنس ، والرضى ، ولا قبل المحبة مقام إلا وهو من مقدماتها ، كالتوبة ، والصبر ، والزهد وغيرها .

واعلم : أن الأمة مجمعة على أن الحب لله ولرسوله فرض ، ومن شواهد المحبة قوله ــ تعالى ــ: ﴿ **يُحِبُّهُم وَيُحِبونَهُ** ﴾[1] . وقوله ــ تعالى ــ: ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنوا أَشَدُّ حُبًّا لله** ﴾[2] . وهذا دليل على إثبات الحب لله ، وإثبات التفاوت فيه .

وفى الحديث الصحيح : أن رجلاً سأل رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ عن الساعة فقال : « **ما أعددت لها ؟** » قال : يارسول الله :ما أعددت لها من كثرة صلاة ولا صيام ، إلا أنى أحب الله ورسوله ، فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « **المرء مع من أحب ، وأنت مع من أحببت** »[3] ، فما فرح المسلمون بعد الإسلام فرحهم بها .

وروى أن ملك الموت جاء إلى الخليل ــ عليه السلام ــ ليقبض روحه ، فقال له : هل رأيت خليلاً يميت خليله ؟ فأوحى الله إليه : هل رأيت حبيباً يكره لقاء حبيبه ؟ فقال : ياملك الموت اقبض . وقال الحسن البصرى ــ رحمه الله ــ: من عرف ربه أحبه ، ومن أحب غير الله ــ تعالى ــ، لا من حيث نسبته إلى الله ، فذلك لجهله وقصوره عن معرفته ، فأما حب الرسول ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ ، فذلك لا يكون إلا عن حب الله ــ تعالى ــ،

---

(١) المائدة : ٥٤ . (٢) البقرة : ١٦٥ .

(٣) رواه مسلم فى كتاب « البر » رقم [١٦٥] ، والإمام أحمد فى مسنده [٣٩٢/١] ، [١٠٤/٣ ، ١١٠] ، [١٠٧/٤] .

وكذلك حب العلماء والأتقياء ، لأن محبوب المحبوب محبوب ، بل إن ما يفعل المحبوب محبوب ، ورسول المحبوب محبوب ، وكل ذلك يرجع إلى حب الأصل ، ولا محبوب فى الحقيقة عند ذوى البصائر إلا الله ــ تعالى ــ، ولا مستحق للمحبة سواه .

© أسباب حب الله :

وإيضاح ذلك يرجع إلى أسباب : **أحدها** : أن الإنسان يحب نفسه ، وبقاءه ، وكماله ، ودوام وجوده ، ويكره ضد ذلك من الهلاك والعدم والنقصان ، وهذا جبلة كل حى لا يتصور أن ينفك عنها . وهذا يقتضى غاية المحبة لله ــ عز وجل ــ، فإن الإنسان إذا عرف ربه ، عرف قطعاً أن وجوده ودوامه وكماله من الله ، وأنه المخترع له ، الموجد لذاته بعد أن كان عدماً محضاً لولا فضل الله عليه بإيجاده ، وهو ناقص بعد الوجود لولا فضل الله عليه بالتكميل ، ولذلك قال الحسن البصرى : من عرف ربه أحبه ، ومن عرف الدنيا ، زهد فيها . وكيف يتصور أن يحب الإنسان نفسه ، ولا يحب ربه الذى به قوام نفسه .

● ***السبب الثانى*** : أن الإنسان بالطبع يحب من أحسن إليه ولاطفه وواساه ، وانتدب لنصرته وقمع أعدائه ، وأعانه على جميع أغراضه ، فإنه محبوب عنده لا محالة . وإذا عرف الإنسان حق المعرفة علم أن المحسن إليه هو الله ــ سبحانه وتعالى ــ فقط . وأنواع إحسانه لا يحيط به حصر ، كما قال ــ تعالى ــ: ﴿ **وإنْ تَعُدُّوا نعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا** ﴾[1] .

وقد أشرنا إلى طرف من ذلك فى كتاب الشكر ، ولكننا نبين أن الإحسان من الناس غير متصور إلا بالمجاز ، وأن المحسن فى الحقيقة هو الله ــ تعالى ــ. بيان ذلك أنا نفرض أن شخصاً أنعم عليك بجميع خزائنه وما يملك ، ومكنك فيها لتتصرف كيف شئت ، فإنك تظن أن هذا الإحسان منه ، وهو غلط ، فإنه إنما تم إحسانه بماله ، وبقدرته على المال ، وبداعيته الباعثة له على صرف المال . فمن الذى أنعم بخلقه وخلق ماله وخلق إرادته وداعيته ؟ ومن الذى حببك إليه ، وصرف وجهه إليك ، وألقى فى نفسه أن صلاح دينه ودنياه فى الإحسان إليك ، ولولا ذلك ما أعطاك ، فكأنه صار مقهوراً فى التسليم لا يستطيع مخالفته . فالمحسن هو الذى اضطره وسخره لك ، فهو جارٍ مجرى خازن أمير أمره أن يسلم إلى الإنسان خلعة خلعها عليه الأمير ، فإن الخازن لا يرى محسناً بتسليم خلعة الأمير ، لأنه مضطر إلى طاعته ، ولو خلاه الأمير ونفسه لما سلم ذلك . وكذلك كل محسن لو خلاه الله ونفسه ، لم يبذل حبة من ماله حتى يسلط الله عليه الدواعى ، ويلقى فى نفسه أن حظه فى بذل ذلك فيبذله . فينبغى للعارف أن لا يحب إلا الله ، إذ الإحسان من غيره محال .

● ***السبب الثالث*** : أن المحسن فى نفسه وإن لم يصل إليك إحسانه محبوب فى الطباع ، فإنه إذا بلغك عن ملك من الملوك أنه عالم عادل عابد رفيق بالناس ، متلطف بهم وهو فى

(١) إبراهيم : ٣٤ ، النحل : ١٨ .

قطر بعيد ، فإنك تحبه ، وتجد فى نفسك ميلاً كثيراً إليه . فهذا حب المحسن من حيث إنه محسن ، فضلاً عن أن يكون محسناً إليك . وهذا ما يقتضى حب الله ــ تعالى ــ، بل يقتضى أن لا يحب غيره ، إلا بحيث أن يتعلق منه بسبب ، فإنه سبحانه هو المحسن إلى الكل كافة ، بإيجادهم وتكميلهم بالأعضاء والأسباب التى هى من ضروراتهم وترفيههم ، إلى غير ذلك من النعم التى لا تحصى ، كما قال ــ تعالى ــ: ﴿ **وإنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ الله لا تُحْصُوها** ﴾[1] . فكيف يكون غيره محسناً ؟ وذلك المحسن حسنة من حسنات قدرته ، فمن عرف هذا لم يحب إلا الله ــ تعالى ــ.

وكذلك نقول : كل من كان متصفاً بالعلم ، أو بالقدرة أو كان متنزهاً عن الصفات الرذيلة ، فإن ذلك يوجب له المحبة . فصفات الصِّديقين الذين تحبهم القلوب طبعا ، ترجع إلى علمهم بالله ــ تعالى ــ وملائكته وكتبه ورسله وشرائع أنبيائه ، وإلى قدرتهم على إصلاح نفوسهم وإلى تنزيههم عن الرذائل والخبائث . ولمثل هذه الصفات نحب الأنبياء ــ عليهم الصلاة والسلام ــ، وإذا نسبت هذه الصفات إلى صفات الله ــ تعالى ــ، وجدتها مضمحلة بالنسبة إلى صفاته ــ سبحانه وتعالى ــ. أما العلم ، فإن علم الأولين والآخرين من علم الله ــ تعالى ــ الذى يحيط بالكل ، حتى لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض . وقد خاطب الخلق كلهم فقال : ﴿ **وَمَا أُوتِيتُم من العِلْمِ إلاَّ قَلِيلاً** ﴾[2] .

ولو اجتمع أهل السموات والأرض ، على أن يحيطوا بعلمه وحكمته فى تفصيل خلق نملة ، أو بعوضة ، لم يطلعوا على عشر عشر ذلك ، ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء ، والقدر اليسير الذى علمه الخلق كلهم ، بتعليمه علموه . ففضل علم الله ــ سبحانه ــ على علم الخلائق كلهم خارج عن النهاية ، إذ معلوماته لا نهاية لها . وأما صفة القدرة ، فهى أيضاً صفة كمال ، فإذا نسبت قدرة الخلق كلهم إلى قدرة الله ــ تعالى ــ، وجدت أعظم الأشخاص قوة ، وأوسعهم ملكاً ، وأقواهم بطشاً ، وأجمعهم للقدرة على سياسة نفسه وسياسة غيره ، غاية قدرته أن يقدر على بعض صفات نفسه ، وعلى بعض امتحان الإنس فى بعض الأمور ، وهو مع ذلك لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ، ولا يملك موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، بل لا يقدر على حفظ عينه من العمى ، ولا على حفظ لسانه من الخرس ، ولا آذانه من الصمم ، ولا بدنه من المرض ، ولا يقدر على ذرة من ذرات المخلوقات . وما هو قادر عليه من نفسه وغيره ، فليست قدرته من نفسه ، بل الله خالقه وخالق قدرته وخالق أسبابه والممكن له من ذلك . ولو سلط بعوضة على أعظم ملك وأقوى شخص لأهلكته ، فليس للعبد قدرة إلا بتمكين مولاه .

---

(١) إبراهيم : ٣٤ ، النحل : ١٨ . (٢) الإسراء : ٨٥ .

قال الله ــ تعالى ــ فى حق أعظم ملوك الأرض ذى القرنين : ﴿ **إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِى الْأَرْضِ** ﴾[1] . فلم يكن جميع ملكه وسلطانه إلا بتمكين الله ــ تعالى ــ، فنواصى الخلق جميعهم فى قبضته وقدرته ، إن أهلكهم لم ينقص من ملكه وسلطانه ذرة ، وإن خلق أمثالهم ألف مرة لم يعبأ بخلقه ، فلا قادر إلا هو ، فله الكمال والعظمة والبهاء والكبرياء والقهر والاستيلاء . فإن تُصُوِّرَ أن تحب قادراً لكمال قدرته وعظمته وعلمه ، فلا يستحق ذلك سواه ، ولا يتصور كمال التقديس والتنزيه إلا له سبحانه ، فهو الواحد الذى لا ند له ، الفرد الذى لا ضد له ، الصمد الذى لا منازع له ، الغنى الذى لا حاجة له ، القادر الذى يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، لا راد لحكمه ، ولا معقب لقضائه ، العالم الذى لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء .

وكمال معرفة العارفين الاعتراف بالعجز عن معرفته ، وهو المستحق لكمال المحبة استحقاقاً لا يساهم فيه أصلاً .

● فصل فى بيان أن أجل اللذات وأعلاها معرفة الله سبحانه والنظر إلى وجهه الكريم وأنه لا يتصور أن يؤثر على ذلك لذة أخرى إلا من حرم هذه اللذة

اعلم : أن اللذات تابعة للإدراكات ، والإنسان جامع لجملة من القوى والغرائز ، ولكل قوة غريزة لذة ، ولم تخلق هذه الغرائز عبثاً ، بل لأمر من الأمور ، وهو مقتضاها بالطبع ، فغريزة شهوة الطعام خلقت لتحصيل الغذاء الذى به القوام ، ولذة البصر والسمع فى الإبصار والإسماع . وكذلك فى القلب غريزة تسمى النور الإلهى ، وقد تسمى العقل ، وتسمى البصيرة الباطنة ، وتسمر نور الإيمان واليقين ، وهذه الغريزة خلقت ليعلم بها حقائق الأمور كلها بطبعها ، فمقتضى طبعها العلم والمعرفة ، وذاك لذتها .

وليس يخفى أن العلم والمعرفة ، ولو فى شىء خسيس يفرح به ، وأن من ينسب إلى الجهل ولو فى شىء خسيس يغتم به . وكل ذلك لفرط لذة العلم ،وما يستشعره من كمال ذاته . فإن العلم من أحسن الصفات ومنتهى الكمال ، ولذلك يرتاح الإنسان بطبعه إذا أثنى عليه بالذكاء ، وغزارة العلم ، ثم ليس لذة العلم بالحراثة والخياطة كلذة العلم بسياسة الملك وتدبير أمر الخلق ، ولا لذة العلم بالشعر والنحو ، كلذة العلم بالله ــ تعالى ــ وملائكته وملكوت السموات والأرض،بل لذة العلم بقدر شرف العلم ، وشرف العلم بقدر شرف المعلوم ، فبهذا استبان أن ألذ المعارف أشرفها ، وشرفها بحسب شرف المعلوم ، فإن كان فى المعلومات ما هو الأجل والأكمل والأشرف والأعظم ، فالعلم به ألذ العلوم لا محالة وأشرفها . وليت

(١) **الكهف** : ٨٤ .

شعرى ، هل فى الوجود شىء أجلّ وأعلى وأشرف وأكمل وأعظم من خالق الأشياء كلها ومكملها . ومزيّنها ومبديها ومعيدها ومدبرها ومرتبها ؟! وهل يتصور أن يكون حضرة فى الملك والكمال والجمال والبهاء والجلال أعظم من الحضرة الربانية التى لا يحيط بجلالها وكمالها وعجائب أمورها وصف الواصفين ؟!

فينبغى أن تعرف أن لذة المعرفة أقوى من جميع اللذات المدركة بالحواس الخمس ، فإن المعانى الباطنة أغلب على ذوى الكمال من اللذات الظاهرة . فلو خيّر الرجل بين لذة أكل الدجاج السمين واللوزينج ، وبين لذة الرياسة ، وقهر الأعداء ، ونيل درجة الاستيلاء ، فإن كان المخير خسيس الهمة ميت القلب شديد الشهوة البهيمية اختار اللحم والحلواء ، وإن كان علىّ الهمة ، كامل العقل ، فإنه يختار الرياسة ، ويهون عليه الجوع والصبر على ضرورة القوت أياماً . فاختياره للرياسة دليل على أنه ألذ عنده من المطعومات الطيبة ، وكما أن لذة الرياسة أغلب اللذات على من جاوز نقصان الناقص الهمة ، فلذة معرفة الله ــ سبحانه وتعالى ــ والنظر إلى أسرار الأمور الإلٰهية ألذ من الرياسة التى هى أعلى اللذات الغالبة على الخلق ، وهذا لا يعرفه إلا من ذاق اللذتين جميعاً ، فإنه لا محالة يؤثر التبتل والتفرد والفكر والذكر ، وينغمس فى بحار المعرفة ، ويترك الرياسة ، ويحتقر الخلق ، لعلمه بفناء رياسته وفناء من عليه رياسته ، وكون ذلك مشوباً بالكدر ، مقطوعاً بالموت . وتعظم عنده معرفة الله ــ سبحانه وتعالى ــ، ومطالعة صفاته وأفعاله ، ونظام مملكته ، فإنها خالية عن المزاحمات والمكدرات ، متسعة للمتواردين عليها ، لا تضيق عنهم ، فلا يزال العارف بمطالعتها فى جنة عرضها السموات والأرض ، يرتع فى رياضها ، ويقطف من ثمارها ، ويكرع من حياضها ، وهو آمن من انقطاعها ، إذ هى أبدية سرمدية ، لا يقطعها الموت ، لأن الموت لا يهدم محل معرفة الله ــ تعالى ــ، إذ محلها الروح ، وإنما الموت يغير أحوالها ، أما أن يعدمها فلا .

والعارفون درجات عند الله ــ تعالى ــ متفاوتون ، لا يدخل تفاوت درجاتهم تحت الحصر ، وهذه الأمور لاتدرك إلا بالذوق ، والحكاية فيها قليلة الجدوى . فهذا القدر ينبهك على أن معرفة الله ــ تعالى ــ ألذ الأشياء ، وأنه لا لذة فوقها ، ولهذا قال أبو سليمان الدارانى ــ رحمه الله ــ: إن لله عباداً ليس يشغلهم عن الله ــ عز وجل ــ خوف النار ولا رجاء الجنة ، فكيف تشغلهَم الدنيا عن الله ــ تعالى ــ؟! وقال بعض أصحاب معروف : قلت له : أى شىء أهاجك على العبادة ؟ فسكت . فقلت : ذكر الموت ؟ فقال : وأى شىء الموت ؟ قلت : ذكر القبر . وقال : وأى شىء القبر ؟ قلت : خوف النار ورجاء الجنة ؟ فقال : وأى شىء هذا ؟ إن ملكاً هذا كله بيده ، إن أحببته أنساك جميع ذلك ، وإن كانت بينك وبينه معرفة كفاك جميع ذلك .

وقال أحمد بن الفتح : رأيت بشر بن الحارث فى منامى ، فقلت له : ما فعل معروف

الكرخى ؟ فحرك رأسه ثم قال : هيهات ، حالت بيننا وبينه الحجب ، إن معروفاً لم يعبد الله شوقاً إلى جنته ولا خوفاً من ناره ، وإنما عبده شوقاً إليه ، فرفعه الله إلى الرفيق الأعلى ، ورفع الحجب بينه وبينه . فمتى حصلت محبة الله ــ تعالى ــ لشخص ، صار قلبه مستغرقاً بها ، ولا يلتفت إلى جنة ، ولا يخاف من نار ، فإنه قد بلغ النعيم الذى ليس فوقه نعيم . قال بعضهم :

ومجره أعظم من ناره ووصله أطيب من جنته

وإنما أراد بهذا لذة القلب فى معرفة الله ــ تعالى ــ . وأنها مفضلة على لذة الأكل والشرب والنكاح ، فإن الجنة معدن تمتع الحواس ، وأما القلب فلذته فى لقاء الله ــ تعالى ــ فقط .

واعلم : أن لذة النظر فى الآخرة تزيد على المعرفة فى الدنيا ، وقد اقتضت سنة الله ــ تعالى ــ أن النفس مادامت محجوبة بعوارض البدن ، ومقتضى الشهوات ، وما يغلب عليها من الصفات البشرية ، لا تنتهى إلى المشاهدة ، بل هذه الحياة حجاب عنها بالضرورة ، كحجاب الأجفان عن رؤية الإبصار . والقول فى سبب كونه حجاباً يطول ، فإذا ارتفع الحجاب بالموت ، بقيت النفس وفيها نوع تلوث بالدنيا ، فإذا أدخل أهل الجنة الجنة وقد صفوا عن الأكدار ، تجلّى لهم الحق ــ سبحانه وتعالى ــ على قدر معرفتهم فى الدنيا .

فكل من لا يعرف الله ــ تعالى ــ فى الدنيا ، لا يراه فى الآخرة . وما يستأنف لأحد فى الآخرة ما لم يصحبه فى الدنيا ، ولا يحصد أحد إلا ما زرع ، ولا يموت المرء إلا على ما عاش عليه ، فما صحبه من المعرفة هو الذى يتنعم به بعينه ، إلا أنه ينقلب مشاهدة بكشف الغطاء ، فتضاعف اللذة ، والعيش عيش الآخرة . ﴿ **وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوَانُ** ﴾[1] . وعيش الآخرة بقدر المعرفة ، ولهذا جاء فى الحديث : « **خير الناس من طال عمره وحسن عمله** » وذلك لأن المعرفة إنما تكمل وتكثر وتتسع فى العمر الطويل بمداومة الفكر والذكر ، والمواظبة على المجاهدة ، والانقطاع عن علائق الدنيا ، والتجرد للطلب ، فقد عرفت بما ذكرنا معنى المحبة ، ومعنى لذة المعرفة ، ومعنى الرؤية ولذتها ، ومعنى كونها ألذ من سائر اللذات عند أهل الكمال .

فصل فى بيان الأسباب المقوية لحب الله ــ تعالى ــ وتفاوت الناس فى الحب وبيان السبب فى قصور أفهام الخلق عن معرفة الله ــ تعالى ــ

واعلم : أن أسعد الناس وأحسنهم حالاً فى الآخرة أقواهم حباً لله ــ تعالى ــ، فإن الآخرة معناها القدوم على الله ــ تعالى ــ، ودرك سعادة لقائه . وما أعظم نعيم المحب إذا قدم على محبوبه بعد طول شوقه ، وتمكن من مشاهدته من غير منغص ولا مكدر ، إلا أن هذا النعيم على قدر المحبة ، فكلما ازداد الحب ازدادت اللذة .

---

(١) العنكبوت : ٦٤ .

◉ سبب قوة حب العبد لله :

وأصل الحب لا ينفك عن مؤمن ، لأنه لا ينفك عن أصل المعرفة ، وأما قوة الحب واستيلاؤه ، فذلك ينفك عنه الأكثرون ، وإنما يحصل ذلك بشيئين :

أحدهما : قطع علائق الدنيا ، وإخراج حب غير الله من القلب ، فأحد أسباب ضعف حبه ، قوة حب الدنيا ، وبقدر ما يأنس القلب بالدنيا ينقص أنسه بالله، والدنيا والآخرة ضرتان ، وسبيل قطع الدنيا عن القلب سلوك طريق الزهد ، وملازمة الصبر ، والانقياد إليهما بزمام الخوف والرجاء ، وماذكرناه من المقامات كالتوبة والصبر والشكر والزهد والخوف وغير ذلك .

السبب الثانى لقوة المحبة : معرفة الله ــ تعالى ــ، فإذا حصلت المعرفة تبعتها المحبة ، ولا يوصل إلى هذه المعرفة بعد انقطاع شواغل الدنيا من القلب إلا الفكر الصافى ، والذكر الدائم ، والتشمير فى الطلب ، والاستدلال عليها بأفعاله سبحانه : وأقل أفعاله الأرض وما عليها ، بالإضافة إلى الملائكة وملكوت السموات . والشمس على ما يرى من صغر حجمها مثل الأرض مائة ونيفا وستين مرة ، فانظر إلى صغر الأرض بالإضافة إليها ، ثم انظر إلى صغر الشمس بالإضافة إلى فلكها الذى هى مركوزة فيه وهى فى السماء الرابعة والسماء الرابعة صغيرة بالنسبة إلى ما فوقها من السموات ، ثم السموات السبع فى الكرسى كحلقة ملقاة فى فلاة ، والكرسى فى العرش كذلك .

ثم انظر إلى الآدمى المخلوق من التراب الذى هو جزء من الأرض ، وإلى سائر الحيوانات ، وإلى صغره بالإضافة إلى الأرض ، وأصغر ما تعرفه من الحيوانات البعوض، فانظر فيه بعقل حاضر ، كيف خلقه الله ــ عز وجل ــ على شكل الفيل الذى هو أعظم الحيوانات ، وزاده الجناحين ، وانظر كيف شق سمعه وبصره ، وخلق فى باطنه من أعضاء الغذاء وآلاته ، ودبره فى سائر أحواله ، من القوى الجاذبة والدافعة والهاضمة ، وانظر كيف خلق له الطيران ، يطير إذا طُلب ، وجعل له خرطوماً محدداً يمص به الدم .

وانظر إلى النحل فى تناولها الأزهار من الأنوار ، واحترازها عن الأقذار ، وطاعتها إلى كبيرها ، حتى إنه يقتل كل ما ورد عليه وقد أكل مستقذراً ، وإلى اختيارها الشكل المسدس ، فلا تبنى بيتاً مربعاً ، ولا مستديراً ، ولا مخمساً ، بل مسدساً لخاصيته فى الشكل المسدس ، فإن أوسع الأشكال وأحواها المستدير وما يقرب منه ، فإن المربع تخرج منه الزوايا ضائعة ، ثم لو بناها مستديرة لبقيت خارج البيوت فُرج ضائعة ، فإن الأشكال المستديرة إذا جمعت لم تجتمع متراصة ، فلا شكل فى الأشكال ذوات الزوايا يقرب فى الاحتواء من المستدير ، ثم تتراص الجملة منه ، بحيث لا يبقى بعد اجتماعها فرجة إلى المسدس ، فانظر كيف ألهمه الله ــ تعالى ــ ذلك على صغر حجمه وضعفه ، فاعتبر بهذه اللمعة اليسيرة من محقرات

الحيوانات ، فالنظر فى هذا وأشباهه تزداد المعرفة به ، فتزداد المحبة . وأما السبب فى تفاوت الناس فى الحب .

فاعلم أن الناس مشتركون فى أصل الحب ، لكنهم يتفاوتون لتفاوت المعرفة ، فكثير من الناس ليس لهم من معرفة الله ــ تعالى ــ إلا الصفات والأسماء التى قرعت أسماعهم ، والعالم البصير يطالع تفصيل صنع الله ــ تعالى ــ حتى يرى ما يبهر عقله ، فتزداد عظمة الله فى قلبه ، فيزداد حباً له ، وتجر هذه المعرفة التى هى معرفة عجائب صنع الله ــ تعالى ــ إلى بحر لا ساحل له . وأما السبب فى قصور أفهام الخلق عن معرفة الله ــ تعالى ــ، فاعلم أن كل من صنع شيئاً دل المصنوع على وجود صانعه ، وعلى علمه وحياته وقدرته دلالة جلية ظاهرة ، وإن كانت هذه الصفات لا تدرك بشىء من الحواس الخمس . فوجود الله ــ سبحانه وتعالى ــ وقدرته وعلمه وسائر صفاته يشهد له بالضرورة كل ما نشاهد من حجر وشجر ومدر ونبات وحيوان وأرض وسماء وكوكب وبر وبحر ، بل أول شاهد علينا أنفسنا وأجسامنا ، وتقلب أحوالنا ، وتغير قلوبنا ، وجميع أطوارنا فى حركاتنا وسكناتنا

وجميع ما فى العالم شواهد ناطقة ، وأدلة شاهدة بوجود خالقها ومدبرها ومصرفها ومحركها ، ودالة على علمه وقدرته وحياته ولطفه وحكمته وعظمته وجلاله ، إذ كل ذرة تنادى بلسان حالها : إنه ليس وجودها بنفسها ، وإنها تحتاج إلى موجد لها ، لكن عقولنا بالنسبة إلى إدراك الحضرة الإلٰهية ، كالخفاش ، بالنسبة إلى النهار ، فإنه لضعف بصره يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار ، وليس عدم إبصاره بالنهار لخفائه ، بل لشدة ظهوره واستنارته وضعف أعين الخفاش ، فكذلك عقولنا ضعيفة عن إدراك الحضرة الإلٰهية ، فسبحان من احتجب بإشراق نوره ، واختفى به عن البصائر والأبصار ، فهذا هو السبب فى قصور الأفهام عن معرفة الله ــ سبحانه وتعالى ــ، وانضم إلى ذلك أيضاً أن المدركات الشاهدة لله ــ تعالى ــ، إنما يدركها الإنسان فى حال الصبا قبل حضور العقل عنده ، ثم تبدو فيه غريزة العقل قليلاً قليلاً ، وهو مستغرق الهم ، مشغول به ، وقد أنس بمدركاته وألفها ، فسقط وقعها عن قلبه بطول الأنس .

وكذلك إذا رأى فجأة حيواناً غريباً ، أو نباتاً ، أو فعلاً من أفعال الله ــ تعالى ــ عجيباً خارقاً للعادة ، انطلق لسانه بالتعجب ، فقال : سبحان الله ! سبحان الله ! وهو يرى طول النهار نفسه ، وجميع أعضائه ، وجميع الحيوانات المألوفة ، وكلها شواهد قاطعة ، فلا يحس بشهادتها لطول الأنس بها . ولو فرض أن أعمى بلغ عاقلاً ، ثم انقشعت غشاوة عينه ، فامتد بصره إلى السماء والأرض ، والأشجار ، والنبات ، والحيوان دفعة واحدة ، لخيف على عقله أن ينبهر ، لعظم تعجبه من مشاهدة هذه العجائب ، وشهادتها لخالقها ، فهذا وأمثاله من

الأسباب مع الانهماك فى الشهوات ، وهو الذى سد على الخلق فى سبيل الاستضاءة بنور المعرفة ، والسباحة فى بحارها الواسعة ، والله أعلم وأحكم .

● فصل فى بيان معنى الشوق إلى الله -تعالى-

قد تقدم الكلام فى المحبة وإثباتها بالأدلة ، وأن الشوق ثمرة من ثمارها ، فإن من أحب شيئاً اشتاق إليه .

واعلم : أن الشوق لا يتصور إلا لشىء أدرك من وجه ولم يدرك من وجه . فأما ما لا يدرك أصلاً ، فلا يشتاق إليه ، وكمال الإدراك بالرؤية ، وإنما يكون ذلك فى الآخرة .

واعلم : أن الأمور الإلٰهية لا نهاية لها ، وإنما يكشف لكل عبد من العباد بعضها ، ويبقى أمور لا نهاية لها ، والعارف يعلم وجودها ، وكونها معلومة لله ــ تعالى ــ، ويعلم أن ما غاب عن علمه من المعلومات أكثر مما حضر ، فلا يزال العبد متشوقاً إلى أن يحصل له أصل المعرفة ، وينتهى الشوق الأول فى الدار الآخرة بالمعنى الذى يسمى رؤية ومشاهدة ، ولا يتصور أن يسكن قلب المشتاق فى الدنيا . وكان إبراهيم بن أدهم من المشتاقين ، فقال يوماً : ياربِّ ! إن كنت أعطيت أحداً من المحبين لك ما يسكن به قلبه قبل لقائك فأعطنى ، فقد أضر بى القلق . قال : فرأيته ــ عز وجل ــ فى النوم ، فقال : ياإبراهيم ! أما استحييت منى ؟! تسألنى أن أعطيك ما يسكن به قلبك قبل لقائى ، وهل يسكن قلب المشتاق قبل لقاء حبيبه ؟ فقلت : يارب : تُهْتُ فى حبك فلم أدر ما أقول ، فهذا الشوق يسكن فى الآخرة . وأما غير ذلك مما هو معلوم لله فلا نهاية له ، فلا يتضح للعبد ولا يحيط به ، فهو مشغول بلذة ما ظهر له ، ولا يزال النعيم واللذة متزايدين حتى يشتغل عن الإحساس بالشوق إلى ما وراء ذلك ، فهذا القدر من أنوار البصائر كاشف لحقائق الشوق ومعانيه .

ومن شواهد الأخبار ، ما روى أن رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ علم رجلاً دعاء ، وأمره أن يتعاهد به أهله كل يوم ، فذكر فيه : « **أسألك اللهم الرضى بعد القضاء ، وبرد العيش بعد الموت ، ولذة النظر إلى وجهك ، وشوقاً إلى لقائك** » . وفى التوراة : يقول الله ــ تعالى ــ: طال شوق الأبرار إلى لقائى ، وأنا إلى لقائهم أشد شوقاً . وفى بعض ما أوحى الله ــ عز وجل ــ إلى بعض عباده : إن لى عباداً من عبادى ، يحبونى وأحبهم ، وأشتاق إليهم ويشتاقون إلىَّ ، ويذكرونى وأذكرهم ، فإن حذوت طريقهم أحببتك ، وإن عدلت عنهم مقتك . قال : يارب ! وما علامتهم ؟ قال : يرعون الظلال بالنهار ، كما يرعى الراعى الشفيق غنمه ؟ ويحنون إلى غروب الشمس كما تحن الطير إلى أوكارها عند الغروب ، فإذا جنهم الليل ، واختلط الظلام ، وفرشت الفرش ، وخلا كل حبيب بحبيبه ، نصبوا أقدامهم ، وافترشوا وجوههم ، وناجونى بكلامى ، وتملقونى بإنعامى، فبين صارخ وباكٍ ،

وبين متأوه وشاكٍ ، وبين قائم وقاعد ، وبين راكع وساجد ، بعيني ما يتحملون من أجلى ، وبسمعى ما يشكون من حبى .

● فصل فى بيان محبة الله -تعالى- للعبد ومعناها وبيان علامات محبة العبد لله -تعالى-

وأما محبة الله ــ تعالى ــ للعبد . فاعلم : أن شواهد القرآن متظاهرة على ذلك ، كقوله ــ تعالى ــ: ﴿ **إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ** ﴾[1] ، ﴿ **إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِهِ صَفًّا** ﴾[2] . الآية . ونبه على أنه لايعذب من يحبه ، لأنه رد على من ادعى أنه حبيبه بقوله : ﴿ **قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبكم بِذنوبِكُم** ﴾[3] . وشرط للمحبة غفران الذنوب فقال : ﴿ **قُلْ إِنْ كُنْتُم تُحبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِر لَكُم ذُنوبَكُمْ** ﴾[4] . وفى الحديث الصحيح ، من رواية أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ عن رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: إن الله ــ تعالى ــ يقول : « **مايزال عبدى يتقرب إلَىّ بالنوافل حتى أحبه** » ، إلى آخره . وهو حديث مشهور[5] . ومن علامة حب الله ــ تعالى ــ للعبد ، قول النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « **إن الله إذا أحب عبداً ابتلاه** »[6] .

ومن أقوى العلامات ، حسن التدبير له ، يربيه من الطفولة على أحسن نظام ، ويكتب الإيمان فى قلبه . وينور له عقله ، فيتبع كل ما يقربه ، وينفر عن كل ما يبعد عنه ، ثم يتولاه بتيسير أموره، من غير ذل للخلق ، ويسدد ظاهره وباطنه ، ويجعل همه هماً واحداً ، فإذا زادت المحبة ، شغله به عن كل شيء .

وأما محبة العبد لله ــ تعالى ــ. فاعلم : أن المحبة يدعيها كل أحد ، فما أسهل الدعوى وأعز المعنى ، فلا ينبغى أن يغتر الإنسان بتلبيس الشيطان ، وخداع النفس إذا ادعت محبة الله ــ تعالى ــ، ما لم يمتحنها بالعلامات ، ويطالبها بالبراهين ، فمن العلامات حب لقاء الله ــ تعالى ــ فى الجنة ، فإنه لا يتصور أن يحب القلب محبوباً إلا ويحب لقاءه ومشاهدته ، وهذا لا ينافى كراهة الموت ، فإن المؤمن يكره الموت ، ولقاء الله بعد الموت . ومن السلف من أحب الموت ، ومنهم من كرهه ، إما لضعف محبته ، أو لكونها مشوبة بحب شيء من الدنيا ، أو لأنه يرى ذنوبه فيحب أن يبقى ليتوب . ومنهم من يرى نفسه فى ابتداء مقام المحبة ، فيكره عجلة الموت قبل أن يستعد للقاء الله ــ تعالى ــ، وهذا كمحب يصله الخبر بقدوم حبيبه عليه ، فيحب أن يتأخر قدومه ساعة ليهيء له داره ، ويعدل له أسبابه ، فيلقاه كما يهواه ، فارغ القلب عن الشواغل ، خفيف الظهر عن العوائق ، فالكراهة بهذا السبب

---

(١) البقرة : ٢٢٢ . (٢) الصف : ٤ . (٣) المائدة : ١٨ . (٤) آل عمران : ٣١ .
(٥) تقدم تخريجه . (٦) فى كنز العمال [٦٨١٦] عزاه للبيهقى فى شعب الإيمان .

لا تنافى كمال المحبة ، وعلامة هذا : الدءوب فى العمل ، واستغراق الهم فى الاستعداد .

ومنها أن يكون مؤثراً ما أحبه الله ـــ تعالى ـــ على ما يحبه فى ظاهره وباطنه ، فيجتنب اتباع الهوى ، ويعرض عن دعة الكسل ، ولا يزال مواظباً على طاعة الله ـــ تعالى ـــ متقرباً إليه بالنوافل .

ومن أحب الله فلا يعصيه ، إلا أن العصيان لا ينافى أصل المحبة ، إنما يضاد كمالها ، فكم من إنسان يحب الصحة ويأكل ما يضره ، وسببه أن المعرفة قد تضعف والشهوة قد تغلب ، فيعجز عن القيام بحق المحبة ، ويدل على ذلك حديث نعيمان أنه كان يؤتى به إلى رسول الله ـــ صلى الله عليه وآله وسلم ـــ فيحده(*) إلى أن أتى به يوماً ، فحده ، فلعنه رجل وقال : ما أكثر ما يؤتى به ! فقال رسول الله ـــ صلى الله عليه وآله وسلم ـــ: « **لا تلعنه ، فإنه يحب الله ورسوله** »(١) فلم تخرجه المعصية عن المحبة ، وإنما تخرجه عن كمال المحبة . ومن العلامات أن يكون مُسْتَهْتِراً بذكر الله ـــ تعالى ـــ، لا يفتر عنه لسانه ، ولا يخلو عنه قلبه ، فإن من أحب شيئاً أكثر من ذكره بالضرورة ، ومن ذكر ما يتعلق به . فعلامة حب الله ـــ تعالى ـــ حب ذكره ، وحب القرآن الذى هو كلامه ، وحب رسول الله ـــ صلى الله عليه وآله وسلم ـــ.

قال الله ـــ تعالى ـــ: ﴿ **قُلْ إِنْ كُنتُم تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُم** ﴾(٢) . وقال بعض السلف : كنت قد وجدت حلاوة المناجاة ، فكنت أدمن قراءة القرآن ، ثم لحقتنى فترة فانقطعت ، فرأيت فى المنام قائلاً يقول :

إن كنت تزعمُ حبى فلِمْ هجرت كتابى
أما تدبرت ما فيه من لطيف عتابى

ومنها أن يكون أنسه بالخلوة ، ومناجاة الله ـــ تعالى ـــ، وتلاوة كتابه ، فيواظب على التهجد ، ويغتنم هدوء الليل وصفاء الوقت بانقطاع العوائق ، فإن أقل درجات الحب التلذذ بالخلوة بالحبيب ، والتنعم بمناجاته . روى أن عابداً عبد الله فى غيضة دهراً ، فنظر إلى طائر قد عشش فى شجرة يأوى إليها ، ويصفر عندها . فقال : لو حولت مسجدى إلى تلك

(*) يقيم عليه الحد ، لأنه كان يشرب الخمر .

(١) عزاه العراقى لابن عبد البر فى الاستيعاب من طريق الزبير بن بكار من رواية محمد بن عمرو بن حزم مرسلاً ، ومحمد هذا وُلد فى حياته ـــ ﷺ ـــ وسماه محمداً وكناه عبد الملك ، وللبخارى من حديث عمر أن رجلاً على عهد رسول الله ـــ ﷺ ـــ كان اسمه عبد الله وكان يلقب حماراً ، وكان يُضحك رسول الله ـــ ﷺ ـــ وكان قد جلده فى الشراب فأتى به يوماً فأمر به فجُلد ، فقال رجل من القوم : اللّهم العنه ما أكثر ما يؤتى به ، فقال النبى ـــ ﷺ ـــ : « لا تلعنوه فوالله ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله » ، من حديث أبى هريرة فى رجل شرب ولم يسم ، وفيه : « لا تعينوا عليه الشيطان » ، وفى رواية : « لا تكونوا عون الشيطان على أخيكم » [١٢١/٣] .

(٢) آل عمران : ٣١ .

obeikandi.com

الشجرة كنت آنس بصوت هذا الطائر ، ففعل ، فأوحى الله ــ تعالى ــ إلى نبيهم : « **قل لفلان العابد : استأنست بمخلوق ، لأحطنك درجة لا تنالها بشيء من عملك أبداً** » . فإذن علامةَ المحبة ، كمال الأنس بمناجاة المحبوب ، وكمال التنعم بالخلوة ، وكمال الاستيحاش من كل ما ينقض عليه الخلوة . ومتى غلب الحب والأنس صارت الخلوة والمناجاة قرة عين تدفع جميع الهموم ، بل يستغرق الحب والأنس قلبه ، حتى لا يفهم أمور الدنيا ، ما لم تتكرر على سمعه مراراً ، مثل العاشق الولهان . ومنها أن يتأسف على ما يفوته من ذكر الله ــ تعالى ــ، ويتنعم بالطاعة ، لا يستثقلها ، ويسقط عنه تعبها . قال ثابت البنانى ــ رحمه الله ــ: كابدت الصلاة عشرين سنة ، وتنعمت بها عشرين سنة . وقال الجنيد : علامة المحبة دوام النشاط ، والدءوب بشهوة يفتر بدنه ولا يفتر قلبه ، وكل هذا موجود المثال فى المشاهدات ، فإن المحب لا يستثقل السعى فى مراد محبوبه ، ويستلذ خدمته بقلبه ، وإن كان شاقاً على بدنه ، وكل حب قاهر لا محالة ، فمن كان محبوبه أحب إليه من الكسل ، ترك الكسل فى خدمته ، وإن كان أحب إليه من المال ، ترك المال فى حبه .

ومنها أن يكون شفيقاً على جميع عباد الله ، رحيماً بهم ، شديداً على أعدائه ، كما قال ــ تعالى ــ: ﴿ **أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُم** ﴾[1] ولا تأخذه فى الله لومة لائم ، ولا يصرفه عن الغضب له صارف ، فهذه علامات المحبة ، فمن اجتمعت فيه فقد تمت محبته ، وصفا فى الآخرة شرابه ، ومن امتزج بحبه حب غير الله ، تنعم فى الآخرة بقدر حبه ، فيمزج شرابه بشيء من شراب المقربين ، كما قال ــ عز وجل ــ: ﴿ **إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ** ﴾[2] إلى قوله : ﴿ **يُسْقَوْنَ من رَحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ۝ وَمِزَاجُهُ من تَسْنِيمٍ ۝ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ** ﴾[3] . فقوبل الخالص بالصرف ، والمشوب بالمشوب . ﴿ **فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ۝ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ** ﴾[4] .

ومنها أن يكون فى حبه خائفاً بين الهيبة والتعظيم ، فإن الخوف لا يضاد المحبة ، ولخصوص المحبين مخاوف فى مقام المحبة ليست لغيرهم ، وبعضها أشد من بعض ، فأولها خوف الإعراض ، وأشد منه خوف الحجاب ، وأشد منه خوف الإبعاد . ومنها كتمان الحب ، واجتناب الدعوى ، والتوقى من إظهار الوجد والمحبة ، تعظيماً للمحبوب ، وإجلالاً له ، وهيبة وغيرة على سره ، فإن الحب سر من أسرار الحبيب . وقد يقع المحب فى دهش وسكر ، فيظهر عليه الحب من غير قصد ، فهو فى ذلك معذور ، كما قال بعضهم .

ومن قلبه مع غيره كيف حاله ومن سره فى جفنه كيف يكتم

---

(١) الفتح : ٢٩ . (٢) المطففين : ٢٢ . (٣) المطففين : ٢٥ ــ ٢٨ . (٤) الزلزلة : ٧ ، ٨ .

فصل فى بيان معنى الأنس بالله والرضى بقضاء الله ـ عز وجل ـ

اعلم ؛ أن من غلب عليه حال الأنس لم تكن شهوته إلا فى الانفراد والخلوة ، لأن الأنس بالله يلازمه التوحش من غيره ، ويكون أثقل الأشياء على القلب كل ما يعوق عن الخلوة . قال عبد الواحد بن زيد : قلت لراهب : لقد أعجبتك الخلوة ، فقال : لو ذقت حلاوة الخلوة لاستوحشت إليها من نفسك ، قلت : متى يذوق العبد حلاوة الأنس بالله ـ تعالى ـ؟ قال : إذا صفا الود ، خلصت المعاملة . قلت : متى يصفو الود ؟ قال : إذا اجتمع الهم ، فصار هماً واحداً فى الطاعة . فإن قيل : ما علامة الأنس ؟ قيل : علامته الخاصة ضيق الصدر عن معاشرة الخلق ، والتبرم بهم ، وإن خالط ، فهو كمنفرد غائب مخالط بالبدن ، منفرد بالقلب .

واعلم : أن الأنس إذا دام وغلب واستحكم ، قد يثمر نوعاً من الانبساط والإدلال ، وقد يكون ذلك منكراً فى الصورة ، لما فيه من الجراءة وقلة الهيبة ، وإن كان محتملاً ممن أقيم مقام الأنس ، وأما إذا صدر ممن لا يفهم ذلك المقام ، أشرف به على صاحبه على الكفر ، وذلك كما يروى عن أبى حفص أنه كان يمشى يوماً ، فاستقبله رجل مدهوش(*) ، فقال : مالك ؟ قال : ضل حمارى ، ولا أملك غيره ، فوقف أبو حفص وقال : وعزتك لا أخطو خطوة ما لم ترد عليه حماره ، فظهر الحمار . وروى عن برخ العابد أنه خرج يستسقى فقال : يارب : أنت بالبخل لا ترمى ، أنفذ ما عندك ، اسقنا الساعة .

ولا يستبعد أن يحتمل من شخص ما لم يحتمل من غيره ، وأما **الرضى** بقضاء الله ـ تعالى ـ، فهو من أعلى مقامات المقربين ، وهو من ثمار المحبة ، وحقيقته غامضة ، ولا ينكشف الأمر فيه إلا لمن يفهمه عن الله ـ تعالى ـ. ومن فضائل الرضى ما ورد فى الحديث أن النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ قال : « **إذا أراد الله بعبد خيراً أرضاه بما قسم له** »(١) . وأوحى الله ـ تعالى ـ إلى داود ـ عليه السلام ـ: ياداود : « **إنك لن تلقانى بعمل هو أرضى لى عنك ، ولا أحط لوزرك ، من الرضى بقضائى** » . ونظر على ابن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ إلى عدى بن حاتم كئيباً ، فقال : ياعدى : ما لى أراك كئيباً حزيناً ؟ فقال : وما يمنعنى فقد قتل ابناى ، وفقئت عينى فقال : ياعدى ! من رضى بقضاء الله جرى عليه وكان له أجر ، ومن لم يرض بقضاء الله جرى عليه وحبط عمله . ودخل أبو الدرداء ـ رضى الله عنه ـ على رجل وهو يموت وهو يحمد الله ـ تعالى ـ، فقال أبو الدرداء : أصبت ، إن الله ـ عز وجل ـ إذا قضى قضاء أحب أن يرضى به .

وقال ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ: إن الله ـ تعالى بقسطه وعمله جعل الرَّوح والفرح

(*) دَهِش الرجلُ : تحيَّر . (١) الحديث فى مسند الفردوس للديلمى برقم [٩٤٦] .

فى اليقين والرضى ، وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط . وقال علقمة فى قوله ــ عز وجل ــ: ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾[1] . قال : هى المصيبة تصيب الرجل، فيعلم أنها من عند الله ، فيسلم لها ويرضى .وقال أبو معاوية الأسود فى قوله ــ تعالى ــ: ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾[2] . قال : الرضى والقناعة . وفى الخبر : إن نبياً من الأنبياء شكا إلى ربه ــ عز وجل ــ الجوع والفقر عشر سنين ، فما أجيب إلى ما أراد ، ثم أوحى الله إليه : **« كم تشكو ؟ هكذا كان بدؤك عندى فى أم الكتاب قبل أن أخلق السماوات والأرض ، وهكذا سبق لك منى ، وهكذا قضيت عليك قبل أن أخلق الدنيا ، أفتريد أن أعيد خلق الدنيا من أجلك ؟ أم تريد أن أبدل ما قدرت لك ؟ فيكون ما تحب فوق ما أحب ، ويكون ما تريد فوق ما أريد، وعزتى وجلالى ؛ لئن تلجلج هذا فى صدرك مرة أخرى لأمحونك من ديوان النبوة »** .

وفى « زبور داود » عليه السلام : **« هل تدرى من أسرع الناس مَرًّا على الصراط ؟ الذين يرضون بحكمى وألسنتهم رطبة من ذكرى »** . وقال داود ــ عليه السلام ــ: **« يارب ! أىُّ عبادك أبغض إليك ؟ قال : عبد استخارنى فى أمر ، فخرت له ، فلم يرض** . وقال عمر بن عبد العزيز : **ما بقى لى سرور إلا فى مواقع القدر . وقيل له : ما تشتهى ؟ فقال : ما يقضى الله ــ عز وجل ــ.**

وقال الحسن : من رضى بما قسم له ، وسعه ، وبارك الله فيه ، ومن لم يرض لم يسعه ، ولم يبارك له فيه . وقال عبد الواحد بن زيد : الرضى باب الله الأعظم ، وجنة الدنيا ، ومستراح العابدين ، وقال بعضهم : لن يرد الآخرة أرفع دجات من الراضين عن الله ــ تعالى ــ على كل حال ، فمن وهب له الرضى ، فقد بلغ أفضل الدرجات . وأصبح أعرابى وقد مات له أباعر كثيرة ، فقال :

لا والذى أنا عبد فى عبادته ... لولا شماتة أعداء ذوى إحن
ما سرنى أن إبلى فى مباركها ... وأن شيئاً قضاه الله لم يكن

● فصل يتصور الرضى فيما يخالف الهوى

ويتصور الرضى فما يخالف الهوى . وبيان ذلك إذا جرى على الإنسان الألم ، فتارة يحس به ويدرك ألمه ، ولكنه يكون راضياً به ، راغباً فى زيادته بعقله ، وإن كان كارهاً له بطبعه لما يوصله من الثواب . مثاله أن يلتمس من الحجام الحجامة والفصد ، فإنه يدرك ألم ذلك ، إلا أنه راضٍ به ، وراغب فيه ومتقلد منة الحجام . وكذلك كل من يسافر فى طلب الربح ، فإنه يدرك مشقة السفر ، لكن حبه لثمرة سفره طيب عنده تلك المشقة ، وجعله راضياً بها ، وكل من أصابه بلية من الله ــ تعالى ــ وكان له يقين ، فإنه يتوقع

(١) التغابن : ١١ . (٢) النحل : ٩٧ .

الأجر فوق ما فاته ، فيرضى بما أصابه ، ويشكر الله ــ تعالى ــ عليه ، ويجوز أن يغلبه الحب ، بحيث يكون حظ المحب فى مراد محبوبه ، ويبطل الإحساس بالألم لفرط الحب ، وليس ذلك بعجيب ، فإن الرجل المحارب فى حال غضبه أو خوفه ، تصيبه الجراحات ولا يحس بها ، ولا يشعر بها فى تلك الحال ، وذلك لأن قلبه مستغرق ، وإذا كان القلب مستغرقاً بأمر من الأمور لم يدرك ما عداه ، وذلك موجود فى المشاهدات .

قال الجنيد ــ رحمه الله ــ: سألت سرياً : هل يجد المحب ألم البلاء ؟ قال : لا . وقد روينا عن خلق كثير من أهل البلاء ، أنهم كانوا يقولون : لو قطعنا إرباً إرباً ، ما ازددنا له إلا حباً . وقد تقدم أن فرط الحب يزيل إحساس الألم ، وهو متصور فى حب الخلق ، كما حكى بعضهم . قال : كان فى جيراننا رجل له جارية يحبها ، فاعتلت(*) ، فجلس يصلح لها حَسَاءً ، فبينما هو يحرك القدر ، قالت : أوه ، فدهش وسقطت الملعقة من يده ، وجعل يحرك القدر بيده حتى تساقطت أصابعه وهو لا يعلم . ويؤيد هذا قصة النسوة حين شاهدن يوسف ــ عليه السلام ــ، فإنهن قطعن الأيدى ، وما أحسسن بألم ، فقد بان بما ذكرنا أن الرضى بما يخالف الهوى ليس مستحيلاً ، وإذا كان ذلك ممكناً فى حق الخلق وحظوظهم ، كان ممكناً فى حق الله ــ سبحانه ــ، وحظوظ الآخرة بطريق الأولى . وإمكان ذلك فى ثلاثة أوجه :

● ***أحدها*** : علم المؤمن بأن تدبير الله ــ تعالى ــ خير من تدبيره . وقد قال النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « **ما قضى الله لمؤمن من قضاء إلا كان خيراً له** ». وعن مكحول قال : سمعت ابن عمر ــ رضى الله عنه ــ يقول : إن الرَّجل يستخير الله فيختار له ، فيسخط فلا يلبث أن ينظر فى العاقبة ، فإذا هو قد خير له . وعن مسروق قال : كان رجل بالبادية له كلب وحمار وديك ، فالديك يوقظ للصلاة ، والحمار ينقلون عليه الماء ويحمل خباءهم ، والكلب يحرسهم . فجاء الثعلب فأخذ الديك ، فحزنوا ، فقال الرجل : عسى أن يكون خيراً ، ثم جاء ذئب فخرق بطن الحمار ، فحزنوا ، فقال الرجل : عسى أن يكون خيراً ، ثم أصيب الكلب فحزنوا فقال الرجل عسى أن يكون خيراً ثم أصبحوا ذات يوم ، فنظروا فإذا قد سبى من حولهم وبَقُوا هُمْ ، وإنما أخذ أولئك بما كان عندهم من الصوت والجلبة ، ولم يكن عند أولئك شيء يجلب ، قد ذهب كلبهم وحمارهم وديكهم .

وعن سعيد بن المسيب قال : قال لقمان لابنه : يابنى : لاينزلن بك أمر رضيته أو كرهته ، إلا جعلت فى الضمير أن ذلك خير لك . قال: أما هذه فلا أقدر أن أعطيكها دون أن أعلم ما قلت أنه كما قلت . قال : يابنى : فإن الله قد بعث نبياً هلم حتى نأتيه ، فعنده بيان ما قلت لك . قال : اذهب بنا إليه ، فخرج على حمار وابنه على حمار ، وتزودوا ما يصلحهما ، ثم سارا أياماً ولياليَ ، حتى تلقتهما مفازة، فأخذا أهبتهما ودخلاها ، فسارا ما

(*) مرضت .

شاء الله أن يسيراً ، حتى تعالى النهار واشتد الحر ونفد الماء والزاد ، فاستبطآ حماريهما ، فنزلا يمشيان ، فبينما هما كذلك ، إذ نظر لقمان أمامه ، فإذا هو بسواد ودخان ، فقال فى نفسه : السواد شجر ، والدخان عمران وناس ، فبينا هما كذلك يشهدان ، إذ وطىء ابن لقمان على عظم على الطريق ، فدخل فى باطن قدمه حتى ظهر من أعلاها ، فخر مغشياً عليه ، فحانت من لقمان التفاتة ، فإذا هو بابنه صريع ، فوثب إليه فضمه إلى صدره ، واستخرج العظم بأسنانه ، وشق عمامة كانت عليه فعصب رجله ، ثم نظر إلى وجه ابنه فذرفت عيناه ، فقطرت قطرة من دموعه على خد الغلام فانتبه لها ، فنظر إلى أبيه يبكى ، فقال : ياأبت : أنت تبكى وأنت تقول : هذا خير لى ، فكيف ذلك وأنت تبكى ؟! وقد نفد الطعام والشراب وبقيت أنا وأنت فى هذا المكان . قال : أما بكائى يابنى ، فوددت أنى افتديتك بجميع حظى من الدنيا ، ولكنى والد ومنى رقة الوالد . وأما قولك : كيف يكون هذا خيراً لى ؟ فلعل ما صرف عنك أعظم مما ابتليت به ، ولعل ما ابتليت به أيسر مما صرف عنك ، فبينما هو يحاوره ، إذ نظر لقمان أمامه ، فلم ير الدخان والسواد ، فقال فى نفسه : لم أر شيئاً ، ثم قال : قد رأيت ، ولكن لعله أن يكون قد أحدث ربى بما رأيت شيئاً ، فبينما هو يتفكر فى ذلك ، إذ نظر فإذا هو بشخص قد أقبل على فرس أبلق ، عليه ثياب بيض ، يمسح الهواء مسحاً . فلم يزل يرمقه بعينيه حتى كان منه قريباً، فتوارى عنه ثم صاح به فقال : أنت لقمان ؟ قال : نعم . قال : ما قال لك ابنك هذا السفيه ؟ قال : ياعبد الله من أنت ؟، ما أسمع كلامك ولا أرى وجهك ؟ قال : أنا جبريل ، لا يرانى إلا ملك مقرَّب ، أو نبى مرسل ، لولا ذلك لرأيتنى ، فما قال لك ابنك هذا السفيه ؟ قال : أما علمت ذلك ؟ فقال جبريل : ما لى بشىء من أمركما علم ، إلا أن حفظتكما أتونى ، وقد أمرنى ربى تعالى بخسف هذه المدينة وما فيها ومن يليها ، فأخبرونى أنكما تريدان هذه المدينة ، فدعوت ربى أن يحسبكما عنى بما شاء ، فحبسكما عنى بما ابتلى به ابنك ، ولولا ذلك لخسف بكما مع من خسف به ، ثم مسح جبريل ــ عليه السلام ــ بيده على قدم الغلام ، فاستوى قائماً ، ومسح يده على الذى كان فيه الطعام فامتلأ طعاماً ، ومسح على الذى كان فيه ماء فامتلأ ماء ، ثم حملهما وحماريهما فرحل بهما كما يرحل الطير ، فإذا هما فى الدار التى خرجا منها بعد أيام وليالى .

● ***الوجه الثانى*** : الرضى بالألم ، لما يتوقع من الثواب المدخر ، كما تقدم من الرضى بالفصد والحجامة وشرب الأدوية انتظاراً للشفاء .

● ***الوجه الثالث*** : الرضى به لا لحظ وراءه ، بل لكونه مراد المحبوب ، فيكون ألذ الأشياء عنده ما فيه رضى محبوبه ، ولو كان فى ذلك هلاك نفسه ، كما قال بعضهم : فما لجرح إذا أرضاكم ألم . وقد سبق أن الحب يستولى بحيث يدهش عن إدراك الألم ، ولا ينبغى أن

ينكر ذلك من فقده من نفسه ، لأنه إنما فقده لفقد سببه ، وهو فرط حبه ، ومن لم يذق طعم الحب لم يعرف عجائبه ، ولعمرى إن من فقد السمع أنكر لذة الألحان والنغمات ، فمن فقد القلب ، فلابد أن ينكر هذه اللذات التى لا مظنة لها سوى القلب .

● فصل فى ان الدعاء لا يناقض الرضى

واعلم : أن الدعاء لا يناقض الرضى ، وكذلك كراهة المعاصى ومقت أهلها وأسبابها ، والسعى فى إزالتها . أما الدعاء ، فقد تعبدنا الله ــ تعالى ــ به ، وقد أثنى الله ــ تعالى ــ على بعض عباده بقوله : ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾[1] . ودعاء رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ وغيره من الأنبياء والصالحين معلوم . وأما إنكار المعاصى وعدم الرضى بها ، فقد تعبدنا الله ــ تعالى ــ به ، وذم الراضى به ، وكذلك بغض الكفار والفجار ، والإنكار عليهم ،وشواهد ذلك فى القرآن والأخبار كثيرة جداً . فإن قيل : فقد وردت الأخبار بالرضى بقضاء الله ــ تعالى ــ، فإن كانت المعاصى بغير قضاء الله ــ تعالى ــ، فهو محال ، وإن كانت بقضائه ، فكراهتها كراهة لقضائه ، فكيف الجمع بين هذين الحالين .

فاعلم أن هذا مما يلتبس على القاصرين على الوقوف على أسرار العلم ، حتى التبس على قوم ، فرأوا السكوت عن الإنكار مقاماً من مقامات الرضى ، وسموه حسن الخلق ، وهو جهل محض ، بل نقول : الرضى والكراهة يتضادان ، إذا تواردا على شىء واحد ، من جهة واحدة ، على وجه واحد . فأما إذا رضيت بشىء من وجه ، وكرهته من وجه آخر ، فليس ذلك بمتضاد ، نحو أن يموت عدوك الذى هو أيضاً عدو لبعض أعدائك ، وساع فى إهلاكه ، فتكره موته من حيث إنه مات عدو عدوك ، وترضاه من حيث إنه عدوك ، وكذلك للمعصية وجهان : وجه إلى الله ــ تعالى ــ، من حيث إنها اختياره وإرادته ، فترضى بها من هذا الوجه تسليماً للملك إلى مالك الملك ، ووجه إلى العبد من حيث إنه كسبه ووصفه وعلامة لكونه ممقوتاً عند الله ــ تعالى ــ وبغيضاً عنده ، حيث سلط عليه أسباب البعد والمقت ، فهو من هذا الوجه منكر ومذموم ، ولا ينكشف هذا إلا بمثال ، فلنفرض محبوباً من الخلق قال بين يدى محبه : إنى أريد أن أميز بين من يحبنى ويبغضنى ،وأنصب لذلك معياراً صادقاً ، وهو أنى أقصد إلى فلان فأضربه ضرباً شديداً يضطره ذلك إلى الشتم لى ، حتى إذا شتمنى أبغضته واتخذته عدواً ، فكل من أحبه علمت أنه أيضاً عدو لى ، وكل من أبغضه علمت أنه محبى وصديقى ، ثم فعل ذلك وحصل مراده من الشتم الذى هو سبب البغض ، وحصل البغض الذى هو سبب العداوة ، فحق على كل من هو صادق فى محبته أن يقول : أما تدبيرك فى ضرب هذا الشخص وأذاه ، فأنا محب له ، فإنه رأيك وتدبيرك وفعلك ، وأما شتمه إياك من حيث نسبته إلى هذا الشخص ، فإنه عدوان منه وتهجم عليك ، فأنا كاره

(١) الأنبياء : ٩٠ .

له من حيث نسبته إليه إذ كان حقه أن يصبر ولا يشتم ، فكذلك تسليط الله ــ سبحانه وتعالى ــ دواعى الشهوة والمعاصى على العبد ، وبغضه على عصيانه .

فواجب على كل عبد محب لله أن يبغض من أبغضه الله ــ عز وجل ــ، ويعادى من عاداه وأبعده عن حضرته ، وإن اضطره بقهره وقدرته إلى معاداته ومخالفته ، فإنه بعيد مطرود ، والمبعد عن درجات القرب ينبغى أن يكون بغيضا إلى جميع المحبين ، موافقة لمحبوبهم ، بإظهار الغضب على من أظهرالمحبوب الغضب عليه بإبعاده . وبهذا يتقرر جميع ما وردت به الأخبار من البغض فى الله والحب فى الله ، والتشديد على الكفار والتغليظ عليهم ، والمبالغة فى مقتهم ، مع الرضى بقضاء الله ــ تعالى ــ، من حيث إنه قضاؤه ، وهذا كله يستمد من سر القدر الذى لا رخصة فى إفشائه ، وهو أن الخير والشر كلاهما داخلان فى المشيئة والإرادة ، ولكن الشر مراد مكروه ، والخير مراد مرضى به .

والأولى السكوت والتأدب بأدب الشرع ، والوقوف مع ما تعبد به الخلق ، من الجمع بين الرضى بقضاء الله ــ تعالى ــ ومقت المعاصى ، والله ــ تعالى ــ أعلم . ومما يتعلق بالمحبة . قيل : أوحى الله ــ تعالى ــ إلى داود ــ عليه السلام ــ: لو يعلم المدبرون عنى كيف انتظارى لهم ، ورفقى بهم ، وشوقى إلى ترك معاصيهم ، لماتوا شوقاً إلىّ ، وتقطعت أوصالهم من محبتى . ياداود : هذه إرادتى فى المدبرين عنى ، فكيف إرادتى فى المقبلين علىّ ؟ ياداود أحوج ما يكون العبد إلى إذا استغنى عنى ، وأجل ما يكون عندى إذارجع إلىّ . وكانت امرأة متعبدة تقول : والله لقد سئمت الحياة ، حتى لو وجدت الموت يباع لاشتريته شوقاً إلى الله ــ تعالى ــ، وحباً للقائه . فقيل لها : فعلى ثقة أنت من عملك ؟ قالت : لا ، ولكنى لحبى إياه وحسن ظنى به ، أفتراه يعذبنى وأنا أحبه ؟

● باب فى النية والإخلاص والصدق

اعلم : أنه قد انكشف لأرباب القلوب ببصيرة الإيمان وأنوار القرآن أنه لا وصول إلى السعادة إلا بالعلم والعبادة . فالناس كلهم هلكى ، إلا العالمون ، والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون ، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم . فالعمل بغير نية عناء ، والنية بغير إخلاص رياء ، والإخلاص من غير تحقيق هباء . قال الله ــ تعالى ــ: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَاعَمِلُوا من عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾[1] . وليت شعرى ، كيف تصلح نية من لا يعرف حقيقة النية ؟ أو كيف يخلص من صحح النية إذا لم يعرف حقيقة الإخلاص ؟! أو كيف يطالب المخلص نفسه بالصدق إذا لم يتحقق معناه ؟ فالوظيفة الأولى على كل عبد أراد طاعة الله ــ تعالى ــ، أن يعلم النية أولاً ، لتحصل له المعرفة ، ثم يصححها

(١) الفرقان : ٢٣ .

بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق والإخلاص اللّذين هما وسيلتان للعبد إلى النجاة . ونحن نذكر ذلك فى ثلاثة فصول :

● الفصل الأول ●

فى النية وحقيقتها وفضلها وما يتعلق بذلك

قال الله ــ تعالى ــ: ﴿ وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾[1] والمراد بالإرادة : النية . وعن عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ قال : سمعت رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ يقول : « **إنما الأعمال بالنية ، وإنما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه** »[2] .

وعن أبى موسى قال : جاء رجل إلى النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ فقال : يارسول الله أرأيت الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حميّة ، ويقاتل رياءً ، أىُّ ذلك فى سبيل الله ؟ فقال رسول الله ــ صلىّ الله عليه وآله وسلم ــ: « **من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله** » . أخرجاهما فى « الصحيحين »[3] وعن جابر ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « **لقد خلفتم بالمدينة رجالاً ، ما قطعتم وادياً ، ولا سلكتم طريقاً ، إلا شركوكم فى الأجر ، حبسهم المرض** » أخرجه مسلم ، وأخرجه البخارى من حديث أنس[4] . وفى « الصحيحين » من حديث ابن عباس ، عن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ قال : « **من همَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة** »[5] .

وعن أبى كبشة الأنصارى قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: «**مثل هذه الأمة مثل أربعة نفر : رجل آتاه الله مالاً وعلماً ، فهو يعمل به فى ماله ينفقه فى حقه . ورجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالاً ، وهو يقول: لو كان لى مثل مال هذا عملت فيه مثل الذى يعمل ، قال رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ فهما فى الأجر سواء . ورجل آتاه الله مالاً ولم يؤته علماً ، فهو يخبط فيه ، ينفقه فى غير حقه . ورجل لم يؤته مالاً ولا علماً ، فيقول : لو كان لىَ مثل هذا عملت فيه مثل الذى يعمل . قال رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: فهما فى الوزر سواء** »[6] .

---

(١) الأنعام : ٥٢ .

(٢) رواه البخارى فى كتاب « الإيمان » باب « ما جاء إن الأعمال بالنيات » رقم [٥٤] ، مسلم فى « الإمارة » رقم [١٥٥] .

(٣) تقدم تخريجه .

(٤) رواه مسلم فى كتاب « الإمارة » رقم [١٥٩] ، الإمام أحمد فى المسند [٣/٣٠٠] .

(٥) رواه البخارى فى « الرقاق » باب « من هم بحسنة أو بسيئة » رقم [٦٤٩١] ، مسلم فى « الإيمان » رقم [٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٥٩] .

(٦) المسند [٤/٢٣٠ ، ٢٣١] .

وعن أبى عمران الجونى قال : تصعد الملائكة بالأعمال ، فينادى الملك : ألق تلك الصحيفة ، قال : فتقول الملائكة : ربنا قال خيراً وحفظناه عليه . فيقول ــ تبارك وتعالى ــ: إنه لم يرد به وجهى قال وينادى الملك اكتب لفلان كذا وكذا مرتين فيقول يارب إنه لم يعمله ، فيقول ــ عز وجل ــ: إنه قد نواه . وقال عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ: أفضل الأعمال أداءما افترض الله ــ تعالى ــ، والورع عما حرم الله ــ تعالى ــ، وصدق النية فيما عند الله ــ تعالى ــ. وكان بعضهم يقول : دلونى على عمل لا أزال به عاملاً لله ــ تعالى ــ، فقيل له : انو الخير ، فإنك لا تزال عاملاً وإن لم تعمل ، فالنية تعمل وإن عدم العمل ، فإنه من نوى أن يصلى بالليل فنام ، كتب له ثواب ما نوى أن يفعله .

وقد جاء فى الحديث : « **ما من رجل يكون له ساعة من الليل يقومها ، فينام عنها إلا كتب له أجر صلاته ، وكان نومه صدقة تصدق بها عليه**»[1]. وقد جاء فى الحديث:«**نية المؤمن خير من عمله** »[2]. والنية ، والإرادة ، والقصد ، عبارات متواردة على معنى واحد .

◉ واعلم ان الأعمال تنقسم إلى ثلاثة اقسام:

* ***القسم الأول*** : المعاصى فلا تتغير عن موضعها بالنية ، مثل من يبنى مسجداً بمال حرام يقصد بذلك الخير ، فإن النية لا تؤثر فيه ، فإن قصد الخير بالشر شر آخر ، فإن الخيرات إنما تعرف كونها خيرات بالشرع ، فكيف يمكن أن يكون الشر خيراً ، هيهات !

* ***واعلم*** : أن من تقرب من السلاطين ببناء المساجد والمدارس بالمال الحرام ، كان كتقرب علماء السوء بتعليم العلم للسفهاء والأشرار المشغولين بالفسق ، فإن هؤلاء إذاا تعلموا كانوا قطاع طريق الله ــ تعالى ــ، يتكالبون على الدنيا ، ويتبعون الهوى ، ووبال ذلك راجع إلى معلمهم ، إذ علم فساد نياتهم ومقاصدهم . ومن هذا القبيل تعلم القصاص القصص ، فإن مقاصد أكثرهم معروفة ، وقصدهم اجتلاب الدنيا ، وأخذ الأموال كيف اتفق ، فتعليمهم إعانة على الفساد ، فقد علمت أن الطاعة تنقلب معصية بالقصد . وأما المعصية ، فلا تنقلب طاعة بالقصد أصلاً بل إذا انضاف إليها قصد خبيث تضاعف وزرها وعظم وبالها .

* ***القسم الثانى*** : الطاعات ،وهى مرتبطة بالنيات فى أصل صحتها ،وفى تضاعف فضلها ، أما الأصل ، فهو أن ينوى عبادة الله ــ تعالى ــ لا غير ، فإن نوى الرياء صارت معصية . وأما تضاعف الفضل ، فبكثرة النيات الحسنة ، فإن الطاعة الواحدة يمكن أن ينوى بها خيرات كثيرة ، فيكون له بكل نية ثواب ، إذ كل واحدة منها حسنة ، ثم تضاعف كل حسنة عشر أمثالها . مثال ذلك القعود فى المسجد ، فإنه طاعة ، ويمكن أن ينوى بها نيات كثيرة : منها

(١)) المسند [٦٣/٦] .

(٢) الحديث فى مسند الفردوس رقم [٦٨٤٢] ، وفى مجمع الزوائد [٦١/١ ، ١٠٩] عزاه للطبرانى فى الكبير ورجاله موثقون إلا حاتم بن عباد لم أر من ترجم له .

أن ينوى بدخوله انتظار الصلاة ،ومنها الاعتكاف وكف الجوارح ، فإن الاعتكاف كف ، ومنها دفع الشواغل الصارفة عن الله ــ تعالى ــ بالانقطاع إلى المسجد ، وإلى ذكر الله ــ تعالى ــ فيه ، ونحو ذلك ، فهذا طريق تكثير النيات ، فقس على ذلك سائر الطاعات ، إذ ما من طاعة إلا وتحتمل نيات كثيرة .

* ***القسم الثالث*** : المباحات ، فما من شيء من المباحات إلا ويحتمل نية أو نيات ، تصير بها قربات ، وينال بها معالى الدرجات ، فما أعظم خسران من يغفل عنها ويتعاطاها تعاطى البهائم المهملة . ولا ينبغى أن يحتقر العبد الخطرات واللحظات ، فكل ذلك يسأل عنه فى القيامة ، لم فعله ؟ وما الذى قصد به ؟ مثال ما ينوى به القربة من المباحات أن يتطيب ، وينوى بالطيب اتباع السنة ، واحترام المسجد ، ودفع الروائح الكريهة التى تؤذى مخالطيه . وقال الشافعى ــ رحمه الله ــ: من طاب ريحه زاد عقله . وكذلك معالجة رأسه تزيد فطنته وذكاءه ، فيسهل عليه إدراك مهمات دينه .

وقال بعض السلف : إنى لأستحب أن يكون لى فى كل شيء نية ، حتى فى أكلى وشربى ونومى ودخولى الخلاء ، وكل ذلك مما يمكن أن يقصد به التقرب إلى الله ــ تعالى ــ، لأن كل ما هو سبب لبقاء البدن وفراغ القلب من مهمات الدين ، فمن قصد من الأكل التقوى على العبادة ، ومن النكاح تحصين دينه ، وتطييب قلب أهله ، والتوصل إلى ولد يعبد الله بعده ، أثيب على ذلك كله ، ولا تحتقر شيئاً من حركاتك وكلماتك ، وحاسب نفسك قبل أن تحاسب ، وصحح قبل أن تفعل ما تفعله ، وانظر فى نيتك فيما تتركه أيضاً .

واعلم : أن النية هى انبعاث النفس وميلها إلى ما ظهر لها أن مصلحة لها ، إما فى الحال أو المآل ، وربما سمع بعض الجهال ما أوصينا به من تحسين النية ، فقال عند أكله : نويت أن آكل لله ، أو عند قراءته : نويت أن أقرأ لله ، وظن أن ذلك نية ، وليس كذلك ، إنما النية انبعاث القلب ، وتجرى مجرى الفتوح من الله ــ تعالى ــ، وليست النية داخلة تحت الاختيار ، فقد تتيسر فى بعض الأوقات ، وقد تتعذر ، وإنما تتيسر له فى الغالب لمن قلبه يميل إلى الدين دون الدنيا . والناس فى النيات على أقسام : منهم من يكون عمله للطاعة إجابة لباعث الخوف .

ومنهم من يكون عمله إجابة لباعث الرجاء . وثمة مقام أرفع من هذين ، وهو أن يعمل الطاعة على نية جلال الله ــ تعالى ــ لاستحقاقه الطاعة والعبودية ، وهذه لا تتيسر لراغب فى الدنيا ، وهى أعز النيات وأعلاها ، وقليل من يفهمها ، فضلاً عن أن يتعاطاها ، وصاحب هذا المقام لا يجاوز ذكر الله ــ تعالى ــ والفكر فى جلاله حباً له .

وقد حكى أحمد بن خضرويه أنه رأى رب العزة فى منامه ، فقال له : كل الناس يطلبون منى ، وأبو يزيد يطلبنى . وغرضنا من هذه النيات متفاوتة فى الدرجات ومن غلب على

قلبه منها ، فربما لم يتيسر له العدول إلى غيرها ، ومن حضرت له نية فى المباح ، ولم تحضر فى فضيلة ، فالمباح أولى ، وانتقلت الفضيلة إليه . مثال ذلك أن تحضره نية فى الأكل والنوم ليتقوى بذلك على العبادة ويريح بدنه ولم تنبعث نيته فى الحال إلى الصلاة والصوم ، فالأكل والنوم أفضل ، بل لو ملَّ العبادة لكثرة مواظبته عليها ، وعلم أنه لو ترفه ساعة بمباح عاد نشاطه ، فذلك أفضل من التعبد حينئذ . قال على ـ عليه السلام ـ: روحوا القلوب ، واطلبوا له طُرَف الحكمة ، فإنها تمل كما تمل الأبدان . وقال بعضهم : روحوا القلوب تعى الذكر .

وهذه دقائق لا تدركها إلا بممارسة العلماء ، فإن الحاذق فى الطب قد يعالج المحرور باللحم مع حرارته ، ويستبعد ذلك القاصر فى الطب ، وإنما يبتغى به أن تعود قوته ليحتمل المعالجة ، وكذلك الخبير بالقتال ، قد يفر من بين يدى قرنه حيلة منه ، ليستجره إلى مضيق . فسلوك طريق الله ـ تعالى ـ كله حرب مع الشيطان ، ومعالجة للقلب ، والمبصر الموفق يقف فى تلك الطريق على لطائف من الحيل يستبعدها الضعفاء ، فلا ينبغى لهم استبعاد ما خفى عليهم ، بل يسلمون لأصحاب الأحوال إلى أن ينكشف لهم أسرار ذلك ، أو ينالوا ذلك المقام .

● الفصل الثانى ●

فى الإخلاص وفضيلته وحقيقته ودرجاته

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾[1] وقال : ﴿ أَلاَ لِلهِ الدِّينُ الخَالِصُ ﴾[2] وغير ذلك من الآيات . وقال النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لمعاذ بن جبل ـ رضى الله عنه ـ: « **أخلص دينك يكفك القليل من العمل** »[3] . وفى حديث أنس ـ رضى الله عنه ـ قال : « **إذا كان يوم القيامة جاءت الملائكة بصحف مختمة ، فيقول الله ـ عز وجل ـ: ألقوا هذا ، واقبلوا هذا ، فتقول الملائكة : وعزتك ما كتبنا إلا ما كان . فيقول : إن هذا كان لغيرى ، ولا أقبل اليوم إلا ما كان لى** »[4] .

---

(١) البينة : ٥ . (٢) الزمر : ٣ .

(٣) رواه الحاكم فى المستدرك [٣٠٦/٤] عن معاذ بن جبل وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ولكن تعقبه الذهبى وقال : ليس بصحيح .

(٤) فى جمع الجوامع [٨٣/١] ذكره السيوطى وعزاه لسمويه عن أنس ، والأمثل فى ذلك ما رواه أبو داود من حديث أبى هريرة أن رجلاً قال : يارسول الله رجل يبتغى الجهاد فى سبيل الله وهو يبتغى عرضًا من عرض الدنيا ؟ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: « لا أجر له » . وأخرج النسائى بسند حسن من حديث أبى أمامة : أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر ماله ؟ ، فقال : لا شىء له ، فأعادها ثلاث مرات يقول له لا شىء له ، ثم قال : إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا وابتغى به وجهه .

وعن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ قال : « **إن الملائكة يرفعون عمل العبد فيكثرونه ويزكونه ، فيوحى الله ــ تعالى ــ إليهم : أنتم حفظة على عمل عبدى ، وأنا رقيب على ما فى نفسه ، إن عبدى لم يخلص فى عمله ، فاجعلوه فى سجين ، ويصعدون بعمل العبد يستقلونه ، فيوحى الله إليهم : إنكم حفظة على عمل عبدى ، وأنا رقيب على ما فى نفسه فضاعفوه واجعلوه فى عليين** » .

ويروى عن الحسن قال : كانت شجرة تعبد من دون الله ، فجاء إليها رجل فقال : لأقطعن هذه الشجرة ، فجاء إليها ليقطعها غضباً لله ، فلقيه الشيطان فى صورة إنسان فقال : ما تريد ؟ قال : أريد أن أقطع هذه الشجرة التى تعبد من دون الله . قال : إذا أنت لم تعبدها ، فما يضرك من عبدها ؟ قال : لأقطعنها . فقال له الشيطان : هل لك فيما هو خير لك من ذلك ، لا تقطعها ولك ديناران إذا أصبحت عند وسادتك . قال : فمن لى بذلك ؟ قال : أنا لك . فرجع فأصبح فوجد عند وسادته دينارين ، ثم أصبح بعد فلم يجد شيئاً ، فقام غضبان ليقطعها ، فتمثل له الشيطان فى صورته ، فقال : ما تريد ؟ قال : أريد أن أقطع هذه الشجرة التى تعبد من دون الله . قال : كذبت ، مالك إلى قطعها سبيل ، فذهب ليقطعها ، فضرب به الأرض وخنقه حتى كاد يقتله ، ثم قال له : أتدرى من أنا ؟ فأخبره أنه الشيطان ، وقال : جئت أول مرة غضباً لله ، فلم يكن لى عليك سبيل ، فخدعتك بالدينارين فتركتها ، فلما فقدتهما جئت غضباً للدينارين ، فسلطت عليك .

وكان معروف الكرخى يضرب نفسه ويقول : يانفس أخلصى وتخلصى . وقال أبو سليمان : طوبى لمن صحت له خطوة واحدة لا يريد بها إلا الله ــ تعالى ــ . وحكى أن رجلاً كان يخرج فى زى النساء ، فيحضر حيث يحضرن من عرس ، أو مأتم ، فاتفق أنه حضر يوماً موضعاً فيه مجمع النساء ، فسرقت درة ، فصاحوا : أغلقوا الباب حتى نفتش ، ففتشوا واحدة واحدة حتى بلغت النوبة إلى الرجل وإلى امرأة معه ، فدعا الله بالإخلاص وقال : إن نجوت من هذه الفضيحة لا أعود إلى مثل هذا ، فوجدت الدرة مع تلك المرأة فصاحوا : أطلقوا الحرة ، فقد وجدنا الدرة .

بيان حقيقة الإخلاص

اعلم : أن كل شيء يتصور أن يشوبه غيره ، فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه ، سمى إخلاصاً . والإخلاص يضاده الإشراك ، فمن ليس مخلصاً ، فهو مشرك ، إلا أن الشرك درجات . فالإخلاص فى التوحيد بضاده الشرك فى الإلٰهية . والشرك منه جلى ومنه خفى ، وكذلك الإخلاص ، وقد ذكرنا درجات الرياء فيما تقدم فى بابه ، وإنما نتكلم الآن فيمن انبعث لقصد التقرب ، ولكن امتزج بهذا الباعث باعث آخر ، إما من الرياء ، أو من غيره من حظوظ النفس .

ومثال ذلك أن يصوم لينتفع بالحمية الحاصلة بالصوم مع قصد التقرب ، أو يعتق عبداً ليتخلص من مؤونته وسوء خلقه ، أو يحج ليصح مزاجه بحركة السفر ، أو للتخلص من شر يعرض له ، أو يغزو ليمارس الحرب ويتعلم أسبابها ، أو يصلى بالليل وله غرض فى دفع النعاس عن نفسه ليراقب رحله أو أهله ، أو يتعلم العلم ليسهل عليه طلب ما يكفيه من المال ، أو يشتغل بالتدريس ليفرح بلذة الكلام ، ونحو ذلك . فمتى كان باعثه التقرب إلى الله ــ تعالى ــ ، ولكن انضاف إليه خاطر من هذه الخواطر ، حتى صار العمل أخف عليه بسبب هذه الأمور ، فقد خرج عمله عن حد الإخلاص .

والإنسان قلما ينفك فعل من أفعاله ، وعبادة من عباداته عن شيء من هذه الأمور ، فلذلك قيل : من سلم له فى عمره لحظة واحدة خالصة لوجه الله ــ تعالى ــ ، نجا ، وذلك لعزة الإخلاص ، وعسر تنقية القلب من هذه الشوائب ، لأن الخالص هو الذى لا باعث عليه إلا طلب التقرب من الله ــ تعالى ..

قيل لسهل : أى شى أشد على النفس ؟ قال : الإخلاص ، إذ ليس لها فيه نصيب .

واعلم : أن الشوائب المكدرة للإخلاص متفاوتة ، بعضها جلى ، وبعضها خفى ، وقد ذكرنا درجات الرياء فى بابه . ومن الرياء ما هو أخفى من دبيب النمل ، فليطلب هناك ، وحاصله أن مادام العامل يفرق بين مشاهدة الإنسان والبهيمة فى حالة من العمل ، فهو خارج عن صفو الإخلاص ، ولا يسلم من الشيطان إلا من دق نظره وسعد بعصمة الله ــ تعالى ــ وتوفيقه . وقد قيل : ركعتان من عالم أفضل من سبعين ركعة من جاهل ، وأريد به العالم بدقائق آفات الأعمال حتى يخلص عنها ، والجاهل ينظر إلى ظاهر العبادة ، وقيراط من الذهب الذى يرتضيه الناقد خير من دينار يرتضيه الغر الغبى .

● فصل فى حكم العمل المشوب واستحقاق الثواب به

أما العمل الذى لا يريد به إلا الرياء ، فهو على صاحبه لا له ، وهو سبب للعقاب ، كما أن العمل الخالص لوجه الله ــ تعالى ــ سبب للثواب . ولا إشكال فى هذين

القسمين ، وإنما النظر فى العمل المشوب الممتزج بشوب الرياء وحظوظ النفس . وقد اختلف الناس فى ذلك ، هل يقتضى ثواباً أو عقاباً ، أو لا يقتضى شيئاً أصلاً ؟ وليس تخلو الأخبار عن تعارض فى ذلك .

والذى يتضح لنا فيه ــ والعلم عند الله تعالى ــ أن ننظر إلى قدر قوة البواعث ، فإن كان الباعث الدينى مساوياً للباعث النفسانى تقاوماً وتساقطاً ، وصار العمل لا له ولا عليه ، وإن كان باعث الرياء أقوى ، ضر وأوجب العقاب ، لكن عقابه دون عقاب من تجرد للرياء ، وإن كان الباعث الدينى أقوى من الآخر ، فله ثواب بقدر ما فضل من قوته ، قال الله ــ تعالى ــ: ﴿ **إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وإن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا** ﴾[1] .

ويشهد لما ذكرنا إجماع الأمة على أن من خرج حاجاً ومعه تجارة ، صح حجه وأثيب عليه ، وقد امتزج به حظ من حظوظ النفس ، إلا أنه متى كان الحج هو المحرك الأصلى ، لم ينفك السفر عن ثواب ، وكذلك الغازى إذا قصد الغزو والغنيمة ويكون قصد الغنيمة على سبيل التبع ، حصل له الثواب ، ولكنه لا يساوى ثواب من لا يلتفت إلى الغنيمة أصلاً ، والله ــ تعالى ــ أعلم .

● الفصل الثالث ●

فى الصدق وحقيقته وفضله

عن عبد الله بن مسعود ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « **عليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى إلى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً** » . رواه البخارى ومسلم[2] وقال بشر الحافى : من عامل الله بالصدق ، استوحش من الناس .

واعلم أن لفظ الصدق قد يستعمل فى معان :

* ***أحدها*** : الصدق فى القول ، فحق على كل عبد أن يحفظ ألفاظه ، ولا يتكلم إلا بالصدق ، والصدق باللسان هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها . وينبغى أن يحترز عن المعاريض ، فإنها تجانس الكذب إلا أن تمس الحاجة إليها ، وتقتضيها المصلحة فى بعض الأحوال ، وقد كان النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ إذا أراد غزوة ورَّى بغيرها لئلا ينتهى الخبر إلى الأعداء فيتهيؤوا لقتاله ، وقال ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « **ليس بكاذب**

---

(١) النساء : ٤٠ .

(٢) رواه مسلم فى « البر » رقم [١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥] . والبخارى فى « الأدب » باب [٦٩] رقم [٦٠٩٤] .

من أصلح بين اثنين فقال خيراً ، أو نمى خيراً (١). وينبغى أن يراعى معنى الصدق فى ألفاظه التى يناجى بها ربه ، كقوله : وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض . فإن كان قلبه منصرفاً عن الله مشغولاً بالدنيا فهو كاذب .

* *الثانى* : الصدق فى النية والإرادة ، وذلك يرجع إلى الإخلاص ، فإن مازج عمله شوب من حظوظ النفس ، بطل صدق النية ، وصاحبه يجوز أن يكون كاذباً كما فى حديث الثلاثة : العالم ، والقارىء ، والمجاهد . لما قال القارىء : قرأت القرآن إلى آخره ، إنما كذبه فى إرادته ونيته ، لا فى نفس القراءة ، وكذلك صاحباه .

* *الثالث* : الصدق فى العزم والوفاء به . أما الأول : فنحو أن يقول : إن آتانى الله مالاً تصدقت بجميعه ، فهذه العزيمة قد تكون صادقة ، وقد يكون فيها تردد . وأما الثانى : فنحو أن يصدق فى العزم وتسخو النفس بالوعد ، لأنه لا مشقة فيه إلا إذا تحققت الحقائق ، وانجلت العزيمة ، وغلبت الشهوة ، ولذلك إذا تحققت الحقائق ، وانجلت العزيمة ، وغلبت الشهوة ، ولذلك قال الله ــ تعالى ــ: ﴿ **مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيهِ** ﴾(٢) . وقال فى آية أخرى : ﴿ **وَمِنْهُم مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا من فَضْلِه لَنَصَّدَّقَنَّ** ﴾(٣) إلى قوله : ﴿ **وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبونَ** ﴾(٤) .

* *الرابع* : الصدق فى الأعمال ، وهو أن تستوى سريرته وعلانيته ، حتى لا تدل أعماله الظاهرة من الخشوع ونحوه على أمر فى باطنه ، ويكون الباطن بخلاف ذلك . قال مطرف : إذا استوت سريرة العبد وعلانيته قال الله ــ عز وجل ــ: هذا عبدى حقاً .

* *الخامس* : الصدق فى مقامات الدين ، وهو أعلى الدرجات ، كالصدق فى الخوف والرجاء والزهد والرضى والحب والتوكل ، فإن هذه الأمور لها مبادىء ينطلق عليها الاسم بظهورها ، ثم لها غايات وحقائق ، فالصادق المحقق من نال حقيقتها ، وإذا غلب الشىء وتمت حقيقته سمى صاحبه صادقاً . قال الله ــ تعالى ــ: ﴿ **وَلَكِنَّ البِرَّ مَن آمَنَ بِاللهِ وَالْيَومِ الآخرِ ..** ﴾(٥) . إلى قوله : ﴿ **أُوْلَئِكَ الذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُون** ﴾(٦) . وقال ــ تعالى ــ: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِم وَأَنْفُسِهِم فى سَبِيلِ اللهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ** ﴾(٧) .

ولنضرب للخوف مثلاً فنقول : ما من عبد يؤمن بالله إلا وهو خائف من الله خوفاً ينطلق

---

(١) رواه الترمذى فى « البر » باب « ما جاء فى إصلاح ذات البين » ، وقال : حديث حسن صحيح .
(٢) الأحزاب : ٢٣ . (٣) التوبة : ٧٥ . (٤) التوبة ٧٧ .
(٥) البقرة : ١٧٧ . (٦) البقرة : ١٧٧ . (٧) الحجرات : ١٥ .

عليه الاسم وهو غير بالغ إلى درجة الحقيقة ، ألا تراه إذا خاف سلطاناً كيف يصفر ويرتعد خوفاً من وقوع المحذور ، ثم إنه يخاف النار ولا يظهر عليه شيء من ذلك عند فعل المعصية . ولذلك قال عامر بن عبد قيس : عجبت للجنة نام طالبها ، وعجبت للنار نام هاربها . والتحقيق فى هذه الأمور عزيز جداً ، فلا غاية لهذه المقامات حتى ينال تمامها ، ولكن لكل حظ بحسب حاله ، إما ضعيف وإما قوى ، فإذا قوى سمى صادقاً ، وإذا علم الله من عبد صدقاً صغاً له ، والصادق فى جميع هذه المقامات عزيز ، وقد يكون للعبد صدق فى بعضها دون بعض . ومن علامات الصدق كتمان المصائب والطاعات جميعاً ، وكراهة اطلاع الخلق على ذلك .

● باب فى المحاسبة والمراقبة

قال الله ــ تعالى ــ : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ ﴾[1] ، وقال : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّن خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾[2] ، وقال : ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَاعَمِلُوا حَاضِراً وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴾[3] ، وقال : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾[4] فاقتضت هذه الآيات وما أشبهها خطر الحساب فى الآخرة .

وتحقق أرباب البصائر أنهم لا ينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة لأنفسهم وصدق المراقبة . فمن حاسب نفسه فى الدنيا ، خف فى القيامة حسابه ، وحسن منقلبه . ومن أهمل المحاسبة دامت حسراته . فلما علموا أنهم لا ينجيهم إلا الطاعة وقد أمرهم الله ــ تعالى ــ بالصبر والمرابطة فقال : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا ﴾[5] ، فرابطوا أنفسهم أولاً بالمشارطة ، ثم بالمراقبة ، ثم بالمحاسبة ، ثم بالمعاقبة ، ثم بالمجاهدة ، ثم بالمعاتبة . فكانت لهم فى المرابطة ستة مقامات ، وأصلها المحاسبة ، ولكن كل حساب يكون بعد مشارطة ومراقبة ، ويتبعه عند الخسران المعاتبة والمعاقبة ، ولا بد من شرح ذلك المقام .

© المقام الأول ـ المشارطة :

اعلم : أن التاجر كما يستعين بشريكه فى التجارة طلباً للربح ، ويشارطه ويحاسبه ، كذلك العقل يحتاج إلى مشاركة النفس ، ويوظف عليها الوظائف ، ويشرط عليها الشروط ، ويرشدها إلى طريق الفلاح ، ثم لا يغفل عن مراقبتها ، فإنه لا يأمن خيانتها وتضييعها رأس

(١) آل عمران: ٣٠ (٢) الأنبياء: ٤٧ (٣) الكهف: ٤٩ (٤) الزلزلة: ٦ـ٨ (٥) آل عمران: ٢٠٠

المال ، ثم بعد الفراغ ينبغى أن يحاسبها ويطالبها بالوفاء بما شرط عليها ، فإن هذه التجارة ربحها الفردوس الأعلى . فتدقيق الحساب فى هذا مع النفس أهم من تدقيقه بكثير من أرباح الدنيا . فحتم على كل ذى عزم آمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه ، والتضييق عليها فى حركاتها وسكناتها وخطراتها ، فإن كل نَفَس من أنفاس العمر جوهرة نفسية لا عوض لها .

فإذا فرغ العبد من فريضة الصبح ، ينبغى أن يفرغ قلبه ساعة لمشارطة نفسه فيقول للنفس : ما لى بضاعة إلا العمر ، فإذا فنى منى رأس المال وقع اليأس من التجارة ، وطلب الربح ، وهذا اليوم الجديد قد أمهلنى الله فيه ، وأخّر أجلى ،وأنعم علىَّ به . ولو توفانى لكنت أتمنى أن يرجعنى إلى الدنيا حتى أعمل فيه صالحاً ، فاحسبى يانفس أنك قد توفيت ثم رددت ، فإياك أن تضيعى هذا اليوم ، واعلمى أن اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة ، وأن العبد ينشر له بكل يوم أربع وعشرون خزانة مصفوفة ، فيفتح له منها خزانة ، فيراها مملوءة نوراً من حسناته التى عملها فى تلك الساعة ، فيحصل له من السرور بمشاهدة تلك الأنوار ما لو وزع على أهل النار لأدهشتهم عن الإحساس بألم النار ، ويفتح له خزانة أخرى سوداء مظلمة يفوح ريحها ويغشاه ظلامها ، وهى الساعة التى عصى الله ــ تعالى ــ فيها ، فيحصل له من الفزع والخزى ما لو قسم على أهل الجنة لنغص عليهم نعيمهم ، ويفتح له خزانة أخرى فارغة ليس فيها ما يسوءه ولا يسره ، وهى الساعة التى نام فيها أو غفل أو اشتغل بشىء من المباح ، ويتحسر على خلوها ، ويناله ، ما نال القادر على الربح الكثير إذا أهمله حتى فاته ، وعلى هذا تعرض عليه خزائن أوقاته طول عمره فيقول لنفسه : اجتهدى اليوم فى أن تعمر خزانتك ، ولا تدعيها فارغة ، ولا تميلى إلى الكسل والدعة والاستراحة ، فيفوتك من درجات عليين ما يدركه غيرك .

قال بعضهم : هب أن المسىء قد عفى عنه ، أليس قد فاته ثواب المحسنين ؟ فهذه وصيته فى نفسه فى أوقاته . ثم يستأنف لها وصية أخرى فى أعضائه السبعة ، وهى : العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل ، وتسليمها إلى النفس ، فإنها رعايا خادمة لها فى هذه التجارة المخلدة ، بها يتم أعمالها ، ويعلمها أن أبواب جهنم سبعة على عدد هذه الأعضاء . فتعيين تلك الأبواب لمن عصى الله ــ تعالى ــ بهذه الأعضاء ، فيوصيها بحفظها عن معاصيها . أما العين فيحفظها عن النظر إلى ما لا يحلّ النظر إليه ، أو إلى مسلم بعين الاحتقار وعن كل فضول مستغنى عنه ، ويشغلها بما فيه تجارتها وربحها ، وهو النظر إلى ما خلقت له من عجائب صنع الله ــ تعالى بعين الاعتبار ، والنظر إلى أعمال الخير للاقتداء والنظر فى كتاب الله ــ تعالى ــ، وسنة رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ، ومطالعة كتب الحكم للاتعاظ والاستفادة .

وهكذا ينبغى أن يتقدم إلى كل عضو بالوصية بما يليق به ، ولاسيما اللسان والبطن وقد ذكرنا آفات اللسان فيما تقدم ، فيشغله بما خلق له ، من الذكر والتذكير ، وتكرار العلم والتعليم ، وإرشاد عباد الله ــ تعالى ــ إلى طريق الله ، وإصلاح ذات البين ، إلى غير ذلك من الخير . وأما البطن ، فيكلفه ترك الشره ، واجتناب الشبهات والشهوات ، ويقتصر على قدر الضرورة ، ويشترط على نفسه إن خالفت شيئاً من ذلك أن يعاقبها بالمنع من شهوات البطن ، ليفوتها أكثر مما نالت بشهوتها . وهكذا فى جميع الأعضاء ، واستقصاء ذلك يطول ، وكذلك ما تخفى طاعات الأعضاء ومعاصيها .

ثم يستأنف وصيتها فى وظائف العبادات التى تتكرر فى اليوم والليلة ، فى النوافل التى يقدر عليها ، وعلى الاستكثار منها ، وهذه شروط يفتقر إليها كل يوم إلى أن تتعود النفس ذلك ، فيستغنى عن المشارطة ، ولكن لا يخلو كل يوم من حادثة لها حكم جديد لله ــ تعالى ــ عليه فى ذلك حق . ويكثر هذا على من يشتغل بشىء من أعمال الدنيا ، من ولاية أو تجارة أو نحو ذلك ، إذ قلَّ أن يخلو يوم عن واقعة جديدة يحتاج إلى أن يقضى حق الله فيها . فعليه أن يشرط على نفسه الاستقامة فيها ، والانقياد للحق . وعن شداد بن أوس ــ رضى الله عنه ــ قال: قال رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « **الكيس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الأمانى** »[1] . وقال عمر ــ رضى الله عنه ــ: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوها قبل أن توزنوا ، وتهيؤوا للعرض الأكبر ﴿ **يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لاَ تَخْفَى مِنكُم خَافِيَةٌ** ﴾[2] .

© المقام الثانى ـ المراقبة :

إذا أوصى الإنسان نفسه ، وشرط عليها ما ذكرناه ، لم يبق إلا المراقبة لها وملاحظتها . وفى الحديث الصحيح فى تفسير الإحسان ، لما سئل رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ قال : « **أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك** »[3] ، أراد بذلك استحضار عظمة الله ومراقبته فى حال العبادة . قيل : دخل الشبلى على ابن أبى الحسين النورى وهو قاعد ساكن ، لا يتحرك من ظاهره شىء ، فقال له : ممن أخذت هذه المراقبة والسكون ؟ فقال : من سنَّور كانت لنا ، إذا أردت الصيد رابطت رأس الجحر حتى لا يتحرك لها شعرة .

وينبغى أن يراقب الإنسان نفسه قبل العمل وفى العمل ، هل حركه عليه هوى النفس أو المحرك له هو الله ــ تعالى ــ خاصة ؟ فإن كان الله ــ تعالى ــ أمضاه ، وإلا تركه ، وهذا هو الإخلاص . قال الحسن : رحم الله عبداً وقف عند همه ، فإن كان لله مضى ،

---

(١) تقدم تخريجه . (٢) الحاقة : ١٨ .

(٣) رواه البخارى فى كتاب التفسير تفسير سورة لقمان رقم [٤٧٧٧] ، مسلم فى « الإيمان » رقم [٥٧] ، المسند [٢٧/١ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٣١٩] ــ [١٠٧/٢ ، ٤٢٦] ــ [١٢٩/٤] .

وإن كان لغيره تأخر . فهذه مراقبة العبد فى الطاعة ، وهو أن يكون مخلصاً فيها ، ومراقبته فى المعصية تكون بالتوبة والندم والإقلاع ، ومراقبته فى المباح تكون بمراعاة الأدب ، والشكر على النعم ، فإنه لا يخلو من نعمة لابد له من الشكر عليها ، ولا يخلو من بلية لابد من الصبر عليها ، وكل ذلك من المراقبة . وقال وهب بن منبه فى حكمة آل داود : حق على العاقل أن لا يشغل عن أربع ساعات : ساعة يناجى فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يفضى فيها إلى إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه ، ويصدقونه عن نفسه ، وساعة يخلى بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ولا يحرم ، فإن هذه الساعة عون على هذه الساعات ، وإجمام للقوة . وهذه الساعة التى هو مشغول فيها بالمطعم والمشرب ،لاينبغى أن تخلو عن عمل هو أفضل الأعمال ، وهو الذكر والفكر ، فإن الطعام الذى يتناوله ، فيه من العجائب ما لو تفكر فيه كان أفضل من كثير من أعمال الجوارح .

© المقام الثالث ـ المحاسبة بعد العمل :

قال الله ــ تعالى ــ: ﴿ يَـٰأَيُّها الَّذِيَ آمَنُوا اتَّقُوا الله ، وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾[1] . وهذه إشارة إلى المحاسبة بعد مضى العمل ، ولذلك قال عمر ــ رضى الله عنه ــ: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا . وقال الحسن : المؤمن قوَّام على نفسه ، يحاسب نفسه . وقال : إن المؤمن يفجؤه الشيء يعجبه فيقول : والله إنى لأشتهيك وإنك لمن حاجتى ، ولكن والله ما من حيلة إليك ، هيهات حيل بينى وبينك ، ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول : ما أردت إلى هذا ، ما لى ولهذا ؟ والله لا أعود إلى هذا أبداً إن شاء الله .

إن المؤمنين قوم أوثقهم القرآن ، وحال بينهم وبين هلكتهم ، إن المؤمن أسير فى الدنيا ، يسعى فى فكاك رقبته ، لا يأمن شيئاً حتى يلقى الله ــ عز وجل ــ، يعلم أنه مأخوذ عليه فى سمعه ، وفى بصره ، وفى لسانه ، وفى جوارحه ، مأخوذ عليه فى ذلك كله .

واعلم : أن العبد كما ينبغى أن يكون له وقت فى أول النهار يشارط فيه نفسه ، كذلك ينبغى أن يكون له ساعة يطالب فيها نفسه فى آخر النهار ، ويحاسبها على جميع ما كان منها ، كما يفعل التجار فى الدنيا مع الشركاء فى آخر كل سنة أو شهر أو يوم . ومعنى المحاسبة أن ينظر فى رأس المال ، وفى الربح ، وفى الخسران لتتبين له الزيادة من النقصان ، فرأس المال فى دينه الفرائض ، وربحه النوافل والفضائل ، وخسرانه المعاصى ، وليحاسبها أولاً على الفرائض ، وإن ارتكب معصية اشتغل بعقابها ومعاقبتها ليستوفى منها ما فرط .

قيل : كان توبة بن الصمة بالرقة ، وكان محاسباً لنفسه ، فحسب يوماً فإذا هو ابن ستين سنة ، فحسب أيامها فإذا هى أحد وعشرون ألف يوم وخمسمائة يوم ، فصرخ وقال : ياويلتا ! ألقى الملك بأحد وعشرين ألف ذنب وخمسمائة ذنب ؟! كيف وفى كل يوم عشرة

(١) الحشر : ١٨

آلاف ذنب !! ثم خر مغشياً عليه فإذا هو ميت ، فسمعوا قائلاً يقول : يالها ركضة إلى الفردوس الأعلى ! فهكذا ينبغى للعبد أن يحاسب نفسه على الأنفاس وعلى معصية القلب والجوارح فى كل ساعة ، فإن الإنسان لو رمى بكل معصية يفعلها حجراً فى داره لامتلأت داره فى مدة يسيرة ، ولكنه يتساهل فى حفظ المعاصى وهى مثبتة ﴿ **أحصاه الله ونسوه** ﴾[1] .

© المقام الرابع ـ معاقبة النفس على تقصيرها :

اعلم : أن المريد إذا حاسب نفسه فرأى منها تقصيراً ، أو فعلت شيئاً من المعاصى فلا ينبغى أن يهملها ، فإنه يسهل عليه حينئذ مقارفة الذنوب ويعسر عليه فطامها ، بل ينبغى أن يعاقبها عقوبة مباحة كما يعاقب أهله وولده . وكما روى عن عمر ـــ رضى الله عنه ـــ: أنه خرج إلى حائط[*] له ، ثم رجع وقد صلى الناس العصر ، فقال : إنما خرجت إلى حائطى ، ورجعت وقد صلى الناس العصر ، حائطى صدقة على المساكين . قال الليث : إنما فاتته الجماعة ، وروينا عنه أنه شغله أمر عن المغرب حتى طلع نجمان ، فلما صلاها أعتق رقبتين . وحكى أن تميم الدارى ـــ رضى الله عنه ـــ نام ليلة لم يقم يتهجد فيها حتى أصبح ، فقام سنة لم ينم فيها عقوبة للذى صنع . ومر حسان بن سنان بغرفة فقال : متى بنيت هذه ؟ ثم أقبل على نفسه فقال : تسألين عما لا يعنيك ! لأعاقبنك بصوم سنة ، فصامها .

فأما العقوبات بغير ذلك مما لا يحل ، فيحرم عليه فعله . مثال ذلك : ما حكى أن رجلاً من بنى إسرائيل ، وضع يده على فخذ امرأة ، فوضعها فى النار حتى شلت ، وأن آخر حوَّل رجله لينزل إلى امرأة ، ففكر وقال : ماذا أردت أن أصنع ؟ فلما أراد أن يعيد رجله قال : هيهات رجل خرجت إلى معصية الله لا ترجع معى . فتركها حتى تقطعت بالمطر والرياح ، وأن آخر نظر إلى امرأة فقلع عينيه ، فهذا كله محرم ، وإنما كان جائزاً فى شريعتهم . وقد سلك نحو ذلك خلق من أهل ملتنا ، حملهم على ذلك الجهل بالعلم ، كما حكى عن غزوان الزاهد : أنه نظر إلى امرأة ، فلطم عينه حتى نفرت . وروينا عن بعضهم : أنه أصابته جنابة وكان البرد شديداً ، وأنه وجد فى نفسه توقفا عن الغسل ، فآلى ألا يغتسل إلا فى مرقعته ، ألا ينزعها ولا يعصرها ، فكانت شديدة الكثافة تزيد على عشرين رطلاً ، وهذا من الجهل بالعلم ، فإنه ليس للإنسان أن يتصرف فى نفسه بمثل هذا . وقد ذكرت كثيراً من هذا الفن الصادر عن المتعبدين على الجهل فى كتابى[2] المسمى بـ « تلبيس إبليس » .

---

(١) المجادلة : ٦ . (*) حائط : بستان .

(٢) لاحظ أن الكلام هنا للمُصَنِّف الأول ابن الجوزى ، وكتاب « تلبيس إبليس » متداول ومطبوع ، وقد طبعته مكتبة القرآن بتحقيق محمد على أبو العباس .

© المقام الخامس ـ المجاهدة :

وهو أنه إذا حاسب نفسه ، فينبغى إذا رآها قد قارفت معصية أن يعاقبها كما سبق ، فإن رآها تتوانى بحكم الكسل فى شىء من الفضائل ، أو ورد من الأوراد ، فينبغى أن يؤدبها بتثقيل الأوراد عليها ، كما ورد عن ابن عمر ـــ رضى الله عنه ـــ فاتته صلاة فى جماعة ، فأحيا الليل كله تلك الليلة . وإذا لم تطاوعه نفسه على الأوراد ، فإنه يجاهدها ويكرهها ما استطاع . وقال ابن المبارك : إن الصالحين كانت أنفسهم تواتيهم على الخير عفواً ، وإن أنفسنا لا تواتينا إلا كرهاً . ومما يستعان به عليها أن يسمعها أخبار المجتهدين ، وما ورد فى فضلهم ، ويصحب من يقدر عليه منهم ، فيقتدى بأفعاله .

قال بعضهم : كنت إذا اعترتنى فترة فى العبادة نظرت إلى وجه محمد بن واسع وإلى اجتهاده ؟ فعملت على ذلك أسبوعاً . وقد كان عامر بن عبد قيس يصلى كل يوم ألف ركعة . وكان الأسود بن يزيد يصوم حتى يخضرَّ ويصفرَّ ، وحج مسروق فما نام إلا ساجداً . وكان داود الطائى يشرب الفتيت مكان الخبز ، ويقرأ بينهما خمسين آية . وكان كرز بن وبرة يختم كل يوم ثلاث ختمات ، وكان عمر بن عبد العزيز ، وفتح الموصلى يبكيان الدم ، وصلى أربعون نفساً من القدماء الفجر بوضوء العتمة ، وجاور أبو محمد الحريرى سنة فلم ينم ولم يتكلم ، ولم يستند إلى حائط ، ولم يمد رجله ، فقال له أبو بكر الكتانى : بم قدرت على هذا ؟ قال : علم صدق باطنى فأعاننى على ظاهرى . ودخلوا على زحلة العابدة فكلموها بالرفق بنفسها فقالت : إنما هى أيام مبادرة ، فمن فاته اليوم شىء لم يدركه غداً والله يا إخوتاه ! لأصلين لله ما أقلتنى جوارحى ، ولأصومن له فى أيام حياتى ، ولأبكين ما حملت الماء عيناى .

ومن أراد أن ينظر فى سير القوم ، ويتفرج فى بساتين مجاهداتهم ، فلينظر فى كتابى المسمى بـ « صفة الصفوة » فإنه يرى من أخبار القوم ما يعد نفسه بالإضافة إليهم من الموتى ، بل من أخبار المتعبدات من النسوة ما يحتقر نفسه عند سماعه .

© المقام السادس ـ فى معاتبة النفس وتوبيخها :

قال أبو بكر الصديق ـــ رضى الله عنه ـــ: من مقت نفسه فى ذات الله آمنه الله من مقته .

وقال أنس ـــ رضى الله عنه ـــ: سمعت عمر بن الخطاب ـــ رضى الله عنه ـــ ودخل حائطاً فسمعته يقول [بينى وبينه جدار] : عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ، بخ بخ ، والله لتتقين الله يابن الخطاب أو ليعذبنك . وقال البخترى بن حارثة : دخلت على عابد فإذا بين يديه نار قد أججها وهو يعاتب نفسه ، فلم يزل يعاتبها حتى مات . وكان بعضهم يقول إذا ذكر الصالحون : فأف لى وتف .

واعلم : أن أعدى عدو لك نفسك التى بين جنبيك ، وقد خُلقت أمّارة بالسوء ، ميّالة إلى الشر ، وقد أمرت بتقويمها وتزكيتها وفطامها عن مواردها ، وأن تقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها ، فإن أهملتها جمحت وشردت ، ولم تظفر بها بعد ذلك ، وإن لزمتها بالتوبيخ رجونا أن تصير مطمئنة ، فلا تغفلن عن تذكيرها . وسبيلك أن تقبل عليها ، فتقرر عندها جهلها وغباوتها وتقول : يانفس ، ما أعظم جهلك ، تدّعين الذكاء والفطنة وأنت أشد الناس غباوة وحمقاً ، أما تعلمين أنك صائرة إلى الجنة أو النار ؟ فكيف يلهو من لا يدرى إلى أيتهما يصير ؟! وربما اختطف فى يومه أو فى غده ! أما تعلمين أن كل ما هو آت قريب ، وأن الموت يأتى بغتة من غير موعد ، ولا يتوقف على سن دون سن ، بل كل نفس من الأنفاس يمكن أن يكون فيه الموت فجأة ، وإن لم يكن الموت فجأة كان المرض فجأة ، ثم يفضى إلى الموت . فمالك لا تستعدين للموت وهو قريب منك ؟! يانفس ، إن كانت جرأتك على معصية الله ــ تعالى ــ لاعتقادك أن الله لا يراك فما أعظم كفرك ! وإن كانت مع علمك باطلاعه عليك ، فما أشد رقاعتك ، وأقل حياءك ؟ ألك طاقة على عذابه ؟ جربى ذلك بالقعود ساعة فى الحمام ، أو قربى أصبعك من النار . يانفس ! إن كان المانع لك من الاستقامة حب الشهوات ، فاطلبى الشهوات الباقية الصافية عن الكدر ، ورب أكلة منعت أكلات .

وما قولك فى عقل مريض أشار عليه الطبيب بترك الماء ثلاثة أيام ليصح ويتهيأ لشربه طول العمر ؟! فما مقتضى العقل فى قضاء حق الشهوة ؟ أيصبر ثلاثة أيام ليتنعم طول العمر ؟ أم يقضى شهوته فى الحال ثم يلزمه الألم أبداً ؟ فجميع عمرك بالإضافة إلى الأبد الذى هو مدة نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار أقل من ثلاثة أيام بالإضافة إلى جميع العمر ، بل أقل من لحظة بالإضافة إلى عمر الدنيا . وليت شعرى ! ألم الصبر عن الشهوات أشد وأطول ، أم النار فى الدركات ؟ فمن لا يطيق الصبر على ألم المجاهدة ، كيف يطيق ألم العذاب فى الآخرة ؟ أشغلك حب الجاه ؟ أما بعد ستين سنة أو نحوها ، لا تبقين أنت ولا من كان لك عنده جاه . هلا تركت الدنيا لخسة شركائها، وكثرة عنائها وخوفاً من سرعة فنائها ؟ أتستبدلين بجوار رب العالمين صف النعال فى صحبة الحمقى ؟ قد ضاع أكثر البضاعة ، وقد بقيت من العمر صُبابة ، ولو استدركت ندمت على ما ضاع ، فكيف إذا أضفت الأخير إلى الأول ؟ اعملى فى أيام قصار لأيام طوال ، وأعدى الجواب للسؤال . أخرجى من الدنيا خروج الأحرار قبل أن يكون خروج اضطرار . إنه من كانت مطيته الليل والنهار سير به وإن لم يسر . تفكرى فى هذه الموعظة ، فإن عدمت تأثيرها ، فابكى على ما أصبت به فمستقى الدمع من بحر الرحمة .

● باب التفكر

قد أمر الله ــ سبحانه ــ بالتفكر والتدبر فى كتابه العزيز ، وأثنى على المتفكرين بقوله : ﴿ **وَيَتَفَكَّرُونَ فى خَلْقِ السَّمَواتِ والأرض رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطلاً** ﴾[1] . وقال : ﴿ **إنَّ فى ذَلكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُون** ﴾[2] .

وعن عبد الله بن عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنهما ــ قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « **تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى الله** »[3] . وقال أبو الدرداء ــ رضى الله عنه ــ: تفكر ساعة خير من قيام ليلة . وقال وهب بن منبه : ما طالت فكرة امرىء قط إلا فهم ، وما فهم إلا علم ، وما علم إلا عمل . وقال بشر الحافى : لو تفكر الناس فى عظمة الله ــ تعالى ــ لما عصوه .

وقال الفريابى فى قوله ــ تعالى ــ: ﴿ **سَأَصْرِفُ عَنْ آياتى الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فى الأَرْض بِغَيْرِ الحَقِّ** ﴾[4] . قال : أمنع قلوبهم من التفكر فى أمرى .

وكان داود الطائى على سطح فى ليلة قمراء ، فتفكر فى ملكوت السماوات والأرض ، فوقع فى دار جار له ، فوثب عرياناً وبيده السيف ، فلما رآه قال : ياداود ، ما الذى ألقاك ؟ قال : ما شعرت بذلك . وقال يوسف بن أسباط : إن الدنيا لم تخلق لينظر إليها ، بل لينظر بها إلى الآخرة . وكان سفيان من شدة تفكره يبول الدم .

وقال أبو بكر الكتانى : روعة عند انتباهة من غفلة ، وانقطاع عن حظ نفسانى ، وارتعاد من خوف قطعية ، أفضل من عبادة الثقلين .

● بيان مجارى الفكر وثمراته

واعلم : أن الفكر قد يجرى فى أمر يتعلق بالدين ، وقد يجرى فى أمر يتعلق بغيره ، وإنما غرضنا ما يتعلق بالدين ، وشرح ذلك يطول . فلينظر الإنسان فى أربعة أنواع : الطاعات ، والمعاصى ، والصفات المهلكات ، والصفات المنجيات . فلا تغفل عن نفسك ، ولا عن صفاتك المباعدة عن الله ، والمقربة إليه . وينبغى لكل مريد أن تكون له جريدة يثبت فيها جملة الصفات المهلكات ، وجملة الصفات المنجيات ، وجملة المعاصى والطاعات ، ويعرض ذلك على نفسه كل يوم .

ويكفيه من المهلكات النظر فى **عشرة** ، فإنه إن سلم منها سلم من غيرها ، **وهى** : البخل ،

(١) آل عمران : ١٩١ . **(٢) الرعد : ٣ ، الروم : ٢١ ، الزمر : ٤٢ ، الجاثية : ١٣ .**
(٣) قال العراقى فى تخريج الإحياء [٤/٤١٠] أخرجه أبو نعيم فى الحلية بالمرفوع منه بإسناد ضعيف ، ورواه الأصبهانى فى الترغيب والترهيب من وجه آخر أصح منه، ورواه الطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عمر وقال : هذا إسناد فيه نظر . قال العراقى : وفيه الوازع بن نافع (متروك الحديث) .
(٤) الأعراف : ١٤٦ .

والكبر ، والعجب ، والرياء ، والحسد ، وشدة الغضب ، وشره الطعام ، وشره الوقاع ، وحب المال ، وحب الجاه . ومن المنجيات **عشرة** : الندم على الذنوب ، والصبر على البلاء ، والرضى بالقضاء والشكر على النعماء ، واعتدال الخوف والرجاء ، والزهد فى الدنيا والإخلاص فى الأعمال ، وحسن الخُلقِ مع الخَلْقِ ، وحب الله ــ تعالى ــ ، والخشوع .

فهذه **عشرون** خصلة : عشرة مذمومة ، وعشرة محمودة ، فمتى كفى من المذمومات واحدة خط عليها فى جريدته ، وترك الفكر فيها ، وشكر الله ــ تعالى ــ على كفايته إياها . وليعلم أن ذلك لم يتم إلا بتوفيق الله ــ تعالى ــ وعونه ، ثم يقبل على التسعة الباقية ، وهكذا يفعل حتى يخط على الجميع ، وكذلك يطالب نفسه بالاتصاف بالصفات المنجيات ، فإذا اتصف بواحدة منها ، كالتوبة والندم مثلاً ، خط عليها واشتغل بالباقى ، وهذا يحتاج إليه المريد المشمّر . فأما أكثر الناس من المعدودين فى الصالحين ، فينبغى أن يثبتوا فى جرائدهم المعاصى الظاهرة ، كأكل الشبهات ، وإطلاق اللسان بالغيبة والنميمة ، والمراء ، والثناء على النفس ، والإفراط فى موالاة الأولياء ، ومعاداة الأعداء ، والمداهنة فى ترك الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، فإن أكثر من يعد نفسه من وجوه الصالحين لا ينفك عن جملة من هذه المعاصى فى جوارحه ، وما لم تطهر الجوارح من الآثام ، لا يمكن الاشتغال بعمارة القلب وتطهيره .

وكل فريق من الناس يغلب عليهم نوع من هذه الأمور ، فينبغى أن يكون تفقدهم لها وتفكيرهم فيها . مثاله العالم الورع فإنه لا يخلو فى غالب الأمر من إظهار نفسه بالعلم ، وطلب الشهرة ، وانتشار الصيت ، إما بالتدريس ، أو بالوعظ . ومن فعل ذلك ، فقد تصدى لفتنة عظيمة لا ينجو منها إلا الصديقون . وربما ينتهى العلم بأهل العلم إلى أن يتغايروا كما يتغاير النساء ، وكل ذلك من رسوخ الصفات المهلكات فى سر القلب التى يظن العالم النجاة منها ، وهو مغرور فيها . ومن أحس من نفسه هذه الصفات ، فالواجب عليه الانفراد والعزلة ، وطلب الخمول والمدافعة للفتاوى ، فقد كان الصحابة يتدافعون الفتاوى ، وكل منهم يود لو أن أخاه كفاه . وعند هذا ينبغى أن يتقى شياطين الإنس ، فإنهم قد يقولون : هذا سبب لانـدراس العلم ، فليقل لهم : دين الإسلام مستغن عنى ، ولو مت لم ينهدم الإسلام ، وأنا غير مستغن عن إصلاح قلبى ، فليكن فكر العالم فى التفطن لخفايا هذه الصفات من قلبه ، نسأل الله أن يصلح فساد قلوبنا وأن يوفقنا لما يرضاه عنا .

● فصل : التفكر فى ذات الله ممنوع منه

قد تقدم أن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ قال : « **تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى الله** »[1] فالتفكر فى ذاته سبحانه ممنوع منه ، وذلك أن العقول تتحيّر فى ذلك ، فإنه

(١) تقدم تخريجه .

أعظم من أن تمثله العقول بالتفكر ، أو تتوهمه القلوب بالتصوير : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[1] . فأما التفكر فى مخلوقات الله ــ تعالى ــ، فقد ورد القرآن بالحث على ذلك كقوله ــ تعالى ــ: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِى الأَلْبَابِ ﴾[2] ... الآيات . وقوله : ﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾[3] .

ومن آيات الله ــ تعالى ــ الإنسان المخلوق من نطفة ، فيتفكر الإنسان فى نفسه ، فإن فى خلقه من العجائب الدالة على عظمة الله ــ تعالى ــ، ما تنقضى الأعمار فى الوقوف على عشر عشره وهو غافل عن ذلك . وقد أمره الله ــ تعالى ــ بالتدبر فى نفسه ، فقال : ﴿ وَفِى أَنْفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾[4] . وقد تقدم فى كتاب الشكر الكلام على بعض خلق الإنسان فليطلب هناك .

ومن آياته الجواهر المودعة فى الجبال ، والمعادن من الذهب والفضة والفيروزج . ونحوها ، وكذلك النفط والكبريت والقار وغيرها . ومن آياته البحار العظيمة العميقة المكتنفة لأقطار الأرض ، التى هى قطع من البحر الأعظم المحيط بجميع الأرض . ولو جمع المكشوف من الأرض ، من البرارى ، والجبال ، لكان بالإضافة إلى الماء كجزيرة صغيرة فى بحر عظيم ، وفى البحر عجائب أضعاف ما تشاهده فى البر . وانظر كيف خلق اللؤلؤ ، ودوَّره فى صدفة تحت الماء ، وانظر كيف أنبت المرجان فى صم الصخور تحت الماء ، وكذلك ما عداه من العنبر وأصناف ما يقذفه البحر ، وانظر إلى عجائب السفن كيف أمسكها الله ــ تعالى ــ على وجه الماء ، وسيرها فى البحار تسوقها الرياح وأعجب من ذلك الماء ، فإنه حياة كل ما على الأرض من حيوان ونبات ، فلو احتاج العبد إلى شربة ماء ، ومنع منها لبذل جميع خزائن الدنيا فى تحصيلها لو ملك ذلك ، ثم إذا شربها ومنع خروجها ، لبذل جميع خزائن الأرض فى إخراجها ، فلا يغفل العبد عن هذه النعمة .

ومن آياته الهواء وهو جسم لطيف لا يرى بالعين ، ثم انظر إلى شدته وقوته ، وانظر إلى عجائب الجو ، وما يظهر فيه من الغيوم والرعد والبرق والمطر والثلج والبرد والشهب والصواعق ، وغير ذلك من العجائب . وانظر إلى الطير تسبح بأجنحتها بالهواء كما يسبح حيوان البحر فى الماء ، ثم انظر إلى السماء وعظمها وكواكبها وشمسها وقمرها ، وما فيها كوكب إلا ولله فيه حكمة فى لونه وشكله وموضعه ، وانظر إلى إيلاج الليل فى النهار ، والنهار فى الليل ، وانظر مسير الشمس ، كيف اختلف فى الصيف والشتاء والربيع والخريف .

وقد قيل : إن الشمس مثل الأرض مائة ونيفاً وستين مرة ، وإن أصغر كوكب فى السماء مثل الأرض ثمان مرات ، فإذا كان هذا قدر كوكب واحد ، فانظر إلى كثرة الكواكب ،

---

(١) الشورى : ١١ (٢) آل عمران : ١٩٠ .(٣) يونس : ١٠١ .(٤) الذاريات : ٢١

وإلى السماء التى فيها الكواكب ، وإلى إحاطة عينك بذلك مع صغرها ، والعجب منك أنك تدخل بيت غنى مزخرف مموه بالذهب ، فلا ينقطع تعجبك منه ، ولا تزال تذكره وأنت تنظر إلى هذا البيت العظيم ، وإلى أرضه وسقفه وعجائبه وأمتعته وبدائع نقوشه ، ثم لا تلتفت إلى نحوه بقلبك ، ولا تتفكر فى بناء خالقك ، فلقد نسيت نفسك وربك ، واشتغلت ببطنك وفرجك ، فما مثلك فى غفلتك إلا كمثل نملة تخرج من بيتها الذى حفرته فى حائط قصر الملك ، فتلقى أختها فتتحدث معها فى حديث بيتها ، وكيف بنته وما جمعت فيه ، ولا تذكر قصر الملك ولا من فيه . فهكذا أنت فى غفلتك ، فما تعرف من السماء إلا ما تعرفه النملة من سقف بيتها .

فهذا بيان معاقد الجمل التى يجول فيها فكر المتفكرين ، والأعمار تقصر ، والعلوم تقل عن الإحاطة ببعض المخلوقات ، إلا أنك كلما استكثرت من معرفة عجائب المصنوعات ، كانت معرفتك بجلال الصانع أتم . فتفكر فيما أشرنا هٰهنا مع ما قدمناه من الإشارة فى كتاب الشكر . فمن نظر فى هذه الأشياء من حيث إنها فعل الله وصنعه ، استفاد المعرفة بجلال الله ــ تعالى ــ وعظمته ، ومن قصر النظر عليها من حيث تأثير بعضها فى بعض ، لا من حيث ارتباطها بمسبب الأسباب ، شقى . نعوذ بالله من مزلة أقدام الجهال ، ومن الركون إلى أسباب الضلال ، ولا وجه للتفكر فيما لا نراه من الملائكة والجن ، فلذلك عدلنا عنه إلى ما نراه والله أعلم .

● باب فى ذكر الموت وما بعده وما يتعلق به

اعلم : أن المنهمك فى الدنيا المكب فى غرورها ، يغفل قلبه لا محالة عن ذكر الموت فلا يذكره ، وإن ذكره كرهه ونفر منه ، ثم الناس إما منهمك ، أو تائب مبتدىء ، أو عارف منتبه . فأما المنهمك فلا يذكره ، وإن ذكره فيذكره لتأسف على دنياه ، ويشتغل بذمه ، وهذا لا يزيده ذكر الموت من الله ــ تعالى ــ إلا بعداً . وأما التائب ، فإنه يكثر ذكر الموت لينبعث به من قلبه الخوف والخشية ، فيفى بتمام التوبة ، وربما يكره الموت خيفة أن يختطفه قبل تمامها أو قبل إصلاح الزاد ، وهو معذور فى كراهة الموت . ولا يدخل بهذا تحت قوله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « **من كره لقاء الله كره الله لقاءه** »[1] فإنه إنما يخاف لقاء الله لقصوره وتقصيره ، فهو كالذى يتأخر عن لقاء الحبيب مشتغلاً بالاستعداد للقائه على وجه يرضاه ، فلا يعد كارهاً للقائه ، وعلامة هذا أن يكون دائم الاستعداد له ، لا شغل له سواه ، وإلا التحق بالمنهمك فى الدنيا .

---

(١) البخارى فى « الرقاق » باب « من أحب لقاء الله أحب الله لقائه » رقم [٦٥٠٧] ، مسلم فى « الذكر » برقم [١٤ ــ ١٨] ، المسند [٣٤٠/٢] ــ [١٠٧/٣] ــ [٢٥٩/٤] ــ [٣١٦/٥] ــ [٤٤/٦ ، ٥٥] .

وأما العارف ، فإنه يذكر الموت دائماً ، لأنه موعد لقاء الحبيب ، وهو لا ينسى موعد لقاء حبيبه . وهذا فى غالب الأمر يستبطىء مجىء الموت ، ويحبه ليتخلص من دار العاصين ، وينتقل إلى جوار رب العالمين ، كما قال بعضهم : حبيب جاء على فاقة . فإذن التائب معذور فى كراهة الموت ، وهذا معذور فى حب الموت وتمنيه ، وأعلى منهما من فوض أمره إلى الله ـــ تعالى ـــ، فصار لا يختار لنفسه موتاً ولا حياة ، بل تكون الأشياء إليه أحبها إلى مولاه ، فهذا قد انتهى بفرط الحب والولاء إلى مقام التسليم والرضى ، وهو الغاية والمنتهى . وعلى كل حال ، ففى ذكر الموت ثواب وفضل ، فإن المنهمك فى الدنيا قد يستفيد بذكر الموت التجافى عن الدنيا ، لأن ذكره ينغص عليه نعيمه ويكدره .

● باب ما جاء فى فضل ذكر الموت

عن أبى هريرة ـــ رضى الله عنه ـــ قال : قال رسول الله ـــ صلى الله عليه وآله وسلم ـــ: « **أكثروا ذكر هاذم اللذات : الموت** »[1] . وعن أنس ـــ رضى الله عنه ـــ: أن رجلاً ذكر عند النبى ـــ صلى الله عليه وآله وسلم ـــ فأحسنوا عليه الثناء ، فقال النبى ـــ صلى الله عليه وآله وسلم ـــ: « **كيف كان ذكر صاحبكم للموت ؟** » قالوا : ما كنا نسمعه يذكر الموت . قال : « **فإن صاحبكم ليس هناك** »[2] .

وعن ابن عمر ـــ رضى الله عنهما ـــ: أن النبى ـــ صلى الله عليه وآله وسلم ـــ سئل : أى المؤمنين أكيس ، قال : « **أكثرهم للموت ذكراً وأشدهم استعداداً له أولئك هم الأكياس** »[3] . وقال الحسن البصرى : فضح الموت الدنيا ، فلم يترك لذى لب فيها فرحاً ، وما ألزم عبد قلبه ذكر الموت إلا صغرت الدنيا عليه ، وهان عليه جميع ما فيها . وكان ابن عمر ـــ رضى الله عنهما ـــ إذا ذكر الموت انتفض انتفاض الطير ، وكان يجمع كل ليلة الفقهاء ، فيتذاكرون الموت والقيامة ثم يبكون ، حتى كأن بين أيديهم جنازة .

وكان حامد القيصرى يقول : كلنا قد أيقن الموت ، وما نرى له مستعداً ، وكلنا قد أيقن بالجنة وما نرى لها عاملاً ، وكلنا قد أيقن بالنار وما نرى لها خائفاً ، فعلام تفرحون ؟! وما عسيتم تنتظرون ؟! الموت ، فهو أول وارد عليكم من أمر الله بخير ، أو بشر ، فيا إخوتاه ! سيروا إلى ربكم سيراً جميلاً . وقال شميط بن عجلان : من جعل الموت نصب عينيه ، لم يبال بضيق الدنيا ولا بسعتها .

---

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك [٣٢١/٤] وقال هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه .

(٢) فى تخريج الإحياء [٤٣٥/٤] عزاه العراقى لابن أبى الدنيا فى « الموت » من حديث أنس بسند ضعيف ، ولابن المبارك فى الزهد قال : أنبأنا مالك بن مغول فذكره بلاغاً بزيادة فيه ! . هـ .

(٣) عزاه العراقى فى الإحياء [١٣٥/٤] لابن أبى الدنيا وقال إسناده جيد ، ورواه ابن ماجه مختصراً رقم [٤٢٥٩] لكنه ضعيف .

واعلم : أن خطر الموت عظيم ، وإنما غفل الناس عنه لقلة فكرهم وذكرهم له ، ومن يذكره منهم إنما يذكره بقلب غافل ، فلهذا لا ينجع فيه ذكر الموت ، والطريق فى ذلك أن يفرغ العبد قلبه لذكر الموت الذى هو بين يديه ، كالذى يريد أن يسافر إلى مفازة مخطرة ، أو يركب البحر ، فإنه لا يتفكر إلا فى ذلك ، وأنفع طريق فى ذلك ذكر أشكاله وأقرانه الذين مضوا قبله ، فيذكر موتهم ومصارعهم تحت الثرى .

قال ابن مسعود ــ رضى الله عنه ــ: السعيد من وعظ بغيره . وقال أبو الدرداء ــ رضى الله عنه ــ: إذا ذكر الموتى ، فعد نفسك كأحدهم . وينبغى أن يكثر دخول المقابر ، ومتى سكنت نفسه إلى شىء فى الدنيا ، فليتفكر فى الحال أنه لا بد من مفارقته ، ويقصر أمله . وقد روى عن عبد الله بن عمر ــ رضى الله عنهما ــ قال : أخذ رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ بمنكبى فقال : « **كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل** »[1] وكان ابن عمر يقول : إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمرضك ، ومن حياتك لموتك[2] .

وفى حديث آخر : « **إن أخوف ما أخاف على أمتى : الهوى وطول الأمل ، فأما الهوى فيصد عن الحق ، وأما طول الأمل فينسى الآخرة** »[3] . وعن الحسن قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ لأصحابه : « **أكلكم يحب أن يدخل الجنة ؟** » قالوا : نعم يارسول الله ؟ قال : « **قصروا الأمل ، وأثبتوا آجالكم بين أبصاركم ، واستحيوا من الله ــ عز وجل ــ حق حيائه** »[4] .

وعن أبى زكريا التيمى قال : بينما سليمان بن عبد الملك فى المسجد الحرام ، إذ أتى بحجر منقوش ، فطلب من يقرأه ، فإذا فيه : ابن آدم ! لو رأيت قرب ما بقى من أجلك لزهدت فى طول أملك ، ولرغبت فى الزيادة من عملك ، ولقصرت من حرصك وحيلك ، وإنما يلقاك ندمك لو قد زلت بك قدمك ، وأسلمك أهلك وحشمك ، فبان منك الولد والنسب ، فلا أنت إلى دنياك عائد ، ولا فى حسناتك زائد ،فاعمل ليوم القيامة يوم الحسرة والندامة .

© *سبب طول الأمل :*

واعلم أن السبب فى طول الأمل شيئان : أحدهما : حب الدنيا ، والثانى : الجهل .

---

(١) ، (٢) صحيح البخارى ، كتاب « الرقاق » ، باب « قول النبى ــ ﷺ ــ كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » رقم [٦٤١٦] .

(٣) فى تخريج الإحياء [٤٣٧/٤] عزاه العراقى لابن أبى الدنيا فى كتاب « قصر الأمل » عن على ، ورواه أيضًا من حديث جابر بنحوه وكلاهما ضعيف ...، وفى جمع الجوامع [٢٢٣/١] عزاه للحاكم فى تاريخه ، والديلمى عن جابر .

(٤) فى تخريج الإحياء [٤٣٨/٤] قال العراقى : رواه ابن أبى الدنيا فى « قصر الأمل » من حديث الحسن مُرسلاً .

أما حب الدنيا فإن الإنسان إذا أنس بها وبشهواتها ولذاتها وعلائقها ، ثقل على قلبه مفارقتها ، فامتنع قلبه من الفكر فى الموت الذى هو سبب مفارقتها ، وكل من كره شيئاً دفعه عن نفسه ، والإنسان مشغول بالأمانى الباطلة ، فيمنى نفسه أبداً بما يوافق مراده من البقاء فى الدنيا ، وما يحتاج إليه من مال وأهل ومسكن وأصدقاء وسائر أسباب الدنيا ، فيصير قلبه عاكفاً على هذا الفكر ، فيلهو عن ذكر الموت ، ولا يقدر قربه . فإن خطر له الموت فى بعض الأحوال والحاجة إلى الاستعداد له ، سوَّف بذلك ووعد نفسه ، وقال : الأيام بين يديك إلى أن تكبر ثم تتوب . وإذا كبر قال : إلى أن يصير شيخاً ، وإن صار شيخاً ، قال : إلى أن يفرغ من بناء هذه الدار ، وعمارة هذه الضيعة ، أو يرجع من هذه السفرة . فلايزال يسوِّف ويؤخر ، ولا يحرص فى إتمام شغل إلا ويتعلق بإتمام ذلك الشغل عشرة أشغال ، وهكذا على التدريج يؤخر يوماً بعد يوم ، ويشتغل بشغل بعد شغل ، إلى أن تختطفه المنية فى وقت لا يحتسبه ، فتطول عند ذلك حسرته .

وأكثر صياح أهل النار من « سوف » يقولون : واحسرتاه ! من « سوف » . وأصل هذه الأمانى كلها ، حبُّ الدنيا والأنس بها ، والغفلة عن قول النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ : « **أحبب ما شئت فإنك مفارقه** »[1] .

السبب الثانى : الجهل ، وهو أن الإنسان يعول على شبابه ، ويستبعد قرب الموت مع الشباب ، أو ليس يتفكر المسكين فى أن مشايخ بلده لو عدوا كانوا أقل من العشر ؟ وإنما قلوا لأن الموت فى الشباب أكثر ، وإلى أن يموت شيخ قد يموت ألف صبى وشاب ، وقد يغتر بصحته ، ولا يدرى أن الموت يأتى فجأة ، وإن استبعد ذلك ، فإن المرض يأتى فجأة ، وإذا مرض لم يكن الموت بعيداً ، ولو تفكر وعلم أن الموت ليس له وقت مخصوص ، من صيف وشتاء وربيع وخريف وليل ونهار ، ولا هو مقيد بسن مخصوص ، من شاب وشيخ أو كهل أو غيره ، لعظم ذلك عنده واستعد للموت .

● فصل : تفاوت الناس فى طول الأمل

والناس متفاوتون فى طول الأمل تفاوتاً كثيراً ، منهم من يأمل البقاء إلى زمان الهرم ، ومنهم من لا ينقطع أمله بحال ، ومنهم من هو قصير الأمل ، فروى عن أبى عثمان النهدى أنه قال : بلغت ثلاثين ومائة سنة ، وما من شىء إلا قد عرفت فيه النقصان إلا أملى فإنه كما هو . وحكى فى **قصر الأمل** : أن امرأة حبيب أبى محمد قالت : كان يقول لى ــ يعنى أبا محمد ــ إن مت اليوم فأرسلى إلى فلان يغسلنى ويفعل كذا وكذا ، واصنعى كذا وكذا ، فقيل لها : أرى رؤيا ؟ قلت : هكذا يقول كل يوم .

---

(١) الحديث بلفظ : « إن روح القدس نفث فى روعى أحب من أحببت فإنك مفارقه ، وعش ما شئت فإنك ميت ، واعمل ما شئت فإنك مجزىّ به » . قال العراقى فى تخريج الإحياء [٨٨/١] رواه الشيرازى فى الألقاب من حديث سهر بن سعد نحوه ، والطبرانى فى الصغير والأوسط من حديث على وكلاهما ضعيف ا . هـ.

وعن إبراهيم بن سبط قال : قال لى أبو زرعة : لأقولن لك قولاً ما قلته لأحد سواك : ما خرجت من المسجد منذ عشرين سنة ، فحدثتنى نفسى أن أرجع إليه . وقيل لبعضهم : ألا تغسل قميصك ؟ قال : الأمر أعجل من ذلك . وعن محمد بن أبى توبة قال : أقام معروف الصلاة ثم قال لى : تقدم ، فقلت : إنى إن صليت بكم هذه الصلاة لم أصل بكم غيرها ، فقال معروف : أنت تحدث نفسك أنك تصلى صلاة أخرى ؟ نعوذ بالله من طول الأمل فإنه يمنع خير العمل .

فهذه أحوال الزهاد فى قصر الأمل ، وكلما قصر الأمل ، جاد العمل ، لأنه يقدر أن يموت اليوم ، فيستعد استعداد ميت ، فإذا أمسى شكر الله ــ تعالى ــ على السلامة ، وقدر أنه يموت تلك الليلة فيبادر إلى العمل . وقد ورد الشرع بالحث على العمل والمبادرة إليه ففى « صحيح البخارى » عن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ : « **نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس ، الصحة والفراغ** »[1] .

وعنه : أن رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ قال لرجل وهو يعظه : « **اغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك** »[2] . وقال عمر ــ رضى الله عنه ــ : التؤدة فى كل شىء خير ، إلا ما كان من أمر الآخرة . وكان الحسن يقول : عجباً لقوم أمروا بالزاد ، ونودى فيهم بالرحيل ، وحبس أولهم على آخرهم ، وهم قعود يلعبون .

وقال سحيم مولى بنى تميم : جلست إلى عبد الله بن عبد الله ، فأوجز فى صلاته ، ثم أقبل علىَّ وقال : أرحنى بحاجتك ، فإنى أبادر . فقلت : وما تبادر ؟ قال : ملك الموت . وكان يصلى كل يوم ألف ركعة . وكانوا يبادرون بالأعمال غاية ما يمكن ، فكان ابن عمر يقوم فى الليل فيتوضأ ويصلى ، ثم يغفى إغفاء الطير ، ثم يقوم فيتوضأ ويصلى ، ثم يغفى إغفاء الطير ، ثم يقوم يصلى ، يفعل ذلك مراراً . وكان عمير بن هانىء يسبح كل يوم مائة ألف تسبيحة ، وقال أبو بكر بن عياش : ختمت القرآن فى هذه الزاوية ثمانية عشر ألف ختمة .

● فصل فى ذكر شدة الموت وما يستحب من الأحوال عنده

اعلم : أنه لو لم يكن بين يدى العبد المسكين كرب ، ولا هول سوى الموت ، لكان جديراً أن ينغص عليه عيشه ، ويتكدر عليه سروره ، وتطول فيه فكرته . والعجب أن

---

(١) الحديث فى صحيح البخارى كتاب « الرقاق » باب « ما جاء فى الرقاق وأن لا عيش إلا عيش الآخرة » رقم [٦٤١٢] عن ابن عباس . والحديث فى المستدرك [٤/٣٠٦] .

(٢) فى تخريج الإحياء [٤/٤٤٣] عزاه العراقى لابن أبى الدنيا فى « قصر الأمل » بإسناد حسن ، ورواه ابن المبارك فى الزهد من رواية عمرو بن ميمون الأزدى مرسلاً . ا . هـ . ورواه الحاكم فى مستدركه [٤/٣٠٦] عن ابن عباس وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

الإنسان لو كان فى أعظم اللذات ، فانتظر أن يدخل عليه جندى يضربه خمس ضربات ، لكدرت عليه عيشه ولذته ، وهو فى كل نفس بصدد أن يدخل عليه ملك الموت بسكرات النزع ، وهو غافل عن ذكر ذلك ، وليس لهذا سبب إلا الجهل والغرور .

اعلم : أن الموت أشد من ضرب السيف ، وإنما يصيح المضروب ، ويستغيث لبقاء قوته ، وأما الميت عند موته ، فإنه ينقطع صوته من شدة ألمه ، لأن الكرب قد بالغ فيه ، وغلب على قلبه وعلى كل موضع منه ، وضعفت كل جارحة فيه ، فلم يبق فيه قوة لاستغاثة ، ويود لو قدر على الاستراحة بالأنين والصياح والاستغاثة ، وتجذب الروح من جميع العروق ، ويموت كل عضو من أعضائه تدريجاً ، فتبرد أولاً قدماه ، ثم ساقاه ، ثم فخذاه ، حتى تبلغ الحلقوم ، فعند ذلك ينقطع نظره إلى الدنيا وأهلها ، ويغلق دونه باب التوبة ، قال رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « **إن الله يقبل التوبة من العبد ما لم يغرغر** »[1] .

وقد روى أن الملكين الموكلين بالعبد يتراءيان له عند الموت ، فإن كان صالحاً أثنيا عليه ، وقالا جزاك الله خيراً ، وإن كان صحبهما بشر ، قالا : لا جزاك الله خيراً . عن أنس بن مالك ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « **إن الله ــ عز وجل ــ وكل بعبده المؤمن ملكين يكتبان عمله ، فإذا مات قالا : قد مات ، أتأذن لنا أن نصعد إلى السماء ؟ قال : فيقول الله ــ تعالى ــ: إن سمائى مملوءة من ملائكتى يسبحونى . فيقولان : فتأذن لنا فنقيم فى الأرض ؟ فيقول الله ــ تعالى ــ: إن أرضى مملوءة من خلقى ، يسبحونى ، فيقولان : فأين نقيم ؟ فيقول : قوماً على قبر عبدى ، فسبّحانى واحمدانى وكبرانى وهللانى ، واكتبا ذلك لعبدى إلى يوم القيامة** » .

وفى « الصحيحين » من حديث عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « **إن المؤمن إذا حضره الموت ، بشر برضوان الله وكرامته ، فليس شىء أحبُّ إليه مما أمامه ، وأما صاحب النار الذى خم له بسوء فهو يبشر بها وهو فى تلك الأهوال** »[2] . وقد كان كثير من السلف يخافون سوء الخاتمة ، وقد ذكرنا ذلك فى كتاب الخوف ، وهو لائق بهذا المكان ، نسأل الله أن يرحمنا برحمته التى وسعت كل شىء ، وأن يلطف بنا ، وأن يختم لنا بخير إنه جواد كريم .

وأما ما يستحب من الأحوال عند المحتضر ، فأن يكون قلبه يحسن الظن بالله ــ تعالى ــ، ولسانه ينطق بالشهادة ، والسكون من علامات اللطف ، وهو أمارة على أنه قد رأى الخير ، وقد روى أن روح المؤمن تخرج رشحاً . ويستحب تلقينه : لا إلٰه إلا الله ، كما جاء فى الحديث الصحيح من رواية مسلم : « **لقنوا موتاكم لا إلٰه إلا الله** »[3] وينبغى للملقن أن

(١) تقدم تخريجه فى كتاب التوبة بأول الربع الرابع من هذا الكتاب .

(٢) رواه البخارى عن عائشة بنحوه : كتاب الرقاق باب من أحب لقاء الله .

(٣) كنز العمال [٤٢١٦٧/١٥] وعزاه أحمد ، مسلم ، والأربعة عن أبى سعيد ، مسلم وابن ماجه عن أبى هريرة ، النسائى عن عائشة .

يرفق به ، ولا يلح عليه . وقد جاء فى حديث آخر : « **احضروا موتاكم ، ولقنوهم لا إله إلا الله ، وبشروهم بالجنة ، فإن الحليم العليم من الرجال والنساء يتحير عند ذلك المصرع ، وإن إبليس عدو الله أقرب ما يكون من العبد فى ذلك الموطن** » . وذكر الحديث إلى آخره .

وفى الحديث الصحيح : « **لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله** »[1] . وروى أن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ دخل على رجل وهو يموت فقال : « **كيف تجدك ؟** » قال : أرجو الله وأخاف ذنوبى . فقال : « **ما اجتمعا فى قلب عبد فى مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله الذى يرجو ، وأمّنه من الذى يخاف** »[2] . والرجاء عند الموت أفضل ، لأن الخوف سوط يساق به ، وعند الموت يقف البصر ، فينبغى أن يتلطف به ، ولأن الشيطان يأتى حينئذ بسخط العبد على الله فيما يجرى عليه ، ويخوفه فيما بين يديه ، فحسن الظن أقوى سلاح يدفع به العدو . وقال سليمان التيمى لابنه عند الموت : يابنى ! حدثنى بالرخص ، لعلى ألقى الله ــ تعالى ــ وأنا أحسن الظن به .

باب ذكر وفاة رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ والخلفاء الراشدين ـ رضى الله عنهم ـ

اعلم : أن فى رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ أسوة حسنة فى كل أحواله ، ومعلوم أنه ليس فى المخلوقين أحد أحب إلى الله ــ تعالى ــ منه ، ولم يؤخره الله ــ تعالى ــ حين انقضى أجله . وقد لقى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ من الموت شدة ، فروى البخارى فى « صحيحه » من حديث عائشة ــ رضى الله عنها ــ قالت : كان بين يدى رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ ركوة أو علبة فيها ماء ، فجعل يدخل يده فى الماء ، فيمسح بها وجهه ويقول : « **لا إله إلا الله ، إن للموت لسكرات** »[3] .

وفى « صحيح البخارى » من حديث أنس ــ رضى الله عنه ــ قال : لما ثقل النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ، جعل يتغشاه الكرب ، فقالت فاطمة ــ رضى الله عنها ــ: واكرب أبتاه ! فقال لها : « **ليس على أبيك كرب بعد اليوم** »[4] . وروى ابن مسعود قال : اجتمعنا فى بيت أمنا عائشة ــ رضى الله عنها ــ، فنظر إلينا رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ فدمعت عيناه ، فنعى إلينا نفسه وقال : « **مرحباً ، حياكم الله بالسلام ،**

(١) رواه مسلم فى كتاب الجنة وصفه نعيمها وأهلها برقم [٨١ ، ٨٢] .

(٢) رواه ابن ماجه فى سننه كتاب « الزهد » باب « ذكر الموت » رقم [٤٢٦١] . ورواه الترمذى فى كتاب « الجنائز » باب [١١] وقال : هذا حديث حسن غريب من حديث أنس ، قال النووى إسناده جيد ، انظر تخريج العراقى [١٤١/٤] .

(٣) صحيح البخارى كتاب « الرقاق » باب « سكرات الموت » رقم [٦٥١٠] .

(٤) البخارى فى « المغازى » باب « وفاة النبى » رقم [٤٤٦٢] .

حفظكم الله ، رعاكم الله ، جمعكم الله ، نصركم الله وفقكم الله ، نفعكم الله ، رفعكم الله ، سلمكم الله ، أوصيكم بتقوى الله ، وأوصى الله بكم ، واستخلفه عليكم » . قلنا : يارسول الله : متى أجلك ؟ قال : « قد دنا الأجل ، والمنقلب إلى الله ، وإلى سدرة للنتهى وجنة المأوى ، والفردوس الأعلى » . قلنا : يارسول الله ؟ ففيم نكفنك ؟ قال : « فى ثيابى هذه إن شئتم ، أو يمنية ، أو بياض » . فقلنا : يارسول الله ! من يصلى عليك ؟ وبكينا ، فقال : « مهلاً ، رحمكم الله ، وجزاكم عن نبيكم خيراً ، إذا غسلتمونى وكفنتمونى ، فضعونى على سريرى هذا على شفير قبرى ، ثم أخرجوا عنى ساعة ، فإن أول من يصلى علىَّ خليلى وحبيبى جبريل ، ثم ميكائيل ، ثم إسرافيل ، ثم ملك الموت ، ثم ملائكة كثيرة ، ثم ادخلوا علىَّ فوجاً فوجاً ، فصلوا علىَّ وسلموا تسليماً ، ولا تؤذونى بتزكية ، ولا برنة ، ولا بصيحة ، وليبدأ بالصلاة علىَّ رجال أهل بيتى ، ثم نساؤهم ، ثم أنتم بعد ، وأقرؤوا السلام على من غاب عنى من أصحابى ، وعلى من تابعنى على دينى إلى يوم القيامة ، ألا وإنى أشهدكم أنى قد سلمت على كل من دخل فى الإسلام »[1] .

ولقد دخل عليه ـــ جبريل ـــ قبل موته بثلاثة أيام فقال : يامحمد ؟ إن الله أرسلنى إليك يسألك عما هو أعلم به منك ، يقول : كيف تجدك ؟ فقال: « أجدنى ياجبريل مغموماً ، وأجدنى مكروباً » ثم أتاه فى اليوم الثانى ، فأعاد الكلام ، وأعاد عليه الجواب ، ثم جاءه فى اليوم الثالث وأعاد عليه الكلام ، فأعاد عليه الجواب ، فإذا ملك الموت يستأذن ، فقال جبريل : ياأحمد : هذا ملك الموت يستأذن عليك ، ولم يستأذن على آدمى قبلك ، ولا يستأذن على آدمى بعدك ، فقال : « ائذن له » ، فدخل ، فوقف بين يديه وقال : « إن الله أرسلنى إليك : وأمرنى أن أطيعك ، فإن أمرتنى أن أقبض نفسك قبضتها ، وإن أمرتنى أن أتركها تركتها ، قال رسول الله ـــ صلى الله عليه وآله وسلم ـــ: « وتفعل ياملك الموت ؟ » قال : كذلك أمرت أن أطيعك . فقال جبريل : ياأحمد ! إن الله قد اشتاق إليك . فقال : « فامض لما أمرت به ياملك الموت » ، فقال جبريل ـــ عليه السلام ـــ: « السلام عليك يارسول الله ، هذا آخر موطنى فى الأرض إنما كنت حاجتى من الدنيا »[2] .

---

(١) قال الحافظ العراقى : رواه البزار . وقال : هذا الكلام روى عن مُرّة عن عبد الله من غير وجه وأسانيدها مقاربة ، قال : وعبد الرحمن الأصبهانى ـــ أحد رجال السند ـــ لم يسمع هذا من مرة وإنما هو عمن أخبره عن مرة ، قال : ولا أعلم أحدًا رواه عن عبد الله غير مرة . قلت : وقد روى من غير ما وجه ، رواه ابن سعد فى الطبقات من رواية ابن عوف عن ابن مسعود ، ورويناه فى مشيخة القاضى أبى بكر الأنصارى من رواية الحسن العرنى عن ابن مسعود ولكنهما منقطعان وضعيفان ، والحسن العرنى إنما يرويه عن مرة ، كما رواه ابن أبى الدنيا والطبرانى فى الأوسط ا . هـ . [٤٥٣/٤] .

(٢) أخرجه الطبرانى عن الحسن بن على وفى سنده عبد الله بن ميمون القداح (متروك) [ترجمته فى المتروكين للنسائى رقم ٣٣٦ ، الميزان ٤١٥/٢ ، الكبير ٢٠٦/٥] .

فتوفى رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ مستنداً إلى صدر عائشة ــ رضى الله عنها ــ فى كساء ملّبد ، وإزار غليظ ، وقامت فاطمة ــ رضى الله عنها ــ تندب وتقول : يأبتاه ! أجاب رباً دعاه ، يأبتاه ! جنة الفردوس مأواه ، يأبتاه ! إلى جبريل ننعاه ، يأبتاه ! من ربه ما أدناه ، فلما دفن قالت: ياأنس أطابت أنفسكم أن تحثوا التراب على رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ! وقال أبو بكر ــ رضى الله عنه ــ:

لما رأيت نبينا متجدلا ... ضاقت علىّ بعرضهن الدور
وارتعت روعة مستهام والهٍ ... والعظم منى واهن مكسور
أعتيق ويحك إن حِبّك قد ثوى ... وبقيت منفرداً وأنت حسير
ياليتنى من قبل مَهْلك صاحبى ... غُيِّبتُ فى جَدَثٍ علىّ صخور

● وفاة أبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ

روى أبو المليح أن أبا بكر ــ رضى الله عنه ــ لما حضرته الوفاة أرسل إلى عمر ــ رضى الله عنه ــ فقال : إنى أُوصيك بوصية ، إن أنت قبلت عنى : إن لله ــ عزوجل ــ حقاً بالليل لا يقبله بالنهار وإن لله حقاً بالنهار لا يقبله بالليل ، وإنه لا يقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة ، وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه فى الآخرة باتباعهم الحق فى الدنيا ، وثقلت ذلك عليهم ، وحق لميزان يوضع فيه الحق أن يكون ثقيلاً ، وإنما خفت موازين من خفت موازينه فى الآخرة باتباعهم الباطل ، وخفته عليهم فى الدنيا ، وحق لميزان يوضع فيه الباطل أن يكون خفيفاً .

ألم تر أن الله أنزل آية الرجاء عند آية الشدة ، وآية الشدة عند آية الرجاء ، ليكون العبد راغباً راهباً لا يلقى بيديه إلى التهلكة ، ولا يتمنى على الله ــ غير الحق ــ فإن أنت حفظت وصيتى هذه ، فلا يكونن غائب أحب إليك من الموت ، ولابد لك منه ، وإن أنت ضيعت وصيتى هذه فلا يكونن غائب أبغض إليك من الموت ، ولابد لك منه ولست تعجزه وقيل : لما احتضر جاءت عائشة ــ رضى الله عنها ــ فتمثلت بهذا البيت :

لَعمْرُك ما يُغنى الثراء عن الفتى ... إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

فكشف عن وجهه وقال : ليس كذلك ، ولكن قولى : ﴿ **وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ** ﴾[1] . انظروا ثوبىّ هذين ، فاغسلوهما وكفنونى فيهما ، فإن الحى أحوج إلى الجديد من الميت .

● وفاة عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ

وعن ابن عمر قال : كان رأس عمر فى حجرى بعد ما طعن ، وكان مرضه الذى توفى

(١) ق : ١٩

فيه ، فقال : ضع خدى على الأرض ، فقلت : وما عليك إن كان فى حجرى أم على الأرض ؟ وظننت أن ذلك تبرم به ، فلم أفعل ، فقال: ضع خدى على الأرض لا أم لك ، ويلى وويل أمي إن لم يرحمنى ربى .

وروى أنه لما طعن وحمل إلى بيته ، وجاء الناس يثنون عليه ،جاء رجل شاب فقال : أبشر ياأمير المؤمنين ببشرى من الله ــ لك ــ صحبة من رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ وقدم فى الإسلام ما قد علمت ، ثم ولّيت فعدلت ، ثم شهادة ، فقال: وددت أن ذلك كان كفافاً ، لا لّى ولا علىَّ ، ثم قال : ياعبد الله بن عمر ، انطلق إلى عائشة أم المؤمنين فقل عمر يقرأ عليك السلام ولا تقل : أمير المؤمنين فإنى لست اليوم للمؤمنين أميراً ، وقل : يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن عند صاحبيه . فمضى وسلم واستأذن عليها ، ثم دخل فوجدها قاعدة تبكى ، فقال : عمر يقرأ عليك السلام ، ويستأذن أن يدفن عند صاحبيه ، فقالت : كنت أريده لنفسى ، ولأوثرنه اليوم على نفسى . فلما أقبل ، قيل : هذا عبد الله بن عمر قد جاء ، قال : ارفعونى ، فأسنده رجل إليه ، فقال : ما وراءك ؟ قال : الذى تحب ياأمير المؤمنين ، أذنت . قال : الحمد لله ، ما كان شيء أحب إلى من ذلك ، فإذا أنا مت فاحملونى ، ثم سلم ، وقل : يستأذن عمر بن الخطاب ، فإن أذنت ، فأدخلونى ، وإن ردتنى ، فردونى إلى مقابر المسلمين .

وفى أفراد مسلم[1] من حديث المسور بن مخرمة ، أن عمر قال: والله لو أن لى طلاعَ(*) الأرض ذهباً ، لافتديت به من عذاب الله قبل أن أراه . وفى خبر آخر : والله لو أن لى ما طلعت عليه الشمس أو غربت ، لافتديت به من هول المطلع .

● وفاة عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ

عن نائلة بنت الفرافصة امرأة عثمان ــ رضى الله عنه ــ، قالت : لما كان اليوم الذى قتل فيه عثمان ، ظل فى اليوم الذى قبله صائماً ، فلما كان عند إفطاره ، سألهم الماء العذب فلم يعطوه ، فنام ولم يفطر ، فلما كان وقت السحر أتيتُ جاراتٍ لى على أجاجير متصلة ، فسألتهم الماء العذب ، فأعطونى كوزاً من ماء ، فأتيته فحركته فاستيقظ ، فقلت: هذا ماء عذب ، فرفع رأسه فنظر إلى الفجر ، فقال : إنى قد أصبحت صائماً ، وإن رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ اطلع علىَّ من هذا السقف ومعه ماء عذب ، فقال : « **اشرب ياعثمان** » ! فشربت حتى رويت ، ثم قال : « **ازدد** » ، فشربت حتى نهلت ، ثم قال : « **إن القوم سينكرون عليك ، فإن قاتلتهم ظفرت ، وإن تركتهم أفطرت عندنا** » . قالت : فدخلوا عليه من يومه فقتلوه .

---

(١) **قلت : لا والله بل هو فى صحيح البخارى كتاب « فضائل الصحابة » ــ فضائل عمر رقم [٣٦٩٢] .**

(*) **طِلاع الأرض : ملء الأرض .**

وعن العلاء بن الفضيل ، عن أبيه ، قال : لما قتل عثمان بن عفان ــ رضى الله عنه ــ فتشوا خزانته ، فوجدوا فيها صندوقاً مقفلاً ففتحوه ، فوجدوا فيه حقة فيها ورقة مكتوب فيها : هذه وصية عثمان ، بسم الله الرحمن الرحيم ، عثمان بن عفان يشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن الجنة حق ، وأن النار حق ، وأن الله يبعث من فى القبور ليوم لا ريب فيه ، إن الله لا يخلف الميعاد ، عليها نحيا ، وعليها نموت ، وعليها نبعث إن شاء الله ــ تعالى ــ.

● وفاة على بن أبى طالب - رضى الله عنه -

عن الشعبى ، قال : لما ضرب علىٌّ ــ رضى الله عنه ــ تلك الضربة ، قال : ما فعل بضاربى ؟ قالوا : أخذناه ، قال : أطعموه من طعامى ، واسقوه من شرابى ، فإن أنا عشت رأيت فيه رأيى ، وإن أنا مت فاضربوه ضربة واحدة لا تزيدوه عليها ، ثم أوصى الحسن أن يغسله وقال : لا تغالى فى الكفن ، فإنى سمعت رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ يقول : **« لا تغالوا فى الكفن فإنه يسلب سلباً سريعاً »** ، امشوا بى المشيتين لا تسرعوا بى ، ولا تبطئوا ، فإن كان خيراً عجلتمونى إليه ، وإن كان شراً ألقيتمونى عن أكتافكم . وروى أنه لما كانت الليلة التى أصيب فيها على ــ رضى الله عنه ــ أتاه ابن التياح حين طلع الفجر يؤذنه بالصلاة وهو مضطجع متثاقل ، فعاد الثانية وهو كذلك ، ثم عاد الثالثة فقام يمشى وهو يقول :

اشـدد حيـازيمك للمـوت ... فـإن الموت لاقـيك(١)
ولا تجزع مـن المـوت ... وإن حـل بنـاديك(٢)

فلما بلغ الباب الصغير شد عليه عبد الرحمن بن ملجم فضربه .

● ذكر كلمات نقلت عن جماعة عند موتهم من الصحابة وغيرهم وذكر زيارة القبور ونحو ذلك

لما نزل للموت بالحسن بن على ــ رضى الله عنهما ــ قال : أخرجوا فراشى إلى صحن الدار ، فأخرج فقال : اللٰهم إنى أحتسب نفسى عندك ، فإنى لم أصب بمثلها . وقد ذكرنا ما تقدم من كلام الخلفاء الأربعة ــ رضى الله عنهم ــ.

وروى أن معاذ بن جبل لما حضرته الوفاة قال : انظروا هل أصبحنا ؟ فأُتى فقيل : لم تصبح ، حتى أُتى فى بعض ذلك ، فقيل له : لقد أصبحنا ، فقال : أعوذ بالله من ليلة صباحها إلى النار ، ثم قال : مرحباً بالموت زائرٍ مغيب ، وحبيب جاء على فاقة ، اللٰهم إنى كنت

---

(١) فى إحياء علوم الدين [٤/٤٦٤] ما نصه : فإن الموت لاقيكا .
(٢) فى السابق : إذا حلّ بواديكا .

أخافك وأنا اليوم أرجوك ، اللهم إنك تعلم أنى لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكرى الأنهار(*) ولا لغرس الأشجار ، ولكن لطول ظمأ الهواجر ، وقيام ليل الشتاء ، ومكابدة الساعات ، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر .

وقال أبو مسلم : جئت أبا الدرداء وهو يجود بنفسه ويقول : ألا رجل يعمل لمثل مصرعى هذا ؟ ألا رجل يعمل لمثل يومى هذا ؟ ألا رجل يعمل لمثل ساعتى هذه ؟ قبض ــ رحمه الله ــ. وبكى سلمان الفارسى عند موته ، فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : عهد إلينا رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ أن يكون زاد أحدنا كزاد الراكب ، وحولى هذه الأزواد . وقيل : إنما كان حوله إجانة وجفنة ومطهرة .

وروى المزنى قال : دخلت على الشافعى فى مرضه الذى مات فيه ، فقلت له : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت من الدنيا راحلاً ، وللإخوان مفارقاً ، ولسوء عملى ملاقياً ، ولكأس المنية شارباً ، وعلى الله وارداً ، ولا أدرى أروحى تصير إلى الجنة فأهنئها ، أم إلى النار فأعزيها ، ثم أنشأ يقول :

ولما قسا قلبى وضاقت مذاهبى جعلت الرجا منى بعفوك سلما
تعاظمنى ذنبى فلما قرنته بعفوك ربى كان عفوك أعظما
ومازلت ذا عفو عن الذنب لم تزل تجود وتعفو منة وتكرما

قيل : كان أبو الدرداء ــ رضى الله عنه ــ يقعد إلى القبور ، فقيل له فى ذلك ، فقال : أجلس إلى قوم يذكّرونى معادى ، وإن غبت لم يغتابونى . وقال ميمون بن مهران : خرجت مع عمر بن عبد العزيز إلى المقبرة ، فلما نظر إلى القبور بكى ، ثم أقبل علىّ فقال : يا ميمون ، هذه قبور آبائى بنى أمية ، كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا فى لذاتهم وعيشهم ، أما تراهم صرعى قد حلت بهم المثلات ، واستحكم فيهم البلاء ، وأصاب الهوام مقيلاً فى أبدانهم ؟ ثم بكى وقال: والله ما أعلم أحداً أنعم ممن صار إلى هذه القبور ، وقد أمن من عذاب الله ــ تعالى ــ.

وتُستحب زيارة القبور ، فإن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ قال : « **زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة** »(١) ومن زار قبراً فليستقبل وجه الميت ، وليقرأ شيئاً من القرآن ويهديه له ، ولتكن الزيارة يوم الجمعة . وقد روى أنه لما مات عاصم الجحدرى رآه رجل من أهله فى المنام بعد موته بسنتين فقال له : ألست قدمتَّ ؟ قال : بلى . قال: وأين أنت ؟ قال عاصم : أنا والله فى روضة من رياض الجنة ، أنا ونفر من أصحابى ، نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها إلى أبى بكر بن عبد الله المزنى نتلاقى أخباركم ، قال : قلت له : أجسامكم أم أرواحكم ؟ قال : هيهات ! بليت الأجسام ، وإنما تتلاقى الأرواح . قلت : فهل تعلمون

(*) كرى النهر : حفره .

(١) سنن ابن ماجه كتاب الجنائز ، باب « ما جاء فى زيارة القبور » رقم [١٥٦٩] .

بزيارتنا إياكم قال : نعلم بها عشية الجمعة ويوم الجمعة كله ، ويوم السبت إلى طلوع الشمس . قلت : وكيف ذلك دون الأيام كلها ؟ قال : لشرف يوم الجمعة وعظمه[1] .

وحكى عثمان بن سواد الطفاوى وكانت أمه من العابدات ، وكان يقال لها : راهبة ، قال : لما احتضرت رفعت رأسها إلى السماء وقالت : ياذخرى وياذخيرتى ومن عليه اعتمادى فى حياتى وبعد مماتى ، لاتخذلنى عند الموت ، ولا توحشنى فى قبرى . قال : فماتت ، فكنت آتيها كل جمعة وأدعو لها ، واستغفر لها ولأهل القبور ، فرأيتها ليلة فى منامى فقلت لها : ياأماه ! كيف أنت ؟ قالت : يابنى ! إن الموت لكرب شديد ، وأنا بحمد الله فى برزخ محمود ، يفترش فيه الريحان ، ويتوسد فيه السندس والاستبرق إلى يوم النشور . فقلت : ألك حاجة ؟ قالت : نعم ، لا تدع ما كنت تصنع من زيارتنا فإنى لأسر بمجيئك يوم الجمعة إذا أقبلت من أهلك ، فيقال لى : ياراهبة ! هذا ابنك قد أقبل ، فأسر ويسر بذلك من حولى من الأموات[2] .

وعن أنس بن منصور[*] قال : كان رجل يختلف إلى الجنائز فيشهد الصلاة عليها ، فإذا أمسى وقف على باب المقابر فقال : آنس الله وحشتكم ، ورحم غربتكم ، وتجاوز عن سيئاتكم ، وقبل حسناتكم ، لا يزيد على هؤلاء الكلمات ، قال ذلك الرجل : فأمسيت ذات ليلة ، ولم آت المقابر فأدعو كما كنت أدعو ، فبينا أنا نائم إذا أنا بخلق كثير قد جاءونى فقلت : من أنتم ؟ وما حاجتكم ؟ قالوا : نحن أهل المقابر ، إنك كنت عودتنا منك هدية . فقلت : وما هى ؟ قالوا : الدعوات التى كنت تدعو بها . قلت : فإنى أعود لذلك ، فما تركتها بعد[3] .

وقال بشلر بن غالب : رأيت رابعة فى منامى ، وكنت كثير الدعاء لها ، فقالت لى : يابشار هداياك تأتينا على أطباق من نور ، مخمرة بمناديل الحرير . قلت : وكيف ذلك ؟ قالت : هكذا دعاء الأحياء إذا دعوا للموتى واستجيب لهم ، جعل ذلك الدعاء على أطباق النور ، وخمر بمناديل الحرير ، ثم أتى به إلى الذى دعى له من الموتى ، فقيل له : هذه هدية فلان إليك .

---

(١) رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب « المنامات » رقم[٥٨ ص ٥٤ ، ٥٥] وإسناده ضعيف ؛ لأن فيه جهالة أحد الرواة ..، وذكره ابن القيم فى كتاب الروح ص [٦] وفى سنده يحيى بن بسطام المصفر قال ابن حبان : لاتحل الرواية عنه ، ونقل ابن القيم هذا الخبر عن كتاب القبور لابن أبى الدنيا .

(٢) الخبر فى كتاب « الروح » لابن القيم ص [٨] وقد نقله عن كتاب « القبور » لابن أبى الدنيا وفى سنده يحيى بن بسطام المصفر ، لا تحل الرواية عنه كما تقدم .

(*) فى كتاب الروح لابن القيم ص [٨] : عن بشر بن منصور .

(٣) الخبر نقله ابن القيم فى الروح ص [٨] عن كتاب « القبور » لابن أبى الدنيا ، وفى سنده محمد بن عبد العزيز لم أجد له ترجمة ، كما أن فيه جهالة أحد الرواة وهو راوى الخبر فإسناده ضعيف ، والتزام الدعاء المذكور خلاف الأدعية المأثورة الثابتة عنه ـ ﷺ ـ ، ولذا يعتبر بدعة .

● فصل فى حقيقة الموت

والذى تدل عليه الآيات والأخبار أن حقيقة الموت ، هو مفارقة الروح للجسد ، وإن الروح تكون بعد ذلك باقية ، إما معذبة أو منعمة ، فإن الروح قد تتألم بنفسها بأنواع الحزن والغم ، وتتنعم بأنواع الفرح والسرور من غير تعلق لها بالأعضاء فكل ما هو وصف للروح بنفسها ، يبقى معها بعد مفارقة الجسد ، وكل ما هو لها بواسطة الأعضاء يتعطل بموت الجسد إلى أن تعاد الروح إلى الجسد ، ولا يبعد أن تعاد الروح إلى الجسد فى القبر ، ولا يبعد أن تؤخر إلى يوم البعث ، والله ــ سبحانه ــ أعلم بما حكم به على كل عبد من عباده . فمعنى الموت انقطاع تصرف الروح عن البدن ، وخروج البدن عن أن يكون آلة لها ، وسلب الإنسان عن أمواله وأهله بإزعاجه إلى عالم آخر لا يناسب هذا العالم . فإن كان له بالدنيا شىء يفرح به ، ويستريح إليه ، عظمت حسرته عليه بعد الموت ، وإن كان لا يفرح إلا بذكر الله ــ تعالى ــ والأنس به ، عظم نعيمه وتمت سعادته إذا خلى بينه وبين محبوبه ، وقطعت عنه العوائق والشواغل ، لأن جميع شواغل الدنيا شاغلة عن ذكر الله ــ تعالى ــ.

وينكشف للميت بالموت ما لم يكن مكشوفاً فى حال الحياة ، كما ينكشف للمتيقظ ما لم يكن مكشوفاً له عند النوم ، والناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا . وأول ما ينكشف له ما يضره وما ينفعه من حسناته وسيئاته ، قد كان ذاك مسطوراً فى كتاب مطوى فى سر قلبه ، وكان يشغله عن الاطلاع عليه شواغل الدنيا ، فلما انقطعت انكشفت له جميع أعماله ، فلا ينظر إلى سيئة إلا ويتحسر عليها تحسراً يؤثر أن يخوض غمرة النار للخلاص من تلك الحسرة ، وكل ذلك ينكشف له عند الموت ، وهذه آلام تهجم على العاصى قبل الدفن ، نسأل الله العافية .

ومما يدل على أن الروح لا تنعدم بالموت ، قوله ــ تعالى ــ: ﴿ **وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فى سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عندَ رَبِّهم يُرْزَقُونَ** ﴾[1] . قال مسروق : سألنا عبد الله ابن مسعود ــ رضى الله عنه ــ عن هذه الآية فقال : أرواحهم فى جوف طير خضر ، لها قناديل معلقة بالعرش ، تسرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوى إلى تلك القناديل ، وذكر تمام الحديث . وجاء فى قوله ــ تعالى ــ: ﴿ **النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدواً وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَونَ أَشَدَّ العَذَابِ** ﴾[2] . أخبر أنهم يعذبون بعد الموت .

وفى « الصحيحين » عن ابن عمر ــ رضى الله عنهما ــ قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « **إن أحدكم إذا مات ، عرض عليه مقعده بالغداة والعشى ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، فيقال : هذا**

(١) آل عمران ــ ١٦٩ . (٢) غافر : ٤٦ .

مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة »[1] . وقد تقدم أن الإنسان إذا انكشفت له سيئاته تحسر لها وتألم تألماً عظيماً ، فأما المؤمن ، فقال عبد الله بن عمر : مثل المؤمن حين تخرج نفسه مثل رجل كان فى سجن فأخرج منه ، فهو يتفسح فى الأرض ، ويتقلب فيها . وهو صحيح ، فإن المؤمن ينكشف عليه عقيب الموت من فضل الله وكرامته ما تكون الدنيا بالإضافة إليه كالسجن ، فيكون كمحبوس فى بيت مظلم فتح له باب إلى بستان واسع الأكناف ، فيه أنواع الأشجار ، فلا يسره الرجوع إلى الدنيا كما لا يسره العود إلى بطن أمه . وقال مجاهد : إن المؤمن ليبشر بصلاح ولده من بعد لتقر بذلك عينه .

● فصل فى ذكر القبر

روى عن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ أنه قال: **« القبر روضة من رياض الجنة ، أو حفرة من حفر النار »**[2] . وروى أيضاً عن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ أنه قال : **« يقول القبر للميت حين يوضع فيه : ويحك يابن آدم ! ما غرك ؟! ألم تعلم أنى بيت الظلمة ، وبيت الوحدة ، وبيت الدود ؟ »**[3] .

وروى الترمذى عن أبى سعيد ــ رضى الله عنه ــ قال : دخل رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ مصلاَّه ، فرأى ناساً كأنهم يكثرون ، فقال: **« أما إنكم لو أكثرتم من ذكر هادم اللذات لشغلكم عما أرى ، فأكثروا ذكر هادم اللذات : الموت ، فإنه لم يأت على القبر يوم إلا يتكلم فيقول : أنا بيت الغربة ،أنا بيت الوحدة ، أنا بيت التراب ، أنا بيت الدود . فإذا دفن العبد المؤمن قال له القبر : مرحباً وأهلاً ، أما إن كنت لأحب من يمشى على ظهرى إلىَّ ، فإذا وليتك اليوم وصرت إلىَّ ، فسترى صنيعى بك ، فيتسع له مد بصره ، ويفتح له باب إلى الجنة ، وإذا دفن العبد الفاجر أو الكافر قال له القبر : لا مرحباً ولا أهلاً ، أما إن كنت لأبغض من يمشى على ظهرى إلىَّ ، فإذا وليتك اليوم وصرت إلىَّ ، فسترى صنيعى بك ، قال : فيلتئم عليه حتى تختلف أضلاعه »** ، وقال رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ بأصابعه ، **فأدخل بعضها فى بعض قال : « ويقيض له سبعون تنيناً ، لو أن واحداً منها نفخ فى الأرض ما أنبتت شيئاً ما بقيت الدنيا ، فينهشنه ويخدشنه ، حتى يقضى به إلى الحساب ، قال رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « القبر روضة من رياض الجنة ، أو حفرة من حفر النار »**[4] .

---

(١) البخارى فى « الرقاق » باب « سكرات الموت » رقم [٦٥١٥] ، وسلم فى كتاب « الجنة » رقم [٦٥ ، ٦٦] .

(٢) ذكره العجلونى فى « كشف الالتباس » رقم [١٨٥٣] وقال : حديث ضعيف وعزاه للطبرانى ، ومجمع الزوائد [٤٦/٣] وعزاه للطبرانى فى الأوسط وقال : ضعيف لأن فيه محمد بن أيوب بن سويد .

(٣) فى مجمع الزوائد [٤٥/٣ ــ ٤٦] عزاه للطبرانى فى الأوسط وفيه محمد بن أيوب بن سويد وهو ضعيف .

(٤) تقدم تخريجه .

وقال كعب : إذا وضع الرجل الصالح فى قبره ، احتوشته أعماله الصالحة : الصلاة ، والصيام ، والحج ، والجهاد ، والصدقة . وقال : وتجىء ملائكة العذاب من قبل رجليه فتقول الصلاة : إليكم عنه فلا سبيل لكم عليه ، فقد أطال لى القيام لله ــ عز وجل ــ، قال : فيأتونه من قبل رأسه ، فيقول الصيام : لا سبيل لكم عليه فقد أطال لى الصيام . قال : فيأتونه من قبل جسده ، فيقول الحج والجهاد : إليكم عنه ، فقد أنصب نفسه ، وأتعب بدنه ، وحج وجاهد لله ــ عز وجل ــ، لاسبيل لكم عليه . فيأتونه من قبل يديه ، فتقول الصدقة : كم من صدقة خرجت من هاتين اليدين حتى وضعت فى يد الله ابتغاء وجهه ، فلا سبيل لكم عليه . قال : فيقال له : هنيئاً طبت حياً ، وطبت ميتاً . قال : وتأتيه ملائكة الرحمة ، فتفرشه فراشاً فى الجنة ودثاراً من الجنة ، فيفسح له فى قبره مد بصره ، ويؤتى بقنديل من الجنة يستضىء بنوره إلى يوم يبعثه الله من قبره .

وعن أنس بن مالك أن نبى الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ قال : « **إن العبد إذا وضع فى قبره وتولى عنه أصحابه حتى إنه ليسمع قرع نعالهم ، أتاه ملكان فيقعدانه ، فيقولان له : ما كنت تقول فى هذا الرجل محمد ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ؟ فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله . فيقولان : انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله ــ عز وجل ــ به مقعداً فى الجنة . قال رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ : فيراهما جميعاً . وأما الفاجر أو المنافق فيقال له : ما كنت تقول فى هذا الرجل ؟ فيقول : لا أدرى كنت أقول ما يقول الناس ، فيقال له : لا دريت ولا تليت ، ثم يضرب بمطارق من حديد ضربة بين أذنيه ، فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين** » أخرجاه فى « الصحيحين »[1] .

وفيهما من حديث أسماء بنت أبى بكر عن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ أنه قال : « **أوحى إلَىَّ أنكم تفتنون فى قبوركم مثل ــ أو قال قريباً من ــ فتنة المسيخ الدجال ، يقال : ما علمك بهذا الرجل ؟ فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله** .. » وذكر باقى الحديث[2] . وعن ابن عباس قال : لما أخرجت جنازة سعد بن معاذ وسوينا عليها ، التفت إلينا رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ فقال : « **ما من أحد من الناس إلا وله ضغطة فى قبره ، ولو كان منفلتاً منها أحد لانفلت سعد بن معاذ** » . وذكر باقى الحديث[3] .

---

(١) صحيح البخارى كتاب « الجنائز » باب « الميت يسمع خفق النعال » رقم [١٣٣٨] ، المسند [٢٧٢/٢] .
(٢) رواه البخارى كتاب « الجمعة » باب [٢٩] رقم [٩٢٢] ، مسلم فى « الكسوف » رقم [٨ ، ١١] .
(٣) ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد [٤٦/٣ ــ ٤٧] وقال : رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط عن ابن عباس ورجاله موثقون .

وعن عبد الله الصنعانى قال : رأيت يزيد بن هارون فى المنام بعد موته بأربع ليل ، فقلت : ما فعل الله بك ؟ قال : تقبل منى الحسنات ، وتجاوز عنى السيئات . قلت : وما كان بعد ذلك ؟ قال : وهل يكون من الكريم إلا الكرم ، غفر لى ذنوبى وأدخلنى الجنة ، قلت : بم نلت الذى نلت ؟ قال : بمجالس الذكر ، وقولى الحق ، وصدق فى الحديث ، وطول قيامى فى الصلاة ، وصبرى على الفقر ، قلت : منكر ونكير حق ؟ قال : أى والله الذى لا إله إلا هو ، لقد أقعدانى وسألانى : من ربك ؟ وما دينك ، ومن نبيك ؟ فجعلت أنفض لحيتى البيضاء من التراب ، وقلت : مثلى يسأل ؟! أنا يزيد بن هارون الواسطى ، كنت فى دار الدنيا ستين سنة أعلم الناس ؟ فقال أحدهما : صدق ، هو يزيد بن هارون ، نم نومة العروس ، فلا روعة عليك بعد اليوم .

وقال المروزى : رأيت أحمد بن حنبل فى النوم فى روضة ، وعليه حلتان خضراوان ، وعلى رأسه تاج من النور ، وإذا هو يمشى مشية لم أكن أعرفها له ، فقلت : ياأحمد ! ما هذه المشية التى لم أكن أعهدها لك ؟ فقال : هذه مشية الخدام فى دار السلام . فقلت : وما هذا التاج الذى أراه على رأسك ؟ فقال : إن ربى ــ عز جل ــ أوقفنى وحاسبنى حساباً يسيراً ، وكسانى وحبانى وقربنى ، وأنا أنظر إليه ، وتوجنى بهذا التاج وقال لى : ياأحمد ! هذا تاج الوقار توجتك به ، كما قلت : القرآن كلامى غير مخلوق .

● فصل فى أحوال الميت من وقت نفخة الصور إلى حين الاستقرار فى الجنة أو النار

قد أشرنا إلى أهوال القبر ، وأشد من ذلك نفخ الصور والبعث والحساب ونصب الميزان والصراط ، وهذه أهوال يجب الإيمان بها ، وينبغى تطويل الفكر فيها ، وجمهور الناس لم يتمكن من قلوبهم الإيمان بالآخرة ، ولو أن الإنسان لم يشاهد توالد الحيوانات ، ثم قيل له : إن صانعاً يصنع من هذه النطفة القذرة مثل هذا الآدمى المتصور العاقل المتكلم ، لاشتد نفور طبعه عن التصديق بذلك ، فخلقه على ما فيه من الأعاجيب ، يزيد على بعثه وإعادته . وكيف ينكر ذلك ــ من قدرة الله ــ تعالى ــ وحكمته ــ من يشاهد البداية ؟ فإن كان فى إيمانك ضعف ، فقو الإيمان بالنظر فى النشأة الأولى ، فإن الثانية مثلها وأسهل منها ، وإن كنت قوى الإيمان بها ، فأشعر قلبك تلك المخاوف والأخطار ، وأكثر فيها التفكر والاعتبار ، وليحثك ذلك على الجد والتشمير . وأول ما يقرع أسماع الموتى صوت إسرافيل حين ينفخ ذلك فى الصور . فصور نفسك وقد قمت ذاهلاً مبهوتاً شاخصاً نحو النداء . قال الله ــ تعالى ــ : ﴿ **وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِم يَنسِلُونَ** ﴾[1] .

وعن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ : « **كيف**

---

(١) يس : ٥١ .

أنعم وصاحب الصور قد حنى جبهته ، وأصغى بسمعه ، ينتظر أن يؤمر أن ينفخ فى الصور فينفخ ؟! » قال المسلمون : كيف نقول يارسول الله ؟ قال : **« قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، وتوكلنا على الله »**[1] . ثم انظر كيف يحشر الناس يوم القيامة ، فيساقون بعد البعث حفاةً عراةً إلى أرض المحشر ، وهى قاع ليس فيها ربوة يختفى الإنسان بفنائها . وفى « الصحيحين » قال النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: **« يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النّقى »**[2] .

ثم تفكر فى ازدحام الناس ، وقرب الشمس من رؤوسهم ، وشدة العرق ، مع ما فى القلوب من القلق . وفى الحديث : **« إن العرق يأخذ الناس على قدر أعمالهم »**[3] . وتفكر يامسكين فى سؤال ربك لك عن أعمالك بغير واسطة ، فقد روى عن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ أنه قال : **« يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات : فأما عرضتان ، فجدال ومعاذير ، وأما الثالثة فعند ذلك تطاير الصحف ، فآخذ بيمينه وآخذ بشماله »**[4] .

وعن أبى برزة ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: **« لا تزول قدماً عبد حتى يسأل : عن عمره فيما أفناه ، وعن عمله فيما عمل فيه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ، وعن جسمه فيما أبلاه »**[5] . وعن صفوان بن محرز قال : كنت آخذاً بيد ابن عمر ــ رضى الله عنه ــ، إذ عرض له رجل فقال : كيف سمعت رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ يقول فى النجوى يوم القيامة ؟ فقال : سمعت رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ يقول : **« إن الله ــ عز وجل ــ يدنى المؤمن ، فيضع عليه كنفه ويستره من الناس ، ويقرره بذنوبه ، ويقول : أتعرف ذنب كذا ! أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ حتى إذا قرره بذنوبه ، ورأى فى نفسه أنه قد هلك قال : فإنى قد سترتها عليك فى الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم : قال : ثم يعطى كتاب حسناته ، وأما الكفار والمنافقون ، فيقول الأشهاد : ﴿ هَـٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبوا عَلَىٰ رَبِّهِم أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ »**[6] . أخرجاه فى « الصحيحين »[7] .

---

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك [٥٥٩/٤] ، وتعقبه الذهبى بقوله : أبو يحيى واهٍ .

(٢) البخارى فى كتاب « الرقاق » باب يقبض الله الأرض رقم [٦٥٢١] ومسلم فى كتاب « المنافقين » رقم [٣٨] .

(٣) جزء من حديث رواه مسلم فى صحيحه عن المقداد بن الأسود ، فى كتاب الجنة ، باب صفة يوم القيامة .

(٤) أخرجه الترمذى فى صحيحه [٢٥٧/٩] وقال : لا يصح هذا الحديث من قبل أن الحسن لم يسمع من أبى هريرة ، وبنحوه أخرج الديلمى فى مسند الفردوس رقم [٨٨٢٧] وابن ماجه فى سننه رقم [٤٢٧٧] عن ابن مسعود .

(٥) أخرجه الترمذى فى صحيحه باب صفة القيامة وقال : هذا حديث حسن صحيح ، ورواه الديلمى فى مسند الفردوس من طريق معاذ ، وعزاه الهيثمى للطبرانى فى مجمع الزوائد [٣٤٦/١٠] ، انظر جمع الجوامع [٨٨٩/١] .

(٦) هود : ١٨ .

(٧) المسند [١٠٥/٢] الحديث فى البخارى كتاب التوحيد رقم [٧٥١٠] .

وفى « الصحيحين » من حديث أبى سعيد ، عن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ أنه قال : « **يضرب جسر على جهنم فأكون أول من يجوز** »[1] . وفيهما أيضاً ، عن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ قال : « **يؤتى بالجسر فيجعل بين ظهرى جهنم ، قالوا : يارسول الله ! ما الجسر ؟ قال : مدحضة مزلة ، عليها خطاطيف وكلاليب وحسك ، يمر المؤمنون عليه كالطرف ، وكالبرق الخاطف ، وكالريح ، وكأجاويد الخيل والركاب ، فناج مسلم ، وناج مخدوش ، حتى يمر آخرهم يسحب سحباً** »[2]

● ذكر جهنم أعاذنا الله منها[3]

عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ، قال : كنا عند النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم يوماً ــ: فسمعنا وجبة فقال النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « **أتدرون ما هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : هذا حجر أرسل فى جهنم منذ سبعين خريفاً ، فالآن انتهى إلى قعرها** » رواه مسلم[4] . وفى « الصحيحين » عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « **ناركم هذه التى يوقد ابن آدم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم ، قالوا : والله إن كانت لكافية يارسول الله ، قال : فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً ، كلُّها مثل حرها** »[5] .

وفى أفراد مسلم ، من حديث ابن مسعود ــ رضى الله عنه ــ، عن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ قال : « **يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها** »[6] وعن أبى الدرداء ــ رضى الله عنه ــ قال : يلقى على أهل النار الجوع ، فيعدل عندهم ما فيه من العذاب ، فيستغيثون بالطعام ، فيغاثون بالضريع لا يسمن ولا يغنى من جوع ، فيستغيثون فيغاثون بطعام ذى غصة ، فيذكرون أنهم كانوا يجيزون الغصة بالشراب ، فيستغيثون بالشراب ، فيغاثون بالحميم ، ينالونه بكلاليب من حديد ، فإذا دنا

---

(١) الحديث بطوله فى صحيح البخارى كتاب الرقاق باب الصراط جسر جهنم رقم [٦٥٧٣] ، صحيح مسلم « كتاب الإيمان » رقم [٣٠٢] .

(٢) هو نفس الحديث السابق .

(٣) انظر كتاب « التخويف من النار والتحذير من حال أهل البوار » للحافظ ابن رجب الحنبلى ، من منشورات مكتبة القرآن بالقاهرة ، بتحقيق وتعليق مجدى محمد الشهاوى .

(٤) رواه مسلم فى صحيحه « كتاب الجنة وصفة نعيمها» باب فى شدة حر جهنم وبعد قعرها » ، والبيهقى البعث رقم [٤٨٢] .

(٥) صحيح مسلم « كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها » باب « شدة حر جهنم » رقم [٣٠] ، البخارى فى بدء الخلق باب صفة النار وأنها مخلوقة رقم [٣٢٦٥] .

(٦) صحيح مسلم كتاب « الجنة وصفة نعيمها » ، باب فى « شدة حر جهنم » ، انظر الدر المنثور [٦/٣٥٠] ، البدور السافرة باب [٢٧] ص [٨٤ ــ ٨٦] .

منهم شوى وجوههم ، وإذا دخل بطونهم قطع ما فى بطونهم ، فيطلبون إلى خزنة جهنم : أن ﴿ **ادْعُوا رَبَّكُم يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنْ العَذَاب** ﴾[1] فيجيبونهم : ﴿ **أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالبَيِّناتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الكَافِرِينَ إلاَّ فى ضَلاَلٍ** ﴾[2] . فيقولون : سلوا مالكاً ، فيقولون : ﴿ **يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ** ﴾[3] فيقول : ﴿ **إنكمُ مَاكِثُونَ** ﴾[4] . فيقولون : ﴿ **رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْها فَإِنْ عُدْنَا فإنَّا ظَالِمُون** ﴾[5] فيقول ــ عز وجل ــ: ﴿ **اخْسَؤُا فيهَا وَلاَ تكلِّمُونَ** ﴾[6] . فعند ذلك ييأسون من كل خير ، ويأخذون فى الشهيق والويل والثبور .

وتفكر فى حيَّاتها وعقاربها ، ففى الحديث : « **إنَّ حيَّاتها أمثال أعناق البخت ، وعقاربها كالبغال الموكفة** »[7] . وعن الحسن : أن النار تأكلهم كل يوم سبعين ألف مرة ثم يعودون كما كانوا .

واعلم : أن صفة جهنم تطول ، وأيسر اليسير من ذلك ينبغى أن يكفى فى التخويف ، فإن كنت مؤمناً بهذا فانتبه لنفسك ، وخف ما بين يديك ، فإن الله لا يجمع على عبد خوفين ، ولسنا نعنى بالخوف رقة النساء فتبكى ساعة ثم تترك العمل ، وإنما نريد خوفاً يمنع عن المعاصى ، ويحث على الطاعة . فأما خوف الحُمقى الذين اقتصروا على سماع الأهوال ، وأن يقولوا : استعنا بالله ، نعوذ بالله ، يارب سلم ، وهم مع ذلك مصرون على القبائح ، والشيطان يسخر بهم كما يسخر ممن قصده سبع ضارٍ وهو إلى جانب حصن ، فيقول : أعوذ بالله من هذا ، وهو لا يدخل الحصن ولا يبرح مكانه .

● فصل فى محبة الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم-

وكن فى الدنيا محباً لرسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ ، حريصاً على تعظيم سنته ، لعله يشفع فيك فى الآخرة ، فإن له شفاعة يتقدم فيها على الأنبياء كلهم ، ويسأل الله فى أهل الكبائر من أمته فينجيهم . واستكثر من الإخوان الصالحين ، فلكل مؤمن شفاعة ، ولا تحملنك الغرة على التوانى وتسمى ذلك رجاءً ، فإن من رجا شيئاً طلبه ، واحترز من المظالم ، فإن من كانت عليه مظالم ومات قبل ردها ، فإن غرماءه يحيطون به فى القيامة ، فهذا يقول : ظلمنى ، وهذا يقول : استهزأ بى ، وهذا يقول : أساء جوارى ،

---

(١) غافر : ٤٩ . (٢) غافر : ٥٠ . (٣) (٤) المؤمنون : ١٠٧ : ١٠٨ .
(٥) ، (٦) الزخرف : ٧٧ .
(٧) الحديث أخرجه الإمام أحمد فى مسنده [٤/١٩١] ، والبيهقى فى « البعث والنشور » باب « ما جاء فى حيات جهنم » ، والحاكم فى المستدرك [٤/٥٩٣] وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبى ، وابن حبان فى صحيحه [٩/٢٧٨ ــ ٢٧٩] ، وفى مجمع الزوائد [١٠/٣٩٠] عزاه للطبرانى فى الكبير ، وذكره السيوطى فى البدور السافرة باب [١١٦] رقم [٣] .

وهذا يقول : غشنى ، فلا خلاص لك من أيديهم . فإذا توهمت الخلاص قيل : لا ظلم اليوم .

وعن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « **يخلص المؤمنون يوم القيامة من النار ، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا ، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم فى دخول الجنة** »(١) وعن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ ، أن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ قال :« **أتدرون ما المفلس** » قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، قال : « **إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتى قد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم طرح فى النار** »(٢) .

وعن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ عن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ قال : « **لتؤدُّنَ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة ، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء** »(٣) . وهذه الأحاديث كلها فى الصحاح . فانظر وفقك الله إلى بُعْد سلامة حسناتك لدخول ما يبطلها من الرياء والغيبة ، فإن سلمت أخذها الخصوم ، فتيقظ لنفسك ، ولا تفرط فى أوقاتك ، فإن المسكين من آثر لذة منقطعة ، واشترى بها عذاباً شديداً دائماً . نسأل الله السلامة والتوفيق(٤) .

● ذكر صفة الجنة نسأل الله العظيم من فضله

عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال : قلنا : يارسول الله ! حدثنا عن الجنة ،مابناؤها؟ قال : « **لبنة من ذهب ، ولبنة من فضة ، وملاطها المسك الأذفر ، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت ، وترابها الزعفران ، من يدخلها ينعم ولا يبأس ، ويخلد ولا يموت ، لا تبلى ثيابه ، ولا يفنى شبابه** »(٥) .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه كتاب « الرقاق » ، باب « القصاص يوم القيامة » رقم [٦٥٣٥] .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب « البر » ، باب « تحريم الظلم » ، والترمذى فى صحيحه كتاب « الزهد » باب « ما جاء فى شأن الحساب والقصاص » وقال : حديث حسن .

(٣) أخرجه الترمذى فى صحيحه « كتاب الزهد » باب « ماجاء فى شأن الحساب والقصاص » وقال : حديث حسن صحيح .

(٤) للمزيد عن صفة النار والجنة والبعث والحساب انظر « التخويف من النار » لابن رجب الحنبلى . تحقيق مجدى محمد الشهاوى ، البدور السافرة للسيوطى تحقيق مصطفى عاشور ، طبعتهما مكتبة القرآن .

(٥) المسند [٢/٣٠٤ ــ ٣٠٥] ، البيهقى فى كتاب « البعث » حديث [٢٥٨] ، الترمذى كتاب « صفة الجنة » باب « ما جاء فى صفة الجنة ونعيمها » .

وفى حديث أسامة بن زيد ، عن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ أنه قال يوماً وذكر الجنة : « **ألا مشمر لها ؟ هى ورب الكعبة ريحانة تزهر ، ونور يتلألأ ، ونهر مطرد ، وزوجة لا تموت ، فى حبور ونعيم ، ومقام فى أبد** » ، فقالوا : نحن المشمِّرون لها يا رسول الله ، قال : « **قولوا : إن شاء الله** »[1] . وفى « الصحيحين » من حديث أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ أنه قال : « **إن الله ــ عز وجل ــ قال : أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر** »[2] . وفيهما أيضاً من حديثه عن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ أنه قال : « **أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، ثم الذين يلونهم على أشد كوكب درى فى السماء إضاءة ، لايبولون ولا يتغوطون ولا يتفلون ولا يتمخطون ، أمشاطهم الذهب ، وريحهم المسك ، ومجامرهم الألُوة الألنجوج(*) ، أزواجهم الحور العين ، على خلق رجل واحد ، على صورة أبيهم آدم ، ستون ذراعاً فى السماء** »[3] ، وفى رواية أخرى : « **لكل واحد منهم زوجتان ، يرى مخ سوقهما من وراء اللحم من الحسن،لا اختلاف بينهن ولا تباغض قلوبهم على قلب واحد ، يسبحون الله بكرة وعشياً** »[4] .

وعن أبى موسى الأشعرى ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « **جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ، ومابين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلارداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن** » . أخرجاه فى « الصحيحين »[5] .

وفيهما من حديث أبى موسى أيضاً عن النبى ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ قال :

---

(١) أخرجه ابن ماجه [٤٣٣٢] ، ابن أبى الدنيا فى صفة الجنة ، وابن أبى حاتم ، وابن حبان [٢٦٤٠] ، وابن أبى داود ، وأبو الشيخ فى العظمة ، وابن مردويه كلهم عن أسامة بن زيد ، [الدر المنثور ٣٦/١] ، وأخرجه البيهقى بنحوه فى البعث رقم ٣٩١ عن أسامة .

(٢) البخارى فى كتاب « التوحيد » رقم [٧٤٩٨] ، ورواه مسلم فى « الجنة » برقم [٢ ــ ٥] .

(*) أنواع من العشب يتبخر بها (بخور) .

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه كتاب « بدء الخلق » باب « ماجاء فى صفة الجنة وأنها مخلوقة » ، ومسلم فى صحيحه « كتاب صفة الجنة ونعيمها وأهلها » باب « ماجاء فى صفة الجنة وأهلها » ، والبيهقى فى البعث رقم [٢٩٩] .

(٤) أخرجه أحمد فى المسند [١٦/٣] ، والترمذى فى صحيحه كتاب « صفة الجنة » وقال حديث حسن [٩/١٠] والبيهقى فى البعث رقم [٣٠٠] .

(٥) أخرجه البخارى عن عبد الله بن قيس فى كتاب التوحيد باب قول الله ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ ، وأخرجه مسلم عن عبد الله بن قيس أيضاً فى كتاب الإيمان باب إثبات رؤية المؤمنين فى الآخرة ربهم سبحانه ــ وتعالى ــ، وبنحوه فى المسند [٤١٦/٤] عنه ، وأخرجه الطيالسى فى مسنده عن أبى موسى الأشعرى رقم [٥٢٩] والبيهقى عن أبى موسى فى البعث رقم ٢١٧] .

« إن فى الجنة لخيمة من درة مجوفة ، عرضها ستون ميلاً ، فى كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين ، يطوف عليهم المؤمن »[1] .

واعلم : أن الله — تعالى — ذكر نعيم الجنة مبسوطاً فى مواضع القرآن ، ثم جمعه فى آيات . منها قوله — تعالى —: ﴿ **وَفِيهَا مَاتَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ** ﴾[2] . وقوله : ﴿ **لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حولاً** ﴾[3] ثم زاد على ذلك بقوله : ﴿ **فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخفى لهم من قُرَّةِ أعْين** ﴾[4] صفات الجنة كثيرة اقتصرنا منها على هذا .

وأفضل ما ينال فى الجنة رؤية الله — تعالى —. وفى « الصحيحين » من حديث أبى هريرة — رضى الله عنه — أنه قيل : يارسول الله ! هل نرى ربنا ؟ فقال : « **فهل تضارون فى رؤية القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب ؟** » قالوا : لا ، قال : «**فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك** »[5] .

● باب فى ذكر سعة رحمة الله - تعالى -

نختم الكتاب بذكر سعة — رحمة الله — عز وجل ، نرجو بذلك فضله ، إذ ليس لنا أعمال نرجو بها العفو ، لكن نرجو ذلك من رحمته وكرمه ، قال الله — تعالى —: ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِى الَّذِينَ أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذنوب جَمِيعاً إنَّهُ هو الغفور الرحيم** ﴾[6] . وعن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم —: « **لما قضى الله — عز وجل — الخلق ، كتب فى كتاب فهو عنده فوق العرش : إن رحمتى غلبت غضبى** » أخرجاه فى « الصحيحين »[7] .

وعن أبى هريرة — رضى الله عنه —، عن النبى — صلى الله عليه وآله وسلم — قال : « **إن لله — عز وجل — مائة رحمة ، أنزل منها رحمة واحدة بين الإنس والجن والهوام والبهائم ، فبها يتعاطفون ، وبها يتراحمون ، وبها تعطف الوحش على أولادها . وأخر تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة** »[8]. وعن ابن عباس قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم —: « **إن ربكم — تبارك وتعالى — رحيم ، من همَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف ، ومن**

(١) رواه البخارى فى « بدء الخلق » باب « صفة الجنة » رقم [٣٢٤٣] ، مسلم فى « الجنة » رقم [٢٣ — ٢٥] .

(٢) الزخرف : ٧١ (٣) الكهف : ١٠٨ . (٤) السجدة : ١٧ .

(٥) رواه البخارى فى « الرقاق » رقم [٦٥٧٣] ، رواه مسلم فى « الإيمان » رقم [٣٠٢] ، وقد تقدم تخريجه .

(٦) الزمر : ٥٣ (٧) مسلم فى « التوبة » برقم [١٤ — ١٦] ، البخارى فى « التوحيد » رقم [٧٤٠٤] .

(٨) رواه مسلم فى كتاب « التوبة » برقم [١٩ — ٢١] ، المسند [٣٤/٢] — [٤٣٩/٥] .

هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له سيئة واحدة أو يمحوها الله ، ولا يهلك على الله تعالى إلا هالك » .[1]

وعن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « **يقول الله عز وجل : من عمل حسنة فله عشر أمثالها وأزيد ، ومن عمل سيئة ، فجزاء سيئة مثلها أو أغفر ، ومن اقترب إلى شبرا اقتربت إليه ذراعاً ، ومن اقترب إلى ذراعاً اقتربت إليه باعاً ، ومن أتانى يمشى أتيته هرولة** »[2].

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم : « **أن رجلاً أذنب ذنباً فقال : أى رب ؟ أذنبت فاغفر لى ، فقال ـ تبارك وتعالى ـ : علم عبدى أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدى ثم مكث ما شاء الله ثم أذنب ذنباً آخر فقال : أى رب عملت ذنباً فاغفره لى فقال : ـ عز وجل ـ علم عبدى أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به ، قد غفرت لعبدى . ثم مكث ما شاء الله ، ثم أذنب ذنباً آخر فقال : أى رب ! عملت ذنباً فاغفره لى ، فقال ـ عز وجل ـ: علم عبدى أن له رباً يغفر الذنب ، أشهدكم أنى قد غفرت لعبدى ، فليعمل ما شاء** »[3]. هذه الأحاديث كلها صحاح .

وفى «الصحيحين» من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : قدم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بسبى ، وإذا امرأة من السبى تسعى ، إذ وجدت صبيا فى السبى فأخذته ، فألصقته ببطنها ، فأرضعته ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «**أترون هذا المرأة طارحة ولدها فى النار ؟**» قلنا : لا والله . قال : «**لله أرحم بعباده من هذه المرأة بولدها**»[4] . وفى «الصحيحين» من حديث أبى ذر رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال «**ما من عبد قال : لا إله إلا الله ، ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة**» . قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : «**وإن زنى وإن سرق ، وإن زنى وإن سرق ، وإن زنى وإن سرق**» ثم قال فى الرابعة : «**على رغم أنف أبى ذر**»[5] . **وفيهما من حديث عتبان بن مالك رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : إن الله حرم النار على من قال : لا إله إلا الله ، يبتغى بذلك وجه الله** »[6]

---

(١) المسند [٢٧٩/١] .

(٢) البخارى فى كتاب « التوحيد » باب [٥٠] رقم [٧٥٣٦] بنحوه ، مسلم فى « الذكر » رقم [٢ ـ ٣] ، [٢٠ ـ ٢٢] ، التوبة : ١ .

(٣) رواه البخارى فى « التوحيد » باب ٣٥ رقم [٧٥٠٨] ، المسند [٢٩٦/٢ ، ٤٠٥ ، ٤٩٢] .

(٤) رواه مسلم فى كتاب « التوبة » رقم [٢٢] .

(٥) البخارى عن أبى ذر بنحوه فى كتاب « الجنائز » باب « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله » ، ومسلم فى « الإيمان » باب من « مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة » ، واللفظ لمسلم .

(٦) أخرجه مسلم فى « المساجد ومواضع الصلاة » باب « الرخصة فى التخلف عن الجماعة بعُذر » .

وفيهما من حديث أنس بن مالك ــ رضى الله عنه ــ، عن النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: أنه قال : « **يخرج من النار من قال : لا إلٰه إلا الله ، وكان فى قلبه من الخير ما يزن شعيرة ، ثم يخرج من النار من قال : لا إلٰه إلا الله وكان فى قلبه من الخير وزن برة ، ثم يخرج من النار من قال : لا إلٰه إلا الله وكان فى قلبه من الخير ما يزن ذرّة** »[1].

وعن أبى موسى ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ــ ﷺ ــ: « **إذا كان يوم القيامة لم يبق مؤمن إلا أتى بيهودى أو نصرانى حتى يدفع إليه فيقال له هذا فكاكك من النار** »[2].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ: « **إن الله عز وجل يستخلص رجلاً من أمتى على رءوس الخلائق يوم القيامة ، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً ، كل سجل منها مد البصر ، ثم يقول : أتنكر من هذا شيئاً ؟ أظلمك كتبتى الحافظون ؟ قال : لا يارب ، فيقول : ألك عذر أو حسنة ؟ فيبهت الرجل ، فيقول : لا يارب . فيقول : بلى ، إن لك عندنا حسنة واحدة لا ظلم عليك اليوم فيخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إلٰه إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، فيقول أحضروه ، فيقول : ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ، فيقال : إنك لا تظلم ، فتوضع السجلات فى كفة ، والبطاقة فى كفة . قال : فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ، ولا يثقل شىء مع اسم الله ــ عز وجل ــ** »[3].

ونظر الفضيل بن عياض إلى تسبيح الناس وبكائهم يوم عرفة فقال : أرأيتم لو أن هؤلاء صاروا إلى رجل يسألونه دانقاً[*]، أكان يردهم ؟ فقيل : لا ، فقال : والله المغفرة عند الله ـ عز وجل ـ أهون من إجابة رجل لهم بدانق !

وعن إبراهيم بن ادهم قال : خلا لى الطواف فى ليلة مظلمة شديدة المطر ، فلم أزل أطوف إلى السَّحر ، ثم رفعت يدى إلى السماء . فقلت : اللٰهم إنى أسألك أن تعصمنى عن جميع ما تكره . فإذا قائل يقول فى الهواء : أنت تسألنى العصمة ، وكل خلقى يسألنى العصمة ، فإذا عصمتك فعلى من أتفضل ؟ .

فهذه الأحاديث مع ما ذكرناه فى كتاب الرجاء ، تبشرنا بكرم الله ــ تعالى ــ وسعة رحمته وجوده . ونحن نرجو من الله سبحانه ألا يعاملنا بما نستحقه ، وأن يتفضل علينا بما هو أهله . ونحن نستغفر الله ــ عز وجل ــ من أقوالنا التى تخالف أعمالنا ، ومن كل

---

(١) البخارى فى التوحيد رقم [٧٥١٠] ، مسلم فى الإيمان رقم [٣١٦ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦] .
(٢) المسند [٤٠٢/٤] . (٣) المسند [٢١٣/٢] . (*) الدَّانِق والدانق سدس الدرهم

تصنع تزينا به للناس ، وكل علم وعمل قصدناه ، ثم خالطه ما يكدره ، فبكرمه نستشفع إلى كرمه ، وبجوده نسأل من جوده ، إنه قريب مجيب .

والحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى ، وكما ينبغى لكريم وجهه — عز وجل — .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين .

إلى هنا تمت ، وكان الفراغ من نسخه فى اليوم المبارك فى أربعة عشر من شهر جماد أول سنة أربعة وسبعين ومائة وألف ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، والعاقبة للمتقين .

كتبه الفقير إلى الله تعالى المعترف بالعجز والتقصير حسن بن على بن أحمد — غفر الله له — ، ولمن دعا له بالمغفرة ، والسلام .

إن تجد عيباً فسد الخللا تبقى عند الناس فى عين الملا
لا تعاير مَن به عيب وقُل جل من لا فيه عيب وعلا